
نواعير الفرات
أو
بين العرب والأكراد
تأليف
الصحفي الهولندي
مالبيارد
ترجمة
الدكتور حسين كبه

نواعير الفرات

أو

بين العرب والأكراد

تأليف

الصحفي الهولندي

ماليبارد

ترجمة

الدكتور حسين كبه

طبع
بمطبعة الرابطة ـ بغداد
١٩٥٧

محتويات الكتاب

الفصل		رقم الصفحة

الفصل	رقم الصفحة

من كتب جبرائيل شرف

كلمة المعرب

لعل أهم ما يثير اهتمامنا ، في حياتنا الاجتماعية ، ان نعرف ما يقوله الناس عنا ، وتسمع ما ينقدوننا به ، وقد يستثار اهتمامنا ، كلما كان النقد لاذعا او كان موجها ممن له قيمته وشأنه بين الاوساط الاجتماعية ، والنبيه من يستطيع ان يتقبل مثل هذاالنقد بصدر رحب ، ويتحمل لذعاته بأعصاب قوية سواء أكان بريئا في رأيه ، او مغرضا .

وقد لا يبعد أن يكون من دوافع اهتمام المرء بنظرة الناس اليه ، حرصه على ان يعرف مواطن الضعف فيه او ان يعرف ما ظهر منها للآخرين ، على الاقل .

ونحن نعيش اليوم حياة ، نريدها ان تساير حياة الامم الحرة ، ونهدف في تنظيم مجتمعاتنا ، وبناء نهضتنا الاقتصادية ، آخر ما وصلت اليه مدنيـة القرن العشرين ، ونكافح قوى جبارة ، عز علينا وعينا وشعورنا بكرامتنا ، فنحن اليوم أحوج ما نكون الى ان نقرأ أو نسمع ما يكتب عنا من آراء صريحة ونقدات جريئة .

وهذه بحوث كتبها أديب من أدباء الغرب عن العراق ، هو الكاتب الصحفي الهولندي « ما ليبارد » الذي كان عضوا في البعثة التي جاءت الى العراق لدراسة احواله الاقتصادية والاجتماعية في زيارة استغرقت خمسة أشهر ، استطاع أن يستغل كل لحظة من لحظات ايامها ، فتجول بين ربوع هذه البلاد من شمالها الى جنوبها ومن شرقها الى غربها ، فجاب مدنها وقراها

وريفها ، وتغلغل بين عشائر العرب والاكراد ، فتعرف على شخصيات كثيرة من زعمائهم ، ورؤساء عشائرهم وسراكيلهم ، وجلس مع فلاحيهم ، وسمر معهم امسيات عديدة . واختلط بين مختلف طبقات الشعب الاجتماعية ، فسجل آراءه وانطباعاته باسلوب ادبي ، وعقلية اوربية .

ولقد وجدت في هذه البحوث ، صورا أخاذة ، ارتسمت فيها حقائق كثيرة عن مجتمعنا العراقي ، فكل بحث منها يمثل لنا لوحة فنية ، استوعبت ناحية من نواحي حياتنا الاجتماعية ، فيها النقد البريء والصراحة المرة ، وفيها الاعجاب بآيات الجمال ، والغبطة لمصادر الخير ، وفيها الانات والحسرات لمظالم الدهر ، وقساوة حكامه ، وفيها آراء قيمة وحكم بالغة ، ونكات مستملحة ، لابد ان يقرأها ، ويمعن النظر فيها كل مواطن عراقي ، ليرى فيها صورته وصورة مجتمعه ، رسمها قلم اوربي ، ولونها خيال اوربي .

والحق انها جذبتني جذب الصائد لفريسته ، فاستهوتني مادتها المركزة ، واسلوبها الاخاذ . اذ وجدت في كل بحث منها خيالا ممتعا ، ودراسة عميقة ، وصورا واقعية ، قلما يظفر بها العراقي نفسه وهو في موطنه ، او قد يراها فلا تلفت نظره .

وقد رأيت ، ان لابد ان يشاركني في قراءة هذه البحوث الممتعة ، اكبر عدد من المواطنين ، الذين صورهم المؤلف فيها ، ووصف حياتهم الاجتماعية ، وعالج مشاكلهم الاقتصادية ، وتطرق الى منظمات الدولة ، وحلل الصعوبات التي أخرت البلاد في نهضتها الزراعية ، وتكلم عن الصيد ، وعن الثروة الحيوانية في البلاد ، وتطرق الى كثير من الحقول التجارية والصناعية ونقد بعض عادات البلاد ، وسلوك اهاليها ، وشاركهم في كثير من افراحهم واتراحهم .

وبهذا الشعور ، اندفعت الى ترجمة هذا المؤلف من اللغة الالمانية الى لغتنا

العربية الحبيبة . ولقد حاولت في ترجمته ، جهد الامكان ، ان احافظ على امانة النقل في التعابير التي استعملت في ترجمته الالمانية ، وفي الاسلوب الادبي ، الذي صيغت به .

فقد كتب « ماليبارد » هذه البحوث بلغته الهولندية ، وجعل عنوان مؤلفه « بين العرب والاكراد » وتصدى له من الالمان [T.H.A. Knust, Jutta] فترجماه الى اللغة الالمانية ، وتولى نشره ، لجنة (Albert Langen-Georg Müller) في ميـــونيخ وقابـل الترجمـــة (Peter Mauder)، وطبع في مطبعة (Goldmanns Gelbe Taschenbücher) في سنة ١٩٥٦ .

واني اذ اقدم هذه البحوث بين يدي القارىء العربي الكريم ، بلغتنا العربية الحبيبة ، ارجو ان اكون قد وفقت في ترجمتها وسهلت لمواطني في العراق خاصة ، والبلاد العربية عامة قراءتها ، والله ولي التوفيق .

١٩٥٦/١٠/١٥ حسين كبه

مقدمة المؤلف

قد لا يتاح لمبعوث الى بلد غريب عليه ، لدراسة احواله الاجتماعية والاقتصادية والمالية ، والتعرف الى منظمات جماعاته ، وتشكيلاتها ، ان يرسم له صورة واضحة ، تمثل اوضاع حياته ، اذا هو اقتصر على ما يروى له من المعلومات والاخبار ، وما يعرض له من سجلات الاحصائيات ، والمعاملات المالية .

ويخال لى ، ان مثل هذه المصادر ، لا يرى الباحث فيها ، الا مظهرا من شكليات تلك المنظمات الاجتماعية فقط ، ويندر جدا ان تنهض مثل تلك المسموعات ، على ان تبين له العوامل الداخلية ، التى هى اعمق أثرا فى مظهر هذه الصورة الاجتماعية ، فى مختلف مناحى الحياة ، فهى فى الحقيقة أهم عنصر يمكن ان يساعد فى تصوير احوال تلك المجتمعات ، وتمثيل ما يحيط بها من امور غامضة .

والحقيقة ، ان الوقت الذى يتيسر للباحث فى هذه المجالات الاجتماعية ، غالبا ما يكون قصيرا جدا ، فلا يكفيه ان يتعرف على احاسيس سكان البلد ، أو ان يتلمس افراحهم واتراحهم ، بله ، ان يتفهمها ، أو ان يدرك غوامضها .

ومع كل ذلك ، فقد تذهب جهود الباحث سدى ، ان هو اراد ، أن يسبر غور الوقائع الحقيقية فى حياة هذه الشعوب ، وما لعبته الامور الحيوية فى ترابط بعضها مع البعض الآخر ، ولذلك فلا يمكن ان يظفر الباحث

بفكرة واضحة ، متسلسلة الوقائع ، مبسطة الحوادث عن هذه البلاد • ولست اريد ، ان ادعى لنفسى العجب ، اذا قلت ، اننى قد جهدت فى ان اعرف عن هذه البلاد ، وسكانها ، ما لم يتيسر فى الاخبار ، ولم يسطر فى السجلات أو الاحصائيات •

ولعل كل حادثة ، او نادرة تضمنها هذا المؤلف ، مهما بدت قليلة الاهمية ، يمكن ان تساعد فى فهم تلك المعلومات الواسعة العامة ، ولكننى لا ادعى ، بل ولا يستطيع احد ان يدعى ، بأن المعلومات التى تضمنتها هذه الرحلة ، يمكن ان تعد من المتممات الهامة لتلك البحوث العلمية التى نشرت فى حينه ، وقد يبدو ذلك بوضوح ، بعد قراءة هذا الكتاب ، ذلك ان فصول هذه الرحلة ، وما احتوته من معلومات ، كانت قد كتبت بدوافع بعضها جدية وبعضها لعبت بها الميول والعواطف •

ولكن الرغبة كانت تحدونى ان انظر الى كل ما احاطبى فى هذه الرحلة بمنظار متخصص بعلوم الاقتصاد ، لارى واتمثل كل ما يشبع غريزة حب الاستطلاع التى تقوى عادة عند الرحالة ، او الذين يميلــون الى الدرس والاستقصاء ، ولعل القارىء هو الذى يستطيع ان يحكم ، فيما اذا كنت قد تبينت فى هذه البحوث شيئا قيما يستحق كل هذا الجهد • والحق ، انها بحوث لم تقتصر على ان تغمر قلبى غبطة وسرورا بل كانت قد ساعدتنى كثيرا فى تفهم احوال هذه البلاد ، أكثر بكثير من تلك الدراسات التى اشرت اليها •

كانت الطائرة ، قد حلقت بنا من مطار دمشق ، فشقت اجواء الفضاء نحو الشرق ، فوق البادية المترامية الاطراف • فبدت لنا سهولها ووديانها مغرية ، وهى تتلاعب بأشعة الشمس ، وبنسمات الريح ، حرة طليقة •

ولم تكن الشمس ، تجد لها شبحا ، ليبين ظله فى سهول تلك البادية ولم تجد الرياح فيها ما يعيق هبوبها من شجر أو ادغال ، وتراءت لنا البادية

بأطرافها الشاسعة ، وهي في عزلتها ، من غير ان نلمح فيها أثرا للحياة ، وقد تغير بعض التلول التي تلوح فيها بعض الاحيان ، منظر تلك اللوحة الصافيـــة المقفرة ، ولكن اشباح هذه التلول كانت تتضاءل ، كلما أمعنت الطائرة في تحليقها فتبدو لوحة البادية في سكونها ووحدة منظرها .

ويبدو للعين فيها ، بعد برهة وجيزة خط دقيق ، يمتد مسافات واسعة باستقامة واحدة ، لا ينقطع الا نادرا ، حينما يعترضه بعض الانحناءات أو الالتواءات فلا يبين ، وقد بدا لي كذلك طريق يسير بمحاذاة هذا الخط ، يتبين بوضوح من لونه الذي غاير لون رمال الصحراء ، انه الطريق الذي يسير الى جانب انابيب البترول ، تلك الانابيب التي تقطع مئات الكيلو مترات ، تحمل لنا هذا السائل الذي هو عماد مدنيتنا من منابع الموصل وكركوك ، الى مرافىء البحار . ولقد رأيت اشباحا تتحرك في هذا الشارع ، ولعلها بعض سيارات « الجيب » او الحمل ومن يدري ، فلعلها تحمل بعض الاشخاص الذين يعملون في منظمات شركة النفط ، أو بعض السواح . والحقيقة ، ان هذا الخط من الانابيب السوداء ، قد آنس هذه الصحراء ، وبدد شيئا من وحشتها ، وجعل الفكر يجول فيها ، فينشغل بعدد من المشاكل والمصالح ، وكلها تدور حول ما تدره هذه الانابيب السوداء من الخيرات ، في حين كانت هذه البادية قبلا ، هي الدائرة الوحيدة التي يسكن في محيطها الفكر وتهدأ بين وديانها النفس .

اما الآن ، فنرى ، ان سبق ان اشغلت هذه الانابيب فكر رجل ايران ، فراح يسعى الى تأميم بترولها ، الذي رآه تحت حيازة القوى الانكليزية ، ونرى من جهة أخرى ، ان العراق يندفع متحمسا ، فيوقف ضخ بتروله في هذه الانابيب التي تمتد الى حيفا ، بعد ان تأسست الدولة اليهودية في فلسطين ، وهي التي لا تزال ينظر اليها العربي ، كالسهم الذي قد طعن قلبه ، ونرى

كذلك ، ان هذا العالم الغربى ، يبدو قلقا لحرصه الكثير على استخراج هذا السائل الثمين ، واستخدامه ، فتـراه يتابع فى مجهوده كل ما يمكنه من استغلال نفوذه للحصول على المزيد منه •

وانا الذى ، ليس لى فى مشاكل هذا البترول أية مصلحة ، أرانى اتدخل فى مواضيعه ، لانى عضو فى البعثة التى بعثت الى الشرق الاوسط لتقديم المساعدات التكنيكية ، فطلبت منى الحكومة العراقية ان ابدى مشورتى فى نهضة العراق الاقتصادية وتطوراتها ، على اساس المفاهيم الغربية •

والحقيقة ، ان الشرق الاوسط ، اصبح اليوم مجموعة من المشاكل المعقدة ، وهو لذلك ، يختلف كل الاختلاف عن أى بلد معمور فى العالم • انه الان يبحث عن الامكانيات والوسائل ، التى تأخذ بيده الى تطوير حياته وقلب اوضاعه البالية ، واستبدالها بحياة اوربية وعقلية اوربية ومدنية اوربية ، وهو يسعى الى الوصول الى هذا الهدف ، رغم كل ما يقف امامه مما الفته مجتمعاته من سبل قديمة فى العيش والتفكير والعادات ، والتعاليم والقيم •

لقد استعادت بلاد ما بين النهرين مركزها اليوم ، فاصبحت محط انظار العالم من جديد ، بعد ان فقدت اهميتها فى الاوساط العالمية مـــدة قرون عديدة ، فقد تقادم العهد على تلك الايام البيض ، التى قد حفل بها تاريخها القديم ، يوم ان كانت هذه البلاد محورا يدور حولها العالم المعروف اذ ذاك ، فيهتدى بهديها ، لقد شهدت هذه البلاد ، قبل قرون خلت ، سلالات من الملوك والعظماء ، كانوا فى طليعة رجال العالم ، ولم يكن فى العالم اذ ذاك بلاد قاومت وناضلت ، وكافحت ، وتحملت انواع العذاب ، بل واستفادت كذلك مثل بلاد هذا الشرق الاوسط فى عصورها القديمة • وها هى مخلفاتها التاريخية ماثلة امامنا ، يرجع عهدها الى خمسين قرنا من الزمن ولا تزال الحفريات بين ثنايا الطبقات الرملية ، تطالعنا كل حين فتكشف لنا عن تلك الحضارات

القديمة التي ازدهرت في هذه البلاد .

ومهما يكن من امر ، فان معالم تلك الحضارات التي شهدتها بلاد ما بين النهرين ، ترينا بوضوح ، بان تلك السلالات الملكية ، التي قد تألق نجمها وحفل تاريخها بالمجد والعظمة كانت قد شيدت سلطانها ، على انات وحسرات تلك الشعوب المغلوبة على امرها ، وعلى اكتاف المستضعفين والطبقات الفقيرة من الناس ، الذين استخدموا وارهقوا في بناء حكمهم وسلطانهم . ولم يزل الفقر حتى اليوم يعم هذه البلاد بصورة واسعة . ولكن الوضع اليوم في الشرق الاوسط يختلف عن ذي قبل كل الاختلاف . فالناس اصبحوا يدركون ، بانهم فقراء ، وهم لذلك ، يتطلبون ان يرتفع مستواهم ، وان يعيشوا حياة فيها الرغد والكرامة . فاندفعوا بهذا الشعور ، يتحفزون ان ينالوا نصيبهم من الحياة ، وقد عم هذا الوعي جميع انحاء الشرق الاوسط حتى بدا واضحا ، يتلمسه كل من يتغلغل بين اوساطه . يتمثل هذا الشعور بالسعي الى ارغام الطبقات الحاكمة ، بان ينصفوهم حقهم من خيرات بلادهم ، ويوحوا اليهم ، بان عليهم ان يحسبوا حسابهم ، بان هذا الفقر الذي يكابدونه ، لابد ان يضعوا له نهاية ، مهما كلفهم الامر من الدماء والتضحيات ، وقد اصبح اليوم عدد كاف من الناس ، في هذا الشرق الاوسط ، ـ وفي العراق كذلك ـ من يعني ما يقول ، فلم يعد هذا الشعور بالتذمر ، اقوالا ترددها الالسن ، بل قد تمثلته عقولهم وتشبعت به قلوبهم .

ترى لم لا يندفع هؤلاء الناس ، بهذا الشعور والوعي فيحطموا هذه الاوضاع التي سببت لهم نكد العيش ، ويدفنوا هذا المريض الذي يعالج سكرات الموت في قبره ؟ ولم لا يجرف هذا التيار من الوعي والشعور ما يقف في طريقه من العراقيل والصعاب ؟

ولعل اهم مشكلة تعترض سبيل انتفاضة هذا الشرق ، هي ايجاد

نوع من التوازن بين تقدم الغرب السريع وركود الشرق وجموده ، ومثل هذا التوازن لا يتم الا اذا تغلب الشرق على تلك الهوة السحيقة التى تباعد بين مفاهيم الحكم فى العقلية الغربية ومفاهيمه فى الاتوقراطية الشرقية ، او ان اردنا ان نعبر بتعبير ابعد فى معناه ، ان يتغلب على تلك الهوة التى حصلت بين تعاليم الحكومات ومثلها من جهة ، وبين قوانين الشعب وشرائع النبى الواضحة من جهة ثانية ، ولعل العقول النيرة تستطيع ان تأخذ مما قاله النبى محمد ، حول الفقراء المعوزين ، مثلا قيمة ، وحكما بليغة .

وبينا ، كان فكرى يجول فى هذه الخواطر ، اذ حطت الطائرة فى بغداد . فانشغلت بامر حقائبى من الكمرك ، ثم حملتها الايدى الخفيفة بعد فترة قصيرة الى السيارة ، وهى لم تلبث ان انطلقت مسرعة ، فمرت بتمثال الملك فيصل الاول البرنزى اللون ، ثم عبرت الجسر ، فاتجهت الى الشارع العام ، وهو الشارع الذى سمى باسم هارون الرشيد .

المؤلف

« ١ »

بغداد

قد يخادع الانسان نفسه ، اذ يندفع ، يحدوه الامل ، ليرى في بغداد اليوم ، ما كان يقرأه عنها في قصص الف ليلة وليلة ، فهو حيثما يسير في شوارعها يجدها مبلطة بالاسفلت ، ويرى من بين زجاجات محلات العرض في هذه الشوارع مختلف الانواع من ادوات السيارات الامريكية ، والساعات السويسرية ، والاقمشة الانكليزية وكثيرا من مختلف المآكل المجففة ، وبضائع كثيرة أخرى •

وعبثا يحاول المتطلع ، ان يرى فيها الآن معالما لقصور الملوك المنيفة ، أو يجد فيها أثرا لتلك الزخرفة والنحت مما كانت تزخر به قصور الخلفاء ايام هرون الرشيد ، وهي التي جعلت هذه المدينة تمتاز على مدن الشرق ، بابهتها وبهرجتها •

وبدلا من ان يرى زحام القوافل ، وتدافع الابل بخطواتها الواسعة ، في اسواقها ومنعرجاتها ، يشاهد الان السيارات الامريكية الضخمة ، واحدث وسائط النقل من سيارات الحمل ، تجوب الشوارع المبلطة • فتملأ الجو بدخانها ، وتزعج المارة باصوات منبهاتها أو بتجاوب اصدائها ، فيضيق الانسان ذرعا بتحملها •

والحق ، ان اصوات المنبهات وجلبتها وضوضاءها في شوارع بغداد ، ابرز شيء تتميز به هذه المدينة ، من بين جميع المدن التي زرتها • وقد يكون اول انطباع يتأثر به الزائر ان يظن ان سواق السيارات في هذه المدينة ،

قد اتفقوا فيما بينهم وتعاقدوا على ان يبعدوا عن حضيرتهم ، ما امكن ، من ترعجه الضوضاء والجلبة ، التي تحدثها منبهات سياراتهم •

ويلوح لى ان سائق السيارة البغدادى ، يضع اصبعه على زر المنبه ، فيضغط عليه من غير انقطاع ، ويستمر على ذلك ، لينفس عن كرب ألم به •

ومما يزيد الضجيج ، ان منبهات السيارات ، ليست من المنبهات التى تستعمل عادة فى اوربا واميركا ، وهى التى لها نغم يقبله الذوق ، ولا يمجه السمع ، بل هى منبهات تثير اصواتها ضجة ، تملأ الآفاق ، فيرن صداها فى آذان المارة ، وكأنه الرعد • وفى وسط هذا التزاحم من ضجيج الاصوات، لابد ان يأخذ الرعب ركاب الدراجات الهوائية والبخارية ، وتيأس الحمير فتحجم عن السير • ولا شك ان اجراس الدراجات ـ وهى كثيرة فى شوارع بغداد ـ لن تقوى على ان تبارى مع اصوات منبهات السيارات ، ولذلك ، فان ركابها يرون ان لا بد ان يخوضوا هذه المعركة ، فيتسابقوا باصوات منبهات ، اكثر جلبة من منبهات سواق السيارات ، وهكذا راح كل منهم يستعمل منبهين قديمين لدراجته ، تصم اصواتهما آذان الناس ، ليحتفظوا بكيانهم فى هذا الزحام ، وركاب الدراجات الذين يعجبهم هذا الضجيج يزيدون فى اثارته ، فيضعون خلف سروج دراجاتهم منبها ثالثا على شكل بوق ، تنفخه حركات اهتزازاتهم ، وهم بذلك يثيرون غضب سواق السيارات ، ويزيدون فى توتر اعصابهم • والمنبهات التى يستعملها ركاب الدراجات ، ليست منبهات ثابتة فى دراجاتهم ، وانما هى اجهزة كاملة يختارونها ، بحيث تكون فى اصواتها ونغماتها أشبه بأجهزة منبهات سيارات الحريق •

ومع ذلك ، فراكب الدراجة ، الذى قد هوى ركوبها ، وراح يزيد فى صخب ضوضاء الشوارع ، وضجيجها ، لا يعد عضوا مهما فى هذه الفرقة الموسيقية لشوارع بغداد •

ان هذه المعركة العنيفة ، للتسابق في احداث الضجيج في شوارع بغداد ، ليست لها حدود تقف عندها ، ولا يعرف احد عن نهايتها .

ومن يحل في احد فنادق بغداد ، لابد له ان يختار غرفة بعيدة عن الشارع ، من الغرف التي تطل على نهر دجلة ، وتكاد جميع فنادق بغداد الكبيرة ، قد شيدت على شواطيء دجلة .

وقد لا يجد الزائر الهدوء في هذه المدينة ، الا في ساعات متأخرة من الليل ، عندما تكون آذان الناس قد تعبت من ضجيج النهار ، فخفتت اصوات المنبهات والابواق والاجراس ، وعند ذلك يجد الانسان الراحة والسكينة ، فيستطيع ان يستمع الى هدير دجلة ، وهو يلقي بمياهه الغزيرة في الخليج ، ويستطيع ان ينصت الى نغمات تجاوب الرياح ، وهي تداعب سعف النخيل ، واشجار اليوكاليبتوس ، ولكن لا يلبث ان تستلب منه هذه المتعة المنعشة ، اذ تعود الضوضاء في الساعة الخامسة صباحا ، من جديد وتكون على اشدها في الساعة السادسة . وهكذا دواليك .

وقد أكون قد غمطت بغداد حقها ، اذا انا اقتصرت في وصفهـــا ، على ضجيج شوارعهــا ، وضوضائهـــا ، ففي بغـــداد لا يزال بريق من لمعـان ماضي عتيـد تتلألأ معالمه بين تلك الشـــوارع والمنعـــرجات . والحقيقة ، ان آثار الحضارات القديمة في بغداد ، كثيرة ، بل وقد يعجز المتتبع عن استقصائها ، وقليل منها ما بقيت ماثلة للعيان حتى الان ، فقد يظفر الرائي ، بمشاهدة بعض الجوامع المقدسة منبثة هنا وهناك ، تزينها قبابهـا الضخمـة ، ومنائرها الضامرة ، وقد يقع نظره على جوانب بعض المبـاني القديمة ، التي شيدت في الايام الاولى ، وقد لا يفوته ان يسير في اسواق بغداد الضيقة ، ومنعطفاتها ، فان مثل هذه المظاهر وامثالها يستطيع الزائر ان يأخذ منها انطباعا عن مجد بغداد القديم ، وهو كل ما يستطيع ان يراه .

وبغداد كغيرها من مدن الشرق الاوسط ، لم يبق من معالم تاريخها غير ذكريات قديمة تمثل لنا مجدها الغابر ، الذى عبثت به ايدى السنين •

وقد لا يبعد ان تكون بغداد ، احدث مدينة من بين مدن ما بين النهرين ، اذ من يمعن النظر فى تاريخ هذه البلاد ، يسمع باسماء مدن قديمة يرجع تاريخها الى مئات السنين ، بل وقد يمتد الى آلاف السنين ، ومن هذه المدن ، التى لا تزال قائمة حتى الان ، نبى يونس ، والكوفة ، وكربلاء ، واربيل ، ومنها ما قد عفى الدهر عليها ، وطمرتها الرمال بين طياتها ، فلم تظهر آثارها الا فى هذه الايام الاخيرة ، عندما ابتدأت الحفريات الاثرية ، تكشف لنا عن معالمها القديمة ، فاذا هى فى مظهرها ، لم تتغير ، باكثر من عبث الرياح بها ، وهى مدينة نمرود ، ونينوى وبابل •

ولعل بغداد كانت فى القديم ، قرية صغيرة اتخذت محلا لصيد الاسماك على شواطىء دجلة الواسعة ، تحيط بها الاهوار والمستنقعات ، كما هى الان حالة القرى المنبثة على شواطىء شط العرب فى الجنوب •

ولكن بغداد ، برزت باسرع من لمح البصر ، وكأنها كوكب من السماء قد نشر نوره وبدّد به ظلام مدن الشرق ، فاستنار به الناس ، واهتدوا بهديه ، وفى فترة قصيرة من الزمن ، غدت بغداد النجمة المتلألئة الوحيدة فى سماء الشرق ، لم يدانيها نجم آخر •

كان المنصور ، وهو الخليفة العباسى « والعباس عم النبى » قد بدأ بناء بغداد مدينة السلام سنة ٧٦٢ ميلادية ، فجعل منها شهرزاد فى قصص الف ليلة وليلة خالدة مدى الدهور •

وقد استطاع المنصور فى ظرف اربع سنوات ، ان يبعث فى هذه المدينة الحياة ، فيجعلها فى حلة قشيبة من الابهة والزينة ، وكان يومئذ العالم الدينى « ابو حنيفة » ، وهو الذى لا يزال قبره فى الاعظمية ماثلا للعيان حتى

الان ، هو الذى يقود حركة البناء والتعمير فى بغداد ، ويشرف عليها وكان قد ساهم فى بناء هذه المدينة مئات الآلاف من العمال والبنائين والمهندسين حتى ليقال ان قد سرق لبغداد من بعض المدن اذ ذاك ، كدمشق والكوفة ، اجمل ابواب اسوارها ، لغرض النهوض بهذه المدينة الحديثة ، ورفعة مجدها .

فكانت بغداد فى فترة وجيزة من الزمن ، قد اصبحت درة الشرق الاوسط ، واخذت تسير فى سلم التكامل ، حتى بلغت اوج مجدها فى أيام الخليفة هارون الرشيد وهو حفيد مؤسسها المنصور .

وقد استطاع هذا الخليفة ، ان يجمع من الثروات الطائلة ، ما لا يمكن ان يحصيها العد ، وراح يغدق بها بسخاء على من يذكر له من عباقرة الاساتذة والمعلمين والادباء والعلماء ، وهم كثير ممن اشتهروا فى التاريخ العربى .

ومما يذكر ، ان السيدة زبيدة زوجة الخليفة ، كانت فى حجتها الى بيت الله قد حصلت منه على صك بما يساوى ثلاثة ملايين دينارا ، وقد امر الخليفة ان يشاد لها فى طريقها الى مكة حمامات فى اكثر مواقع استراحتها ، لتستعيد فيها نشاطها ، وتجدد زينتها ، وتنفض عن نفسها غبار السفر ، فتكون نظيفة مستكملة لنشاطها وحيويتها عندما تحل فى بيت الله ، ولا تزال هذه الحمامات حتى اليوم قائمة ، ومعدة للاستعمال .

وكان الاحتفال الذى اقامه الخليفة هارون الرشيد لولده المأمون فى يوم عقد زواجه مما تتحدث به الركبان ، فقد صرفت فيه ثروات ، لم يسبق ان حلم بها عروسان فى زواجهما فى جميع مراحل التاريخ القديم ، فقد وقف العروسان على سجادة من الذهب ، وامطرتهما من فوقهما ومن حواليهما آلاف المجوهرات من اللآلىء تتساقط من جرار من الذهب على شكل مزاريب ، وهى من اللآلىء المختارة فى حجمها وشكلها .

وقصة صالة الشجرة ، فى بلاط هارون الرشيد ، معروفة فى تاريخ

بغداد أيام مجدها الاثيل ، فقد كانت هذه الصالة تحوى شجرة ، بحجمها الطبيعى ، مصنوعة من الذهب والفضة ، وعلى غصونها تنبث اطيار متنوعة وكلها منحوتة من الاحجار الثمينة النادرة .

وكانت الثروات تدفق الى بغداد من مصادر كثيرة ، ولا غرو فقد اضحت بغداد عروسة الشرق وشهدت فى تلك الآونة اجمل ايامها ، فكانت اعظم بلد تجارى فى بلاد الشرق الاوسط ، واصبحت محط رحال القوافل التجارية ، ومثلت نقطة الاتصال التجارى بين شعوب العالم ، فكانت مئات السفن تقصدها من مختلف انحاء الدنيا ، فمن الصين والهند وروسيا واوربا وافريقيا ، وكلها محملة بمنتوجات بلادها ، فترسو فى موانىء دجلة .

وكان الجو فى بغداد مشبعا بالبحوث العلمية والادبية والفنية ، فهى المركز الرئيسى الذى يؤمه طلاب العلوم والفنون ، من انحاء الدنيا ، كما هى حالة اوربا اليوم .

وابرز ما تتمثل به حضارة بغداد اذ ذاك ، هو الصبر والاناة ، وتحمل الصعاب ، فى البحوث العلمية والمجالات الفكرية .

وكانت حرية الفكر والبحث ، مطلقة العنان فى مدارسها وجامعاتها ، اذ كانت تضم مختلف طبقات العالم ، ومختلف الاديان والعقائد ، فكان فيها اليهود والنصارى ومعتنقوا الاديان الوثنية ، على اختلافها ونزعاتها ، يجدون مجالا للبحث فى عقائدهم واديانهم ويتناقشون ويبحثون احرار الفكر ، رائدهم التوصل الى الحقيقة ، وكانت بغداد تستقدم الاساتذة والشعراء والادباء والفنانين من اقصى البلاد التى شهدت حضارات العالم ، وتمثلت فيها مدنياته ، فتصرف عليهم بسخاء مبالغ لم يحلموا بها .

وكانت المثل العليا التى يستهدفها الخليفة هارون الرشيد لاعلاء شأن بلاده تكاد تتفق مع ما يستهدفه كارل الكبير فى اوربا ، فكان انسجام ووئام

بين الخليفة فى الشرق والملك فى الغرب ، فكلاهما كان عظيم عصره ، وكل منهما كان يضع نصب عينيه الخطط التى ترفع من شأن دولته ، ويعمل على أن تكون محط رحال العلماء والفنانين ، ويسعى لنشر العلم والفضيلة فى ربوعها ، ويجهد فى ان تكون بلاده قبلة أنظار الناس فى التطور العلمى والفكرى . وكلاهما كان قلقا على مستقبل بلاده ، بعد مماته ، فلم يخلفا خلفا جديرا بان يولى الثقة فى المحافظة على هذا التراث ، فكانا يتحسسان بتدهور البلاد ، وضياع مجدها بعدهما .

كان هارون الرشيد نفسه ، يرتابه الشك ، كثيرا فى قابلية أولاده ، ومقدرتهم على ان يتضلعوا باعباء الحكم ، ويقودوا البلاد الى شاطىء السلامة والنجاة ، وقد كان ثلاثة من أولاد الرشيد يطمحون بعرش الخلافة ، فليس عجيبا اذا ما رأت البلاد ، بعد انتهاء أجل الخليفة الكبير ، أولاده الثلاثة ، يجرونها الى حرب أهلية طاحنة ، فتكون ساحة حرب لاشتباكاتهم ، وتطاحنهم ، حتى عفى كثير من معالم حضارتها ، وعانت آلاما وغصصا من نكد العيش ، وسوء المصير .

وقد ظفر فى تلك المعركة الخليفة المأمون ، وقد سار على سيرة والده فى نواحى تشجيع العلوم والفنون ، والاغداق على العلماء والادباء بسخاء . ومما يذكر عنه ، انه اتجه بصورة خاصة الى علوم الفلك والتنجيم والكيمياء التى قدمت خدمات جلى يحفظها له هذا العصر بكل فخر .

وقد يجرنا التوسع فى الحديث عن بغداد ، الى ان نتابع تطوراتها التاريخية ، ولو ان النكبات قد توالت على كل مكان نعم بازدهار الحضارة والمدنية فيها ، لانطمست معالم هذه المدينة التاريخية ، ولابتلعها دجلة منذ أمد بعيد ، ومهما يكن من أمر ، فان ناقوس الخطر ، قد دق ، يؤذن بموت مدينة الحضارة بغداد ، فى اليوم الذى اندفعت فيه العناصر

المغولية من اواسط آسيا ، وزحفت أسرابها تحت قيادة هولاكو ، حفيد جنكيز خان ، واستولت على هذه الربوع في سنة ١٢٥٨ فخربت كل ما فيها .

وقتل آخر خليفة من سلالة العباسيين في بغداد هو وجميع أفراد عائلته وحاشيته ، بعد ان بقيت هذه المدينة سبعة ايام بلياليها ترزح تحت ضرب المجانيق حتى عفت آثار مدنيتها ، وأضحت خرابا ، يعبث بها الجهل والظلم ، ويخيم عليها البؤس والمسكنة . فنهبت مكتباتها الثمينة وافرغت خزائنها المليئة وعبث بكنوزها الغالية ، وكانت الداهية الدهماء في خراب هذه المدينة ان هدم ابدع ما فيها من مشاريع الري ، التي هي العرق النابض في حياتها وازدهارها .

وارتفع عدد الاشخاص الذين ازهقت أرواحهم ، نتيجة هذا العبث والدمار الى مئات الآلاف من الابرياء .

وقد كان السؤال الذي طرحه هولاكو على عقلاء حاشيته وحكماء قومه وسحرتهم غريبا في بابه ، فقد سألهم ، عما اذا كان الخلفاء يموتون أثر كارثة طبيعية لا تبقي ولا تذر ؟ فكان جوابهم ، بعد البحث والتدقيق ، ان اتفقوا على ان الكوارث الطبيعية لا يمكن أن تحل في مكان يموت فيه عظماء الرجال ، أمثال الخلفاء .

وباستيلاء هولاكو كان قد تحقق مصير المستعصم ، وهو آخر خليفة عباسي . وكانت البقية الباقية من حضارة هذه المدينة التاريخية ، قد عبثت بها ايدي المغولي تيمورلنك ، الذي لم يبق شيئا الا واحرقه سنة ١٤٠٠ ميلادية .

لقد كانت بغداد في أواخر القرن الثاني عشر ، بضواحيها وأراضيها تمثل صورة من صور الجنة ، وقد حلت في عالمنا الدنيوي ، ولكنها سرعان ما اختفت من الوجود ، وأصبحت أثرا بعد عين ، ولم تستطع ان تعاودها الحياة من جديد .

قد نستطيع الآن ان نتصور عظمة بابل وحضارتها قبل آلاف من السنين ، من الحفريات الاثرية ، التي تطالعنا حينا بعد حين ، فتبدو لنا مخلفات هذه المدينة التي كانت في عصورها الغابرة درة في تاج البابليين .

ولكننا لم نر في بغداد اليوم أثرا يدلنا أو يقرب لنا هذا الشيء الذي نتصوره ونتخيله عن حضارة بغداد ، عروسة الشرق ، وهي التي ذاع صيتها وعمت شهرتها ، فلم يبق من لم تسحره مدنيتها ، وحضارتها أيام هرون الرشيد . وليس لتلك الجوامع القائمة الآن في شرقي المدينة ، بمنائرها الاربعة المشوقة وقبابها الذهبية علاقة بالحضارة التي ازدهرت في بغداد في ذلك العصر الذهبي .

ومهما يكن من أمر ، فقد حاولت سكرتيرتنا الامريكانية - روزه - ان تقنعني بشتى الوسائل ، لتجرني الى جولة الى شرقي المدينة لمشاهدة تلك الجوامع ، والتمتع برؤيتها ، فقد خلبت لبها واعجبتها ايما اعجاب . ولا غرو ، فهي أبنة بلد لم يألف مثل هذا الجمال الاخاذ ، فلابد ان تراه في سفرة كسفرتنا هذه .

ولم يكن يعجبها ، ان ترافقني في جولاتي في أزقة بغداد الضيقة ، حيث يشاهد فيها صور البؤس والفاقة ، وترتسم فيها مناظر من صميم الحياة ، تستهوى النفس وتجتذب الافئدة . فالانسة « روزه » تضيق ذرعا بالاوساخ والقاذورات في تلك الازقة الضيقة التي لا تزال على بداءتها لم يشملها التعمير ولا التبليط بعد . وهي تتقزز مما ينبعث منها من الروائح الكريهة ، حيث تجرى المياه الآسنة في قنوات مكشوفة في وسطها .

فلم يرق للآنسة « روزه » الا ان ترى القباب المذهبة المحدودبة كاحديداب الكرة ، وهي تزين مناظر الجوامع المشهورة في بغداد ، التي قد نسيت اسماءها .

وبعد ان جرت معركة عنيفة بين سواق سيارات الاجرة ، وفاز بالغلبة احدهم فكسبنا في هذه السفرة ، حملنا بسيارته الى شرقي المدينة بمنتهى السرعة، فلم تطل السفرة اكثر من عشرين دقيقة ، حتى وصلنا الاحياء البلدية التي تعكس صورة ناطقة عن حياة الشعب وسلوكه ومعيشته • وفي هذه الاحياء ظهرت لنا تلك الابراج المشوقة ، تحيط بها القبة السماوية •

وقد فوجئنا ، ونحن نهم بالنزول من السيارة ، برجل عربي ينـوء بكرشه ، قدم علينا وكأنه صديق حميم ، يعرفنا منذ عهد بعيد • وقد جاء لاستقبالنا ، فحيانا وصافحنا بقوة من فرط شوقه وهيامه بنا ، وهو يكلمنا بلهجة يغلب عليها الرطانة الانكليزية ، وقد بدا كالواثق من نفسه ، وكأنه ترجمان يحسن الانكليزية •

واذا لم تكن أيها القارئ الكريم خشن الطباع غليظها ، واذا لم تصطنع القحة والخشونة في الحديث والسلوك فلن تستطيع أن تتعامل مع هذا النوع من المخلوقات ، فهم يفاجئون الزائر على حين غرة منه بشتى اساليب الكلام ، فان حاججتهم عن أمر تحدثوا عنه ، فهم صم بكم ، انهم يحاولون اقناعك بما ارادوا مهما كلف الامر ، ويتفننون في ان يلقوا في روعك بانك لم تر شيئا بعد من خفايا الاسرار الدينية ، التي يعتنقها الناس عن الشرق • فان انت اطلقت لهم العنان ، وتخليت عن ارادتك وتبعت قيادتهم فقد تصبح نفسك معتقدا بما يلقون في نفسك من جمل أو احاديث ممتعة •

واسرع هذا المخلوق ذو الكرش المنتفخ امامنا بخفة مدهشة ، يهمس في اذن احد الواقفين ، من غير ان يكلمنا ، وكان قد وقف حارس الساحة وكأنه مهيىء لحراسة سيارتنا ، التي كان سائقها جالسا فيها ، ومن ثم اخذ صاحب الكرش القيادة وتبعناه ، فاندفع في زقاق ضيق ، لم يكد يستطيع المرور

منه لضخامة كرشه ، ونحن نسير وراءه مكرهين ، وهو يقول بلهجته الانكليزية الممسوخة بما معناه « ادخلوا ايها السادة ، هيا ادخلوا ، هنا تستطيعون أن تصوروا اجمل الصور وابدعها ، ولكن التصوير غير مباح ايها السادة ، انه ممنوع ، هيا ادخلوا هيا ادخلوا » .

وكان — وهو يردد تلك العبارات — يحملق فيّ وينظر اليّ بنظرات تنم عن ما يكنه في نفسه من اسرار خفية ، وكأنه يريد أن يثير اعجابي به ، ويشعرني بانني سعيد الحظ ، اذ قد وفقت ان احظى بمثله ترجمانا بارعا ، لا ينضب معين علمه .

فسألته الآنسة « روزه » اين هي الجوامع يا ترى ؟ وقد كانت محقة في سؤالها لاننا لم نر غير بيوت خربة ، نسير من بينها بكل تحفظ وخفة وبراعة تحت امرته وقيادته ، وبعد ان عكفنا في سيرنا على منعطف متعرج بدا لنا بصيص من ضوء الشمس في وسط الزقاق ، وقد فرج عنا الكرب ، وقد كان هذا الضوء يخترق الزقاق من باب ضيقة ، وعندئذ تراءى لنا منظر الجامع ، ولمحنا حرمه الداخلي ، وشاهدنا الناس المؤمنين يدخلون ويخرجون منه ، وهم مدفوعون بحرارة الايمان ، وكأنهم في شغل شاغل عن كل ما في الكون . والحق انه لمنظر جذاب ينعش النفس ، ويسحر الالباب ويطبع في القلب صورا خلابة تنطق بمجد قديم ، لا يمكن أن تنسى أو يمحى أثرها من الخاطر بسهولة . ومن المؤسف اننا لم نستطيع الدخول في هذا الجامع ، فقدسيته تحرم علينا دخوله .

وهمت « روزة » بالدخول فيه ، تدفعها براءتها الدينية المسيحية ، فابتدرها الترجمان يصدها عما ارادت ووقف حائلا امامها ، ومد ذراعه ليحجزها عن الدخول فيه .

وحدجها شيخ عجوز بنظرات الاستياء • وعبر عن استيائه بكلمات ، فهمنا ترجماننا ، واجابهعنها بلهجة ناعمة انساه زعلهواستياءه • وعادالترجمان بسرعة البرق وهو يقول لى برطانته الانكليزية ، خذ يا سيدى صورا جميلة • ولكنه اخذ بيدى وارجعنى الى الوراء ، وكأنه لحظ منى اننى احاول ان اخطو خطوة الى الامام ، لاوجه آلة التصوير الى حيث النور ، لالتقط صورة الحرم الداخلى •

ولكن الشيخ العجوز عاودنا بنظراته الحادة ، وكأن استياءه أوشك أن ينفجر • ذلك ان قدسية الحرم تبدأ على ما يظهـــر من اول ســلم الصحن ، وهى فى وضعها ، تحول دون أن نلتقط صورة جميلة لمنظرالجامع •

ولم يكن ليسوؤنا ذلك المنع والحرمان ، لو ان الصورة ينعكس فيها خيال تلك الالوان المتناسقة الزاهية ، والنقوش البديعة ، التى زينت منظر الجامع ، واكسبت منائره وقبابه جمالا وحيوية ، ولذلك ظهرت الصور خالية من كل زينة وجمال •

وكان يبدو على الترجمان العجلة ، فقد كان اليوم يوم الاحد ، وهو يوم أغر بالنسبة له لانه يجد فيه العمل بكثرة ، فكان عجولا ينتظر بفارغ الصبر ان ينهى مهمته معنا ليربح قيادة غيرنا من الزائرين فى هذا اليوم •

وسرنا نمشى حول بناية الجامع حتى وصلنا الى بابه الاخرى ، وهناك وقفنا برهة والتقطنا صورة جميلة لحرمه الداخلى الملون باجمل الالوان الزاهية وعندما وصلنا الى مكاننا الاول ، حيث يكون الجامع امامنا ، اضطررنا ان نسير من فوق سطح أحد البيوت ، فاغتنمنا الفرصة هناك فالتقطنا فيـه صـــور اخرى جميلة •

ويقف فوق قباب الجوامع الزرقاء زوجان من اللقالق ، اعتادا ان يقلدا

اصوات المؤذنين ، عندما يدعون المصلين الى صلاة الظهر ، فتتجاوب أصداء اصواتهما ارجاء المدينة ، غير انه لم تعد المنائر الآن محلا ملائما للاذان وقد يغالطا نفسه ، من يظن ان المسلم ذا اللحية الطويلة قد رأى مدخل المئذنة الان ، فقد جرهم التحرر من قيود القديم ، الى ان يستعيضوا عن المئذنة بمكبرات الصوت ، فيصدح المؤذن بنغمات الاذان ، وهو في مكانه ، من غير ان يكلف نفسه عناء الصعود الى برج المئذنة ، بل وقد يدير خادم الجامع اصطوانة تعوض عن ان يكلف المؤذن نفسه ، لاداء الاذان .

وكان يجلس على سطح الدار ، الذى التقطنا عليه صورا لمدخل حرم الجامع ، رجل اشبه ما يكون في سمنته بترجماننا ، ويخال لى انه أخوه ، وكان قد جمع أمامه بضائع مبعثرة قديمة ، يرى فيها ، انها حاجيات أثرية ثمينة ، وعندما لحظ مني انني لم أعرها أهمية ، ولم التفت اليها ، اتجه الى الآنسة « روزه » يحاول ان يغريها لتشترى منه محبسا وصفه لها بانه لقطة أثرية نادرة ، وطلب منها خمسة دنانير بدله ، أو انها ان ارادت ان تقتنيه حقا ، فبدله اثنا عشر دولارا لا غيرها . وقد قلت لها ان مثل هذه المحابس مبتذلة في أوربا ، وما ان سمع مني اني أحاول ان اقف في طريقه ، لألا تنخدع باغرائه راح يدلل لى بسرعة البرق وبكل أنواع المكر والخداع على ندرة بضائعه وانافتها ، ثم أخذ يلقى على خطابا طويلا عن جمال معروضاته وقيمها الاثرية ، وقد تناول مراود الاذن ومحابس اليد وأساور المعاصم يعرضها علي ، وكانت كلماته أشبه بقصيدة شعرية رائعة ، غير انه بدا عليه اليأس وقد انقطع نفسه ، فجره أخوه عنا ، وخلصنا منه نجيا .

وعندئذ حلت مشكلة أخرى ، قد تكون أكثر صعوبة ، تلك هى مشكلة الاجر الذى يجب ان يدفع الى ترجماننا وقائد حملتنا ، فدسست في يده

درهمين ، ـ وهي تساوى أكثر من ماركين ـ ولكنه هزء بى وسخر منى ، وقال ، لا يا سيدى ، ان تعريفة الاجر هنا تصف دينار ، فربع دينار أجرة الصعود الى السطح ، والربع الثانى أجرة القيادة كما يدفعها جميع الانكليز والامريكان، وهذه هي التعريفة القانونية التى لايمكن ان تنقص فلسا واحدا •

فنهرته « روزه » وقالت له ، خذ دراهمك واتركنا نسير فى طريقنا ، وقد وجدت ان فى ذلك هجوما عنيفا رائعا ، فقد أعاد الدراهم ووضعها فى يدى وهو ساخر فى ضحكته وتقاسيم وجهه ، ولكننا لم نعبأ بسخريته، ولم نستخذ لهجومه ، وبقى هو وصاحبه يصطنعان التأثر والانزعاج ، ويولولان عن تعريفة الاجر والخدمات التى قدمها الترجمان ، وأتعابه فى قيادته لنا ، واستمر ينظر أحدهما الاخر بنظرات ملؤها الأسف ، وتقاطيع وجهيهما ، تعبر عن استيائهما ، واحتقار هذين الزائرين ، الذين هما من الغرب ، لجهلهما ووقاحتهما • وفى هذا الحين كنا جالسين فى سيارتنا ، فما كان من الترجمان الا ان أشار الى الحارس ، ليركب معنا فى السيارة فيحجزنا عن السير والهروب منه ، فسألته بكل جد وأناة ، أيكفيه ديناران ، وهنا شع فى عينى الترجمان بصيص من الامل ، وتغيرت أسارير وجهه ، فبش وهش وأخرجت ثلاثة دراهم ومد يده ضاحكا بملء فيه واستلمها وصافحنى مصافحة دلت على حسن ظنه بنا ، واستدعته « روزه » ودست له شيئا بيده ، فصافحها كذلك •

وعندما سألت سائق السيارة ، عما اذا كان الاجر كافيا ، أجاب هذا الرجل النبيل لا ياسيدى ، انه كان قليلا جدا ، وقد يكون له بعض الحق ، اذ هو يتخذ الحيطة لاجره الذى لم يستلمه بعد • وعدت ، ولم أشأ فى هذا الصباح ان أعاود التجوال ، سواء أكنت أسرفت أو اقتصدت فيه •

« ٢ »

الحجاب والرجال

قد لا يكون مألوفا عندنا ، نحن الغربيين ، ان نحل في بلد ، لم نر في مجتمعه شخصية المرأة بارزة فيه ، ولكن الزائر الغربي ، لهذه البلاد الشرقية ، قد لا يوفق في ان يتصل بالمرأة ، بل وقد لا يتاح له ، ان يراها . فهي تبدو متزمتة ، شديدة التعصب لتقاليدها القديمة .

ويكاد النساء في العراق ، يخرجن جميعا محجبات حتى الآن ، عدا قليل منهن ، ممن يشذ عن هذا الحكم . ويبدو على هؤلاء المحجبات ، ان قد دبّ التذمر في نفوسهن من هذا البرقع ، الذي يغطي أوجههن فلم يعدن يحتملنه . ولذلك فقد أخذ ينزح عن أوجههن بعض الشيء .

وتلتف النساء العربيات في العراق ، بالعباءة السوداء ، وهي لم تقتصر على العربيات المسلمات فحسب ، بل وشاركهن في ارتدائها النساء المسيحيات ايضا . فقد اعتدن على هذا النوع من اللباس الشرقي بحكم العادة والجوار .

ومهما يكن من أمر ، فان هذا اللباس ، يزين وجه المرأة ويكسبها جاذبية وحشمة . ويخال لي ، ان هذا البرقع الذي يتحجبن به النساء ، والحذاء الذي يلبسنه ، وهو اشبه ما يكون برأس الفأس ، يكوّنان جزءا مهما من لباس المرأة الشرقية بين الطبقات الفقيرة في المدن ، وأغلب الطبقات منهن في القرى والارياف .

وتلبس المرأة العراقية تحت العباءة ، أحدث الازياء من الثياب وأجملها

وهى ملونة بأزهى الالوان ، وقد لا يكون صعبا على الاوربى ، ان يلمح سيقان المرأة العراقية ، وهى تنزل من سيارتها ، فترى محلات بالجوارب النايلون ، فتثيره وتجلب انتباهه . وهى فى غير هذه الحالة ، تغطى العباءة جمالها حتى أخمص قدميها .

ويبدو ان العرب لا يعجبهم التحدث عن شؤون المرأة ، فتراهم يقصرون الحديث عنها ، ولا يتناولونها الا لماما .

وقد اتيحت لى الفرصة مرة واحدة ، ان يكون لى الشرف فى ان اصافح امرأة عربية وقد كانت فرصة نادرة تستدعى الانتباه .

فقد حدث لى مرة ، فى بهو أحد البيوت فى بعقوبة ان اصابنى الذهول ، فلم ار نفسى الا وانا أمام امرأة وجها لوجه ، فذهلت هى الاخرى ، ووقفت جامدة ، لا حراك فيها وبدا على محياها الدهشة والاستغراب ، وقد كانت استجابتى لهذا الانفعال المفاجىء غباوة مدهشة ، اذ مددت لها يدى لاصافحها ، وتمتمت أقدم لها اسمى ، والحقيقة اننى أحسست بملمس ناعم فى يدها ، وسمعت من فمها وهى ترد على تسرعى الطائش بكلمة « آسفة » . ولست ادرى حتى الآن أكان ازورارها ابداء سخطها على هذه المقابلة المفاجئة، أو كان استياء من ملامسة يدها الناعمة ، ومصافحتى الجافة لها الخالية من اللياقة والمجاملة ، ومهما يكن من أمر ، فقد شعرت بصعوبة عندما انسل كل منا عن الآخر ، وقد قصصت هذه القصة على المترجم « عبد » فحدجنى بنظرات فيها الدهشة والاستغراب ، ولم يخف عنى حدسه وتخمينه ، اذ قال لى ، انه يبدو لى ان هذه السيدة ليست نقية الدم العربى ، ويظهر انها تصف لبنانية فى الاصل ، وبذلك أخذ يعلل لى هذا الشذوذ فى سلوكها ، اذ قال لى ، ولو انها كانت عربية الاصل لاتقتك ببرقعها وتحجبت به عنك

وولت هاربة منك • وكان يعجبني كثيرا ان اتبادل الحديث مع المترجم « عبد » في موضوع تحرير المرأة وانطلاقها فهو قد درس في تكساس ، ولابد له ، على ما اظن واعتقد ، انه قد تجول مع نساء كثيرات وتمتع معهن تحت ضوء القمر هناك ، وقد وددت ان لا اكتمه ما كان يجول بخاطري ، فكاشفته بالسؤال ، عما اذا كان قد رأى زوجته قبل أيام عرسه بها ، فضحك فرحا ، وقال ، لقد اتيح لي ذلك ، ووفقت اليه ، ولكنه حدجني بنظرات حادة ، وكأنه يريد ان يقول لي ، « كف عن مثل هذه الاحاديث النابية » ويجدر بالباحث ان يتساءل عن هذه الظاهرة الاجتماعية هنا ، ترى ، هلا يتحسس الناس من عرب وأكراد بمرارة في حياتهم الاجتماعية حيث تفتقد المرأة فيها ، وينهار مركزها الطبيعي في رفع مستواها ؟

ويظهر لنا ، انهم قد وجدوا بديلا عنها يسدون به فراغهـا • فرواح الرجال في غدوهم ، وعشيهم ، ومعاشرة بعضهم بعضا ، آناء الليل وأطراف النهار ، وهم فرحين مرحين ، يدل على انهم لم يشعروا بفراغ مركز المرأة في حياتهم الاجتماعية •

فليست ظاهرة غريبة ، أو مستهجنة ، في هذا البلد ، ان ترى جنديين يسيران في الشارع ، وقد تأبط أحدهما الآخر • وقد ترى رجلين عجوزين في سيارة الباص يتجاذبان اطراف الحديث ، وقد لف كل منهمـا ذراع الآخر ، بل وقد تراهما يفاجيء كل منهما صاحبه بالوداع والانصراف ، وكأن كلا منهما قد اضطر الى ترك صاحبه والابتعاد عنه بما لا يقل عن خمسة كيلومترات •

وفي الفنـادق ، ترى صباغي الاحذيـة ، يسـمرون بحلو الحديث فيما بينهم ، ويتسابقون في كسب أرزاقهم ، ويلفتون نظر الغرباء الى عرض

قابليات رفاقهم ، وتراهم فى الساعة السادسة يسيرون فى الشوارع وقد علقوا صناديقهم على أكتافهم وراح يصافح أحدهما الآخر بحرارة وشدة ، وكل منهم يودع صاحبه بنظرات حادة تعبر عن شعوره نحوه .

ويجلس أفواج الشباب فى دور السينما ، فلا ترى من بينهم من يمتد ذراعه ليحتضن به عروسه أو خطيبته ، أو صديقته ، بل ترى كثيرا من يحتضن رفيقه بذراعه .

ولا بد لى ان أقول فى تعليل هذه الظاهرة الاجتماعية ، لألا يعلق فى الاذهان انطباع قد يساء فهمه ، ان التقاليد والعادات فى هذا البلد ، تضطر المرء ان يكتم ما يتحسس به من شعور وعواطف نحو الجنس الآخر فليس فى هذا التقارب والتماس بين الرجال عنصر شاذ يلوح بفساد الذوق وانحطاط القيم الاخلاقية .

ولعلنا نستطيع القـــول بان المرأة العراقيـــة بين الاكـــراد ، وهم سكان الجبال فى شمال العراق ، الذين يتميزون بقواهم الجسمية ، أكثر حرية منها فى الجنوب ، ولا غرو فى ذلك ، فالمرأة بين الجماعات المسيحية النساطرة فى الشمال لم تعرف الحجاب فى رواحها وغدوها منذ عصور خلت حتى الآن ، بل ومن الممكن ان تؤخذ صورتهـا الآن ، والنســاء الكرديات فى الشـــمال يتميزن فى نماء اجســـامهن وطـــول قامتهن ، فيكسبانها جمالا وروعة ، ويظهرن بلباس مفرح أخاذ ، متناسق الالوان ، من صنع ايديهن ، ويغطين رؤوسهن بقبعة صغيرة تتدلى منها مختلف الانواع من قطع المسكوكات تتجاوب اصداؤها فى كل حركة من حركاتهن .

والاكراد ، وهم بطبيعة بلادهم فرسان منذ ولادتهم ، لا يرى الزائر من بينهم حفاة الا النزر القليل . ولئن يتاح للمستطرق ان يشاهد زوجين اثنين

ذكرا وأنثى ، يسيران معا في نزهة في شوارع كردستان أو أزقتها الضيقة الخالية من المارة •

ويرى الفارس الكردى ، وهو يعتلى صهوة حصانه الجبلى ، قد اركب زوجه على مؤخرة حصانه خلفه ، ووضع سبابته على حزامه المخرز برصاص بندقيته ، وهو فى هذا المنظر الرائع يمثل صورة ناطقة لفروسيته ، يجدر بالرسام ان ينقشها على لوحته الزيتية •

ويغريك من المرأة الكردية مظهرها الجذاب ، وهى بلباسها المطرز الملون بأزهى الالوان الجذابة ، تزين رأسها وعنقها انواع مختلفة من الحلى والزينة ، وتتلامع من بينها عينان نجلاوان ساحرتان ترميك بنظرات حادة ، لا تتمالك من ان تستكن لها ، وتراها هيفاء ضامرة الخصر ، تتهادى فى حركات تستهوى القلب وتثير كوامن الوجد فيه • فمنظرها فيه كل عوامل الاغراء والجاذبية ، والحق انه لمنظر أخاذ لا يمكن ان تصوره الكلمات •

« ٣ »

صور من شوارع بغداد

ولك أيها القارىء الكريم ، ان اردت ان أخرج بك في نزهة قصيرة في شوارع بغداد ، ان تتغاضى عن كثير مما ينغص عليك متعة التنزه ، ومغرياته ، فعليك ان تتجرع في تنفسك غبار الجو ، وحرارته ، وتحتمل أزيز السيارات وأصوات منبهاتها ، وهي تكاد تصم الاذان ، وتوتر الاعصاب ، وان تستسيغ ضجيج الباعة وهرجهم ومرجهم ، وهم يعلنون عن بضائعهم ، فهذا يدعو لجبنه وذلك يدعو لحلويه والآخر لسمكه ، وعليك ان تستسلم لكثير من قوى التدافع والزحام بين المياه الآسنة وقاذوراتها ، ومهما يكن من أمر ، فهي نزهة تستحق كل مغامرة وتضحية .

ان الزقاق الضيق ، الذي يقع فيه مدخل فندق « زيا » يقودنا الى مركز الحركة ونشاط المدينة ، وهو الشارع الذي يسير بموازاة نهر دجلة ، ولا يبعد في امتداده من مدخل الفندق بأكثر من كيلو متر واحد . وكان صاحب الفندق ورئيسه قد رغب في ان يقودنا في جولة ممتعة ، نستطيع ان نتزود فيها بما نحتاج اليه من مشتريات نفيسة .

والذي يسير في بغداد لابد له ان يكون منتبها ، ومتحفظا ، ذلك ان حركة السير وازدحامه في ارصفة الشوارع لا تخلو من أخطار ، فقد كان أحدنا وهو يسير معنا ، قد فوجىء بتلويث ثيابه ببقع زرقاء ، ظهر انها قدتسببت له من احتكاكه بصندوق كبير الحجم ، كان مطروحا على الرصيف الذي

نسير عليه ، ومن ورائه حمال ضخم الجثة يحاول ان يسحبه ، بما أوتي من قوة ومهارة •

وقد كان على هذا الرجل الطيب ان ينوء بعبء هذا الحمل الثقيل ليركزه على ظهره • فانحنى على هيئة قوس ، تحيط به عضلاته المفتولة ، في كل خطوة من خطواته ، وبدا انفه معلقا وهو لا يبعد عن الارض بأكثر من نصف متر • وكان قد طبع على هذا الصندوق الضخم صورة أقداح الخمرة • وقد كتب الى جانبها بالطباشير الاسود ٤٣٦ Ibs وهو يساوي مائتين كيلوغرام ، ويغلب على الظن بان ذلك هو الوزن الحقيقي لثقل هذا الصندوق ، وقد وقف الى جانبه حمالان يساعدانه على رفعه وحمله • فكان حوار بينهم ممزوج بهزء وسخرية وحماس مثير ، واذا بهذا الحمال ينتفض ويقف صامدا وقد رفع الحمل على ظهره ، ورددت الصخور المرصوفة على الارض صدا صوته ، ولم يفارقه صاحباه ، اذ وقفا خلفه يسندان حمله ويخففان عليه ثقله ثم سار في طريقه بخطوات وئيدة ، لا تسلم من العثار ، ووسعت قابلياته الفذة ان يجتاز السلالم في فندق السندباد ، حتى اذا ما استقر به المكان هرع اليه اثنان من خدام الفندق يساعدانه ، واستطاع ان يلقي هذا الحمل من على ظهره بأعجوبة نادرة ، وانتصب معتدل القامة ، وبدا رجلا طبيعيا ، وكأن لم يرهقه شيء • فكان منظرا حمل الينا ذكرى المعارض الاولمبية التي تقام للالعاب الرياضية • ثم تركناه وسرنا في طريقنا •

ولم نكد نقطع في سيرنا أكثر من عشرين خطوة ، حتى اصطدمنا بمعركة من معارك الشوارع ، كان يخوض غمارها شابان يافعان ، يلكم احدهما وجه الاخر بمجمع يديه ويلهب الحماس اعصابهما ، فيزداد غضبهما ،

وتوتر أعصابهما ، وتداخل المارة من الجمهور بينهما ، فانشطرا شطرين يساعد كل منهما صاحبه ، وبعد برهة حضر رجلان قد وخط الشيب رأسيهما ، فألقيا بأنفسهما فى خضم هذه المعركة ، وسلاحهما حركات ايديهما ، وانفعالات وجهيهما ، وتجاوب أصواتهما ، حتى استطاعا ان يحجزا بين الخصمين وينهيا المعركة ، غير ان تكهرب الجو بين المتخاصمين كان ينذر بالويل والثبور ، فلابد ان تتجدد المعركة وتندلع نيرانها . فلم نر الا ان نحرم انفسنا من مشاهدة بقية فصول هذا المنظر المثير . وآخر ما رأيناه منه، ان قد تخلل من بين هذه الجماعة المتجمهرة ، التى لم يسكن غضبها بعد ، حمار صغير ابيض اللون ، تمتطيه سيدة عربية ، يشق طريقه ، بكل هدوء وسكينة ، وسط هذه المعركة ، التى لم يخمد أوارها بعد ، فكان منظرا من أروع المناظر الشرقية ، يمثل عرضا مستقلا فى الفترة التى تتخلل فصول رواية مسرحية .

وكنا ، ونحن نتابع السير على الرصيف ، قد فوجئنا بشاب يافع خرج الينا من احدى زوايا الرصيف ، وكأنه كان يترصد لنا ، فسألنا فيما اذا كنا نرغب فى ان يعرفنا على نساء جميلات وأوانس فاتنات ، فتابعنا السير من غير ان نرد عليه ، ويظهر ان الفتيات اللاتى يقصدهن هذا السمسار ، هن من الفئة التى تبيع اللذة ، من اللاتى امتهن المتاجرة بأجسامهن ، ويلتقين فى الاكثر فى عواصم الاقطار الشرقية ، ثم لحق بنا بعد بضعة خطوات شاب آخر وعرض علينا ما كان قد عرضه صاحبه من قبل ، ولم نستطع ان نتخلص منه لولا ان مر أحد أفراد الشرطة ، فثناه عن عزمه وولى وجهه شطر غيرنا من المارة .

واستوقفنا ، ونحن جادون فى السير ، منظر الخباز الشرقى ، وهو

يمارس عمله ، وقد ادهشنا منه ، مهارته في فرش قطعة العجين بحجم كبير ولصقها في جدران التنور ، واخراجها منه . فشعرت ، وانا واقف اتمثل هذا المنظر ، بشخص يفاجئني فيشغل نفسه بحذائي . فتبينته صباغ الاحذية . وهو صبي أجاد المراوغة والحيلة كما تمثله عيناه الحادتان ، وسرعان ما وضع صندوق لوازمه على الارض ، وفتحه وتناول منه بخفة ومهارة ، خرقة مبللة وانحنى يمسح بها حذائي ، ولم يكن باستطاعتنا ان نمانع في ما أوقعنا فيه ، ونحن نعلم ان مهزلة صباغي الاحذية ، يطول بها الزمن ، وتلعب دورا كبيرا في البلدان الشرقية خاصة مع الاشخاص الذين يدل مظهرهم على انهم غرباء فيها ، ولا يعرفون تعريفة الاسعار .

والحق ان هذا الصباغ قد أجاد عمله ، واتقن فنه ، فقد لمع حذائي وأثار في شعور الاستحسان والرضا ، بما لا يمكن ان أخفيه عنه ، ومهما يكن من أمر ، فلابد ان تعرف تعريفة الاسعار لألا يحتار المرء في تقديرها ، فان دفع له كثيرا ، فهو لا شك يحاول ان يطلب المزيد من رجل لا يعرف الثمن ، وان دفع له أقل مما يستحق ، بدا تذمره واستياؤه فان عرف ان بدل صبغ الحذاء ثلاثين فلسا فقد أراح واستراح .

ثم قطعنا بأحذيتنا اللماعة شوطا ، حتى وصلنا الى المكان الذي كنا قد قصدناه . فاستهوانا منظر الشرطي ، واقفا على مرتفع ، يوجه حركة السير ، بعصاه البيضاء وكانت سورة الغضب بادية على ملامحه ، اذ هو يستدير يمنة ويسرة ، حول دائرة مركزه ، كالذي اصابه مس من الجن .

وكانت السيارات تتهادى من جميع جهات هذا الشرطي فسيل منها يجيء من الجسر الجديد وسيل آخر منها يتدفق من الشارع ذي الفرعين الذي يسير باتجاه الجسر ، وبين هذا وذاك تتزاحم السيارات المارة في

شارع الرشيد من اليمين ومن الشمال ، والحق انها لسيول من السيارات تتدافع فى هذا الشارع ، لا ينضب معينها ، وقد يغالط الشرطى نفسه وهو يوجه حركة المرور ، فى مركز موقفه ، بل وقد يخادعها ، ان هو وثق من نفسه بانه قد مسك زمام السير بيده ، فلا منجاة للانسان من هذا التزاحم والتسابق ، حتى يرى نفسه بانه خرج من هذه الملحمة نجيا ، فقد تراجعنا مرتين ، ونحن نريد ان نجتاز الشارع ، وكاد حتفنا يدنيه الاجل ، ونحن على بضع خطوات من عجلات السيارات ، واستطعنا بعدها ان ننقذ انفسنا من نحس الطالع ، وخلصنا سالمين .

وقد يستطيع الانسان ان يجرب حظه فى زحام هذا الشارع ، عندما تكون حركة السير والمرور فيه على أشدها ، وهى تتفاقم فى بعض الاوقات التى ينشط فيها العمل ، ويندفع الناس الى الكسب .

ومهما يكن من أمر ، فقد استطعنا ان نجتاز هذا الشارع العام فنعبر الى الجهة الثانية منه . وما أسرع ما استوقفنا احد صاغة الفضة ، ودخل معنا فى حديث جذاب ، ودعانا بانحناءة ان نجلس فى محله ، بلهجة فيها الرقة والعاطفة . فشكرناه واعتذرنا منه ، ووعدناه بأن نزوره بعـــدئذ ، فتركنا وأخذ يجوب الشارع ثانية يبحث عن ضحية أخرى .

ثم سرنا فى طريقنا ، فوقفنا فى مدخل احد أسواق بغداد ، وقد شعرنا ، ونحن نتطلع الى هذا السوق ، برغبة جامحة ، تدفعنا الى ان نحاول الدخول فيه مهما اشتد زحامه ، فهو كما يبدو مركز رئيسى تبرز فيه الحركة والنشاط فى الحياة الشرقية وهو فى الحقيقة معرض ، يستهوى النفس ويجتذب القلب اذ تتمثل فيه جميع ما يحيط عالم الشرق من الحياة الشـعرية والفنيـة . فيستطيع الانسان ان يرى تحفا كثيرة من المصنوعات اليدوية يرجع تاريخها

لعهود قديمة ، وقادتنا الصدفة الى ان نحشر مع زمرة كبيرة من عمال هذه المصنوعات ، فرأيناهم ، وهم يزاولون أعمالهم ، عمالا مهرة ، فكانت أصوات المطارق تتعالى وهي تكاد تصم الاذان ، فيمسك العامل منهم مطرقته ، ويحول بها لوحة منبسطة من المعدن الى أشكال مختلفة من الصحون والاواني ، ترى في منتهى الذوق والدقة في الصنع ، ومنهم من يصنع من هذه اللوحات دلال القهوة العربية ، وكل قطعة من هذه المصنوعات اليدوية يتناولها العمال واحدا بعد الاخر ، وكل منهم يتم عمل الاخر • حتى يحوز عليها آخر واحد منهم ، فيجمعها بعد أن يحسن ما فات على العمال من دقة العمل • وأغرب ما ادهشنا في هذا السوق الحي ، اننا رأينا شابا صغيرا يبلغ من العمر ما لا يزيد عن عشرة سنين ، كان يمسك بمطرقته ، ويضرب بها على قطعة من المعدن ضربا متناسقا ، بلغ من الدقة ، ان كل ضربة من ضربات مطرقته ، تتناسب مع الاخرى في شكلها وعمقها ، وتراصفها واحدة بعد الاخرى ، فيبدو ما يتمه وينجزه من هذه الاواني ، وكأنها خرجت من معمل ميكانيكي ، لا أثر للغلط والسهو فيها • وازداد هذا الشاب الصغير ، حماسة في اتقان عمله ، عندما تحسس باننا ننظر اليه وقد اعجبنا بمهارته ودقة صنعه •

ان هذه المحلات الصغيرة ، التي تصنع فيها هذه المصنوعات اليدوية في هذا السوق ، تكوّن حيا واسعا من أحياء بغداد •

وتابعنا السير ، فدخلنا في سوق السراجين ، وقد استرعى انظارنا واستهوانا من مصنوعات هذا السوق قبل كل شيء ، صنع السروج ، وقد كان العامل الذي يشتغل في صنعها ، قد علق على جدار محله خرجين من خرج الجمال ، وكانا في دقة الصنع وتناسق الالوان قد حيكتا ، وكأنهما بساطان من بسط ايران الجميلة •

وقد كانت تحوى ألوانا جذابة تختطف الابصار ، ورأينا رئيس العمال وهو مشغول بصنع سرج من سروج الخيل ، كان فى غاية الدقة فى انحناء مقعده ، وبروز مقدمه ، وقد يكون الاعراب لا يقيمون لهذه السروج الجميلة وزنا ، لغلاء ثمنها ، الا اننا نرى ، ان بعض رؤساء العشائر والشيوخ هم الذين قد حجزوا لدى السراج هذه السروج الجميلة لخيلهم . وبدا الصانع منهمكا فى اجادة عمله وانجازه ، فقد وضع قطعة الجلد الرخوة ، على خشبة منضدة امامه ، وهو يخيطها بأبرة رفيعة ، فكان عملا مجهدا فى الدقة والاتقان ، وقد رأينا الى جنبه سرجين من سروج الجمال لم يكملا بعد ، فامعنا النظر فيهما ، وتبين لنا ، ان أهم المواد التى تستعمل فى صنعها ، هى الخشب وأدوات من الآنية .

ثم سرنا الى سوق التجار ، حيث تعرض فيه الاقمشة المختلفة المستوردة من اسواق الغرب ، فتغرى بنقوشها والوانها العيون العربية الساحرة . وتتلامع من بين العباءة السوداء الطويلة التى تلتف بها المرأة ثيابها الانيقة ، وقد زينتها النقوش بالوان مختلفة ، فيها الانسجام والتزوق . وقد تكون الالوان والنقوش هى التى تغرى المرأة فى اختيار ثيابها ، فهى فى كثير من الاحيان ، وهى تسير ملتفة بعباءتها ، تقتنص الفرص لاظهار طرف من ثيابها ، فتعمد الى عباءتها تعدل وضعها ، فتنحسر قليلا ، ويبين جزء مما اختفى تحت العباءة من تلك الثياب المطرزة الجميلة ، وتحجب اجزاءها الاخرى ، لتحتفظ بها لنظرة اخرى تصطادها .

ومما يسر النفس أن يرى الزائر اسواق الصاغة فى بغداد ، حيث تعرض فيها مصوغات الذهب والفضة من مختلف الانواع . ويستعمل الصائغ وعاءا صغيرا من معدن « الاسبست » ، يصهر به حبات الذهب ،

حتى اذا ما اذيبت جميع جزيئاتها ، مددها بمنفاخ على هيئة انبوب دقيق ، فتصبح قطعة رقيقة منبسطة ، ثم ترى بعدئذ ، وقد برزت مصوغا رائعا .

وينهمك صائغ الفضة بعمله ، فينقش على صفائح من الفضة ، بذرات من رذيذها ، نقوشا في غاية الروعة والجمال ، ويحولها الى اشكال مختلفة من المصوغات ، ترى من بينها علب السيجاير ، وانواع من الآنية ، وابرز ما تميز به هذه المصوغات هو أثر الفن الفارسي فيها ، اذ ترى في نقوشها انواع من الطيور مختلفة في الحجم والشكل والهيئة وكلها منسقة تنسيقا متناسبا يتمثل فيه الفن والابداع .

ولعل من يستهويه شيء من هذه المصوغات ، يستطيع ان يبتاعه بربع الثمن الذي يسومه الصائغ ، اذا هو احسن المساومة . وقد يتراوح ثمن كثير من هذه المصوغات الفضية بين الدينارين والثلاثة دنانير ، ويمكن أن يشتري الانسان بهذا المبلغ علبة سيجارة جميلة أو قطعة من حلى الزينـــة المغربيـة .

ولايلبث المرء ، في هذه السوق ، ان يفاجأ بمناظر لا يتوقعها ، بل وقد لا تخطر بباله . فبينا كنا نتطلع الى محلات عرض المصوغات ، اذ قفز صبي ثائر ، ودار بخطوات متعرجة حول احد معارض المصوغات ، وبيده شعلة يرهب بها بائع الحلي ويربكه . وكان منظره قد اوحى لنا بقصـــة علاء الدين ، وهو يحمل قنديله ، وطارده احد الباعة ، واخذ يلاحقه هنا وهناك ، وسورة الغضب قد اخذت منه مأخذها . فيطفيء نيرانها بالسب والقذع واللعنات المتوالية ، ولكن الصبي الثائر ، لم يأبه به ، اذ استمر في دورانه وتعرجات خطواته ، يهزأ به ، ويلوح له بشعلته .

وكان يجلس على حافة الطريق شخص ، قد تزيا بالوقار والهيبة ،

بلحيته البيضاء الطويلة ، وعمامته الكبيرة ، وقد اسند ظهره الى الحائط ، وكان يمعن النظر فى كتاب امامه ، واحاط به رجلان كانا قد جلسا امامه ، يستوحيان الالهام السماوى من بين شفتيه ، ولعلهما كانا يستشيرانه فى ان يفصل بينهما فى حق قد تنازعا عليه .

ما اكثر ما يتعلمه الانسان من القوانين والعادات والتقاليد فى هذا الشرق اذا هو استطاع ان يختلط بالناس ويمتزج معهم ويحيا حياتهم .

وكنا ، ونحن نسير ، قد وجدنا بعض المحلات التى تعرض فيها الاشياء الاثرية القديمة . وأولى بالانسان أن لا يدخل فيها ، اذا لم يكن ليفهم من قيم معروضاتها الاثرية شيئا . ولكننا أردنا الا نحرم انفسنا من هذه المتعة النادرة واستطعنا ، بعد لأى ، ان نختار من بين ما وجدناه من تحف أثرية ، جرسا يوضع فى رقبة الجمل ، وهو يحوى عددا من الكرات ، بعضها معلق فوق بعض ، واحيانا تتداخل بعضها فى البعض الآخر . وقد كان منظره يميل الى السواد ، لتقادم الزمن عليه . ومن يدرى فلعل هذا السواد مصطنعا ! ومهما يكن من أمر ، فهو جرس يطرب المرء لانغامه والحانه .

كانت لهذه الاسواق التى تجولنا فيها مخارج عديدة ، يستطيع المار ان يسلك ما شاء منها . وقد فضلنا المخرج الذى يقودنا الى الطريق المؤدى الى شارع النهر ، وهو اقرب الشوارع الى نهر دجلة . فتابعنا السير فيه على اقدامنا ، لنرى مناظر النهر ، وهى كثيرة تستلفت الانظار . وأول ما رأينا قاربين من قوارب صيد الاسماك قد اقبلا ، ورسيا على الساحل ليفرغا صيدهما . فكانت كميات كبيرة من الاسماك ، تولاها صيادوها بالغسل . وقد اعتاد بائع الاسماك فى العراق ان يشق السمكة من ظهرها ثم ينتزع عنها جلدها بسكين حادة ، بكل مهارة ودقة . وقد رأينا سيدتين قد انهمكتا فى شراء

سمكتين ، في حين جلس صبي الى وقود من النار ، واخذ سمكة يحمرها على لظاها •

وهذا النوع من السمك الذي يشوى على ما يمسه من لهب النار ، كان يقدم الينا على موائد الطعام ، في كثير من الولائم التي ندعى اليها في بيوت عامرة عديدة ، وقد كان من افخر انواع السمك واجوده ، وكان لذيذ الطعم ، طيب المذاق ، ويظهر لنا ان نهر دجلة غزير بالاسماك وغزارة الاسماك في دجلة تبين بوضوح في مؤخرة النواظم والسدود ، وهي التي تتحكم بالمياه ، فتوجهها لاغراض الري والزراعة ، فهناك يستطيع الانسان ان يقف على سلالم هذه السدود يرى الكميات الهائلة من الاسماك ، وهي تقفز من هنا وهناك تتطلب النجاة • وقد تشاهد في مؤخرة ناظم سدة الكوت هذه الافواج من الاسماك ، على ضفتي دجلة ، وكثيرا ما يرى منها ما قد اعياه التعب ، فلم يستطع القفز في الماء ثانية ، فيبقى خارج الماء يلفظ أنفاسه الاخيرة •

ومما رأيناه وشاهدناه من المناظر في هذا النهر الجميل ، ان قد رست على الساحل سفينة تحمل حزما على شكل « بالات » كبيرة ، واحسبها قطنا ، قد جيء به الى البلدة ، ليستعمل في اغراض الغزل والحياكة والنسيج ، وكان على ساحل النهر آلة تزن هذه البالات ، وهي تفرغ من السفينة ، ووقف الى جانبها كاتب يسجل اوزانها ، وامثال هؤلاء الكتاب كثيرا ما يصادفهم المار في الاسواق ، ولعله اراد ان يتأكد من وزن هذه الحمولة ، وقد لا يبعد ان يكون الموظف الذي يجبي ضريبة الاستهلاك •

وكنا في وقفتنا على النهر ونحن نتطلع الى مناظره ، قد فاجأنا صاحبنا بائع الجرائد ، وهو صبي اعتاد أن يقص لنا قصصا مطولة عما احتوته جريدة الاوقات العراقية في كل مرة يصادفنا فيها ، انه شاب يافع محبوب في ملامحه

وحيويته ، ولم يكن ليسوؤني منه شيء غير أنه يخشى الماء ، على عكس أخيه ، الذي لا يفارق النهر ، بل يرى ، في كثير من الاحيان عاريا ، قد وجد في الماء هواية ، يلعب ويمرح فيه .

وكان بائع الجرائد ، ويدعى احمد ، قد مر بي في صباح هذا اليوم ، وكثيرا ما كان يجلس على سلالم الفندق ، ينتظر أن اتم فطوري ، فهو في كل صباح يستلم مني عشرين فلسا ، في حين ان ثمن الجريدة اثنا عشر فلسا .

واحمد هذا لا اظنه يتجاوز الثماني سنوات من العمر ، ويعرف من اللغة الانكليزية ما لا يزيد عن ثمانية كلمات هي « نعم سيدي ، لا يا سيدي ، اشكرك ، جريدتك سيدي ، تصبح على خير » ، وهذه الاخيرة يحيي بها ليلا ونهارا .

لقد كان هذا الطفل الدؤوب ، كثير الحركة والنشاط ، يبحث عن الرزق فيوفره لاخته ، التي كانت نصف عمياء ، وهو يحط رحاله اينما تسنى له ، وكان في الغالب يلتقي مع الحمال صاحب انف « سيرانو » واني وان لم أره يحمل شيئا من الاثقال ، ولكني اعرف عنه ذلك ، من منظره ولباسه وما يشده على ظهره من الحبال ، فكانت هذه البنت الصغيرة كثيرا ما تضع رأسها في حجر هذا الرجل العجوز ، فتأخذها الاغفاءة ، بينما يجوب احمد الشوارع لبيع جرائده ، وقد يحاول ان يقدم لهذا الرجل الذي يحنو على اخته قطعا من العلك احيانا .

وقد تشعر هذه البائسة براحة احيانا ، فتحاول أن تخطو بضع خطوات ، فيقودها اخوها بيده وهي اذ تتعلق باحدى يديه يحمل هو ا[illegible] الاخرى جرائده ، ويسعى ان يبيعها ، فهو يقوم بعمليات ثلاث قيادة اخته ،

وبيع جرائده ، ومحاسبة زبائنه ، انه والحق لمنظر يستحق أن يتمثله الانسان ، ففيه من القيم الانسانية الشيء الكثير .

وكان احمد يقتسم كل ما يحصل عليه مني من قناني « الكوكولا » بينه وبين اخته ، فهو في الحقيقة يتمثل بالشهامة والدعة ، ولو انه يشرب من قنينة الكوكولا اكثر من نصفها بعض الاحيان .

واجمل ما في ملامح احمد ، عيناه الجميلتان ، اذ يشع منهما الوداعة والبراءة ومنظره الذي يوحي بالثقة والطمأنينة ، والنشاط والحيوية ، ومع كل ذلك فقد رأيته بعض المرات غضبان متهيجا ، فمرة رأيته ، وقد اخذ منه الزعل مأخذه ، عندما رأى أخاه العاري يستعطي بعض ما تجود به يدي ، فلم يتمالك نفسه حتى انهال على اخيه ، فضربه عدة لكمات ، وقد اراد بها أن تكون درسا له ، وهو يعني بها أن يقول له ، ان عليه الا يتدخل في عمله ، وكانت المرة الثانية التي رأيته فيها ثائرا ، عندما كان مع رفاق له اكبر منه سنا كادوا في عددهم ان يقطعوا الشارع ، وهو يميل بهم ذات اليمين وذات الشمال ، يكيل لهم اللكمات بمجمع يديه الصغيرتين الضعيفتين من غير كلل ولا ملل ، ولم يعجبه مني اذ رآني غير مكترث لما بدا منه من اعمال مرهقة .

ودهش احمد ، عندما دسست له في يده مائة فلس ، فقد رأى في ذلك ما لم يألفه قبلا ، فلابد أن يكون قد جد في الامر ما لم يكن في الحسبان ، ولم يلبث ان رأى الحقائب تختفي في صندوق السيارة ، فلاحقها بنظرات عبرت عن دهشته لهذه المفاجأة التي لم يكن يتوقعها ، ولم يتمالك نفسه عندما تحركت السيارة ، فركض وراءها بضع خطوات ، ثم صاح بصوت عال وهو يلوح بيديه ليعبر عن لوعة الفراق ، ولم يخف عليّ ما كان يناديني به هذا الطفل الاليف .

« ٤ »

على ضفاف الفرات

تمتد على سواحل الفرات القديم ، بين بلدتي الرمادي وهيت ، نواعير عديدة ، بعجلات خشبية كبيرة الحجم ، تزاحم جريان المياه ، وهي تبدو غريبة المنظر ، ولكنها آية في الاعجاب في شكلها وانتظامها ودقة صنعها • فكلما حاولت الامواج الصاخبة أن تقهرها ، وهي في سورة غضبها ، فلا تقوى عليها • فتكتفي ان تحركها قليلا بشكل دائري • وقد يظن الانسان بانها لن تقوى على الدوران في الدورة الثانية ، وانها ستبقى واقفة تزمجر في مكانها •

ترى ما هي هذه النواعير ؟ انها في منظرها اشبه بقنطرة ريفية مقوسة الانحناء ، بقياسات ممتدة على بعد امتار متساوية ، تستند على مراكز حركية ، فتحمل الماء بجرار صغيرة من الخزف ، وترى هذه الجرار مربوطة بحبال دقيقة ، يظهر انها قد صنعت من الياف النخيل ، تندفع في المياه بقوة ، وهي تدور في نظام بدائي محكم ، فتغوص في اعماق المياه بفجوات ضيقة ، فتحمل هذا الماء الثمين ، وهي في طريقها الدائري ، الى سواقي المزارع المنبثة في الحقول ، التي تتراءى في الجهة الثانية ، فترويها •

ما اروع دوي هذه النواعير ، اذ تسمع زمجرتها ، فتشنف الاسماع بنغماتها المتوالية ، وتراها ، اذ هي تحمل حفنات من الماء شحيحة ، لتصبها

فى حفائر الحقول الضيقة ، تضيع منه كميات هائلة ، تتساقط فى النهر ، من فتحات تلك الجرار الخزفية الصغيرة ، فلا تفيد حفر تلك الحقول من هذا الماء المحمول اليها الا قليلا ، ويحرص الفلاح على هذه الكمية القليلة من المياه ، ويوليها عناية فائقة ، ويرقب حقله وناعوره ونخلاته بعينيه الحائرتين ، وهى تمثل فى منظرها صورة رائعة لمعركة عنيفة جرت بينها وبين رمال الصحراء ، فخرجت منها ، وقد اضناها التعب وارهقها الجهد .

وفى المناطق الجنوبية ، حيث تجرى فى وديانها مياه نهرى دجلة والفرات ، تكاد تكون مشاكل الحياة وتعقداتها بين الفلاحين ، تحوم جميعها حول الحصول على المياه لارواء مزارعهم وحقولهم . والغريب ان المرء لا يرى فى هذه المناطق الجنوبية اثرا للماء أو النبات أو الحياة ، وهذا ما يعرفه ويلاحظه صغار الاولاد من الفلاحين العرب ، فقد رأينا هذا العربى الصغير ، يجهده التعب ، وهو يحاول ان يروى نخلة له ، كانت قد نبتت فى صحن كوخه الذى يأويه ، وكانت واسطته فى هذا الارواء اناء صغير ، قد شدّ طرفه بعود يوصله الى ماء الحفيرة ، فيرفع به الى نخلته حفنات من الماء ، تنساب فى ساقية ضحلة لا تكاد تبين .

ان صغار الاولاد من الاوربيين ، وهم يلعبون ويمرحون ، يحفرون مثل هذه الحفر والسواقى فى الارض ، فيجمعون فيها المياه ، لتسبح فيها سفنهم ، فى حين ان صغار اولاد الفلاحين العرب يحفرون مثل هذه الحفائر لسقى مزروعاتهم .

ان هذه الطريقة التى الفها العراقيون فى سقى مغروساتهم ومزروعاتهم تمتد جذورها الى اقدم العصور التاريخية . فالتاريخ يرينا ، ان البابليين القدماء كانوا قد مارسوا هذه الوسائل البدائية فى ارواء اراضيهم ، ولا تزاله

مواقع تلك القنوات القديمة تشاهد في الحفريات الاثرية ، وترينا بانها كانت العرق النابض لحياة تلك الدول التي عاشت وترعرعت فيما بين النهرين •

وقد اكون انا ورفيقي الامريكي لا نزال بعد طفلين ، يتعذر علينا ادراك اسرار هذه الطريقة في الارواء ، وقد يقصر فهمنا لها • فلسنا نعرف شيئا عن فن هذا الارواء وهندسته ، ولم نهتد الى السبب الذي دعى ان تكون عجلة الناعور بهذا الحجم الكبير ، وجراره الصغيرة مفتوحة تتساقط منها المياه ، وسواقي الارواء ضحلة وضيقة •

فلم لا يستعيض العربي عن هذه الجرار الصغيرة ، بجرار كبيرة ؟ ولم هذا البناء الخشبي الثقيل الذي تعلوه المياه ؟ أليس بالامكان ان تعرض القنوات والسواقي ؟ هذه هي الاسئلة التي كانت تدور في خلد رفيقي الامريكي ، فلم يوفق الى ان يظفر بجواب عنها ، وبقيت الغازا ولما يستطع حلها • ومن يدري ، فلعل هذه العجلة تتوقف عن حركتها اذا هي حملت من الماء اكثر من طاقتها •

ولم يرض الامريكي هذا التعليل ، فقال ، انا لا أفهم لذلك معنى ، ونادى المترجم « عبد » وطلب اليه ان يسأل احد الفلاحين المنبثين هناك عن تعليل هذه الظواهر التي استعصى عليه فهمها • فلم لا يستعمل الفلاحون جرارا اوسع حجما واكثر عددا لنواعيرهم ، فيستطيعون أن يسحبوا اكثر كمية من المياه ؟ ولم لا يوسعون قنوات مزارعهم ؟

والامريكان يعللون كل ظاهرة يرونها حسب منطقهم التكنيكي ، فهو الذي يضع القيم لكل مظاهر الحياة • ولم يلبث « عبد » ان استفهم من احد الاعراب ليجيب على سؤال هذا الامريكي ، فقال له ، ان الفلاح عندنا فقير ، وليس له من المال ما يكفيه لتحسين احواله • والظاهر ان الفلاح لم يحاول

ان يظفر بشيء من تحسين احواله أو تبديل اساليب عيشه • ذلك أننا حينما دخلنا معه في نقاش جوابه ، هز براسه معبرا عن تأييده وقناعته لما ذهبنا اليه في تعليل عوامل ركوده ، اذ ابتسم ابتسامة انعكست فيها ملامح الاحراج وتظاهر بأنه يتطلع الى مناظر غلته في الحقول ليقلب صفحا عن هذا الموضوع الذي احرجه • وكان ابنه الصغير ، قد بدأ عليه الاعياء ، وهو منهمك في حفر ساقية ، توصل الماء الى شتلة من شجر « اليوكالبتوس » ولايبعد ان يكون قد شعر انها بحاجة الى اكسير الحياة ، وعلى كل فقد كانت اشـعة الشمس تلفح جسم هذا الطفل العاري ، ، الا من خرق بالية • بينما كان ابوه يدير بعينيه السوداوين الجميلتين ، وقد ارتسم على ملامح محياه ، حرصه الشديد ، على ان يتفقد حقله ، ويرقب كميات المياه المنسابة فيه ، ويوفر الراحة والعيش الرغيد لاولاده •

ومهما بدت هذه النواعير بدائية الصنع والتركيب ، فانها لتثير في النفس الشجون ، وتهيج فيها لواعج الاسى ، فها هي عجلاتها الكبيرة البالية ، التي يعود بها الزمن الى اقدم العصور التاريخية ، تعكس لنا صورة ناطقة تمثل تلك العصور الخالية في بداءة هذه الحياة التي ألفها الفلاح العراقي الآن في زراعة ارضه • ولعلنا نستطيع ان نستوحي من هذه النواعير البالية ، آيات تسحر النفس وتستهوي الأفئـدة ، فهي اذ تدور عجلاتهـا ، تدعـوك لتنصت لشكواها ، فتسمعك الحانا مثيرة من أنينها وتأوهاتها ، فتوحي اليك بما ناءت بحمله الاجيال التي تعاقبت على هذه الارض ، من آلام ومصائب ونكبات ، وتشعرك بما قاسته من ظلم وجور على عهد دول وحكومات توالت في حكم هذه البلاد ، حتى اضناها التعب وانهكها الاعياء •

كان الاستعباد والظلم والطغيان ، في تلك العصور المظلمة ، هي الدعائم

التي بني عليها الاولون مجدهم وعظمتهم في سامراء ، وبابل ، ونينوى .
وها هي خرائبها لم تزل قائمة حتى الآن ، تصهرها اشعة الشمس ، وتذريها
الرياح وهي في طريقها الى الاندثار .

ويبدأ الفلاح في شهر مايس ، في دياسة غلته ، وهي ، ان شاء الله ، كما
يعبر العربي ، بضع اكياس من الحبوب ، يقاسمه الرئيس أو السركال فيها
حقه ، فيستأثر لنفسه منها بحصة الاسد ، ويبقى هذا الناعور صامتا ينتظر
الموسم الثاني الذي يبذر فيه الفلاح بذوره ، ليعود الى نغماته الاولى يعبر
عن انينه وشكواه ، وعندئذ يعود ابنه « حسين » فيجهد نفسه في ايصال
الماء الى شجرة « اليوكالبتوس » ، التي كاد العطش يذوي اغصانها . ان لم
تكن قد عبثت بها ماشيته ، ويعود ابوه المسكين يتطلع ثانية الى نهر الفرات ،
فيرى انخفاض الماء فيه ثم يدير عينيه ، فيشاهد خيوطا من قطرات ماء الفرات ،
تنساب في ساقيته الضحلة ، يصبها هذا الناعور الذي اعياه مر السنين ، فبقى
يعاني ويلاتها واندفع يردد شكواه وانينه ، ولا من مجيب .

« ٥ »

كربلاء - المدينة المقدسة

ينحدر طريق رملى ، من مدينة الحلة ، يبدأ ببساتين النخيل ، فيخترقها ، حتى يصل مدينة كربلاء القديمة ، وهى الارض المقدسة التى ينظر اليها القسم الكبير من المسلمين نظرة تقديس واحترام ، خاصة من يعتنق المذهب الشيعى منهم ، وهم الذين يؤيدون عليا بن عم النبى وزوج ابنته .

ومنذ ان توفى النبى محمد فى عام ٦٣٢ ميلاديــة ، بدأ الخـــلاف يدب بين صفوف المسلمين من بعده ، وكان منشأ هـذا الاختـلاف بينهـم ، تشعب ارائهم ومذاهبهم عن تفسير تعاليم النبى ، ونشرها بين المسلمين ، وقد جرهم هذا الاختلاف والتنابذ ، الى معارك دامية ، فى حقب متعـددة من الزمن .

وكان النبى محمد ، قد اخلف ابنتين هما رقية وفاطمة ، ولم يخلف ولدا وقد تزوج « على » صغراهما فاطمة ، فانجبا ولدين ، هما الحسن والحسين .

وقد مات النبى ، من غير ان يشير بوضـوح الى من يتـولى الامر من بعده ، فكان ما حدث ان تولى ابو بكر الخلافة فى الاسلام ، وهو أب عائشة زوجة النبى الثانية .

وقد كان ابو بكر شخصية قوية ، استطاع ان يعيد الى الاسلام كثيرا ممن ارتدوا عنه ، وكان ساعده الايمن خالد بن الوليد ، المحارب الكبير ،

وهو الذى اشتهر عند المسلمين ، بسيف الله ، وقد كان حريا بهـذا الاسم حقا • اذ استطاع أن يشهر سيفه في وجه اعداء الاسلام ويثيرها حربا شعواء عليهم لنشر الاسلام ، واعلاء كلمة الحق •

وقد مات ابو بكر ، بعد أن اوصى بالخلافة من بعده لعمر ، وهو الرجل الذى قد وهبه الله قابليات فذة ، فقد كان فى بدء الاسلام الخصم اللدود للنبى محمد ، ثم عاد ، فاعتنق الاسلام ، واخلص له ، واندفع يدعو لاعلائه ، وينشر تعاليمه بحماس وايمان •

وكان ، علىّ ، وهو اقرب الناس الى النبى ، قد غلب على امره ، فخسر الخلافة مرتين ، وبعد ان قتل عمر فى المدينة ، ونودى بعثمان ــ وهو زوج « رقية » كبرى بنتى النبى ــ خليفة على المسلمين ، نشأ الانقسام والتناحر ولم يلبث عثمان ان فاجأه الناس ، واحاطوا بيتـــه ، وانتهى الامر بان تولى على الخلافة • ولكن الظروف التى احاطت بعلى ، اربكت وضعه ، فاشتبك فى نزاع متصل مع معاوية ، اول خلفاء الدولة الاموية ، ولم يستطع على أن يطيل المكث فى الجزيرة العربية ، فاستقر به المقام فى العراق ، ولم يكن يصل الى العراق حتى التقى بجيش عائشة زوج النبى الثانية ، وهى اذ ذاك ام المسلمين فاستطاعت أن تقود معركة حامية ضد على ، واشـــتركت هى نفسها بالقتال ، فى ساحة المعركة ، ولم تنته المعركة حتى عقر جملها فقبض عليها عليّ وارجعها الى المدينة ، فمكثت هناك اثنتين وعشرين سنة حتى وافاها الاجل • وقد نشبت المعارك بين على ومعاوية بوجهها السافر ، ولم يصمـد اتباع على فى هذا القتال اذ تراجعوا عنه ، بعد أن رأوا خصمه معاوية قد رفع مصاحف القرآن على الرماح وقد اعقب هذا الامر ، ان توصل الخصمان ، الى شىء من التقارب ، اذ قد جرى التحكيم بعد مرور سنة ، على ان تكون

الخلافة لواحد منهما ، والذى يتراءى لنا ان هذا القرار قد اخذت به جهة واحدة ، ولم تأخذ به الاخرى . فكان الامر كما نص عليه هذا القرار ، واصبح معاوية خليفة على المسلمين وقتل على بالكوفة آخر الامر ودفن فيها ، وهو الرجل الذى قلما ذاق طعم الراحة فى حياته .

ولم يكن النزاع على الخلافة قد انتهى بقتل على ، فى الكوفة ، اذ كان الحسين بن على ، وهو الذى يناصره اصحابه من الشيعة ، قد بدأ يثير حربا اهلية ضد « يزيد » بن معاوية ، وانتهت حوادثها بمعركة حامية فى كربلاء . حيث انكسر جيش الحسين فيها ، لقلة عدده ، ولكن اندحاره هذا لم يثن عزيمته ، فقد عاود الكرة ثانية ، حتى ليروى انه حفر خندقا خلفه ، وجمع فيه الاحطاب ، واشعل فيه النار ، لئلا يتراجع فى هـــذه الجولة الثانية ، وكان الحسين نفسه فى هذه المعركة ، قد خاض حماها وقاتل عدوه فى مقدمة جيشه ، وكان يحمل باحدى يديه السيف ، وبالاخرى القرآن . واستشهد انصاره الشجعان فى ساحة القتال حتى آخر رجل منهم ، ووقع هو الآخر مضرجا بدمائه . وحمل رأسه بعد انتهاء المعركة الى الكوفة ، ويروى الرواة ان حاكم الكوفة اخذ يضرب بعصاه شفتيه المضرجتين بالدماء من غير وجل ولا حياء .

فلم يلبث ان انتفض من الناس ، وقد خيم السكون عليهم ، رجل من بينهم ، وصاح باعلى صوته ، الويل لكم ، لقد رأيت رسول الله يقبل بفمه هاتين الشفتين اللتين تقرعان الان بالعصى .

والشيعة ، الذين هم لا يزالون يؤلفون اقوى الجماعات من المسلمين ، يعتبرون عليا والحسن والحسين هم الخلفاء الحقيقيين . لذلك نرى الحجاج من مختلف البلاد الاسلامية يفدون بالآلاف كل سنة لزيارة مراقد الائمة

فى جوامع الكوفة والنجف وكربلاء ، ليصلوا على القبور التى قد ضمت اجدائهم ، وقد اتيح لى ان ازور كربلاء من بين هذه المدن الثلاثة •

والحق انها لزيارة قيمة ، تستحق الاتعاب ، وكان أبرز ما فى مدينة كربلاء الجامعان المقدسان العظيمان ، فقد تحكما فى تصوير منظرها • ولم يكن الزائر الاوربى فى هذه المدن المقدسة ، مرغوبا فيه ، ولم ينظر اليه نظرة ضيف كريم ، فلا يستطيع ان يدخل فى داخل الحرم المقدس ، وفيه تلتقى الكنوز الثمينة ، فالنقوش الفنية الجميلة التى طليت بها أبواب الجوامع ، كانت من اثمن وأبدع ما رأيته من آيات الفن الخالدة فى هذه البقعة من العالم ، اما قباب هذه الجوامع فقد طليت سطوحها المحدودبة بصفائح الذهب •

وكنا قبيل غروب الشمس ، قد زرنا المدينة ، وتجولنا فيها ، حيث كانت الشمس وهى تميل للافول ، ترسل أشعتها الذابلة ، فتداعب بها منائر الجوامع الممشوقة ، وقبابها المحدودبة • وكان على احدى هذه القباب يرف علم اسود ، هو شعار الحزن والالم •

وكان يبدو على المدينة العتمة ، من كثافة اشجارها ، وكانت الحركة فى الشوارع نشيطة ، ويرى الحجاج الزائرون ، يجوبون الشوارع وهم يسرعون الخطى نحو الباب التى زينت ببدائع الفن ، وهى التى تؤدى الى مدخل الحرم المقدس ، حيث يقيمون هناك صلاة المغرب ، ويلاحظ ان هؤلاء الحجاج يمثلون هيئات مختلفة من الناس ، فبينهم الهنود بعمائمهم الفخمة وعيونهم البراقة ، وبينهم رجال بلباسهم الكردى ، وآخرون بلباسهم الافغانى وغير هؤلاء واولئك بلباسهم الايرانى ، حتى لترى قسما من الناس يرتدون اللباس الاوربى وبعضهم يضع على رأسه الطربوش الاحمر ،

وكل منهم مندمج بالآخر وكأنه الصديق الحميم ٠

ولقد شعرت باننا ثقلاء على هذه الجماهير ، اذ لم تجد من قد قابلنا بالترحاب ، ولذلك اقترحت اننا لابد ان نأخذ بأحد أمرين ، فاما ان نعود من حيث أتينا ، وأما ان تجد ملجأ ينقذنا من هذا الوضع المريب ٠

وكنت قد سمعت كثيرا بان فى هذا الجامع أحسن أنواع الذهب والفضة التى قد صنعتها أيدي ايرانية ، فاتقنت صنعها ٠

وعبثا كانت جهود مضيفنا ، فقد بذل كل ما فى وسعه لان يجد لنا وسيلة تمكننا من الدخول فى احد هذين الجامعين ٠ وأخذنا آخر الامر الى سطح أحد البيوت القريبة من الجامع ، ومثل هذه البيوت يجدها الانسان دائما بالقرب من الجامع ، وهى معدة لهذا الغرض ، فكل من يريد ان يشاهد الجامع وما يجرى فيه يستطيع ان يجلس فى احد سطوح هذه البيوت براحة وطمأنينة ، فيرى أكثر مما لو كان فى صحنه ، وقد أتيح لنا هناك ان نظفر بنظر بهو الحرم الداخلى ونرى الحجاج فيه منقطعين لله فى أدعيتهم وصلواتهم ٠ وفى مكان وسط من بهو هذه البناية الضخمة يرقد جدث الحسين ، حفيد النبى محمد ، والحق ان هذا القبر ، يعيد فى الذاكرة صورة صادقة ، تمثل لنا تلك المأساة المؤلمة التى حلت بآل النبى ٠

وقبل قليل ، كانت تمثل مأساة قتل الحسين ، وهى تمثل فى كل سنة ، يقوم بتمثيل أدوارها معتنقوا المذهب الشيعى فى هذه المدينة المقدسة ، فيحمل نعش الحسين على الاكتاف ، ويطاف به فى الشوارع ، وعند ذلك يفقد الزوار رشدهم ، فلا يتمالكون أنفسهم ، وتنتابهم رجفة الهلع ، فيشهقون بالبكاء والعويل ، ويضربون أنفسهم بالسلاسل والسكاكين والسيوف ، حتى تضرج أجسامهم بالدماء ، فتستمع الى ضجيج الناس وعويلهم

في الازقـة الضيقـة وكلهـم يبكي وينحب ، ويصيح « يا حسين يا حسين يا حسين » وفي هذه الحالة يعم الحزن والالم جميع النفوس العربية ، فتنطلق من قيودها تعبر عنه بهذا البكاء والعويل ، وتذرف الدمع بسخاء ، على مصاب آل النبي محمد •

وكربلاء بأزقتها الضيقة وجوامعها الفخمة ، تعود للمسلم فقط ، وقد كنا في دخولنا في هذه المدينة ، كالمتطفل عليها • والمدينة ترى ، كأنها ساحة حرب للذين تربطهم بالنبي المعرفة ، فيبدو على الناس الانكماش والاحتراس في سلوكهم ، ويرى التاجر في السوق ، وكأنه متحلل من بضائعه ، فقد كنا نتلقى أجوبة أسئلتنا منه بكل اختصار وايجاز وبرودة • وقد تراهم ، ولسان حالهم يقول ، ليس من الشيعة من يظهر في سلوكه ومعاشرته الفرح والبشرى •

وكان قد دنا مني أعرابي عجوز ، ونظر الى آلة التصوير التي كنت احملها على كتفي نظرة حادة ، فاحصة ، وهز رأسه غضبان أسفا ، فاردت ان أطمنه واذعن لرغبته ، فبادرته مسرعا ، وأخفيت آلة التصوير في جيب معطفي الخلفي واعتذرت منه بوساطة المترجم ، بقولي ، بانني لم أقصد من حملها ، ان أصور بها شيئا قط ، ولكنـه اندفع يتكلـم مع « عبد » بعض العبارات ، لم يشأ « عبد » ، ان يترجمها لنا ، وقد سألته بعد فترة من الزمن عما عناه هذا الاعرابي بكلامه معه ، فلم يرد على بأكثر من « لا شيء » ويظهر انه لم يرد ان يطلعني على شيء ، مما قاله له ، ولا غرو ، فالعربي لطيف وظريف بطبعه ، وبالرغم مما في هذا السلوك من الشعور الذي يوحي بالاشمئزاز ، فان فيه شيئا كثيرا من المعاني ونبل الطباع • والعرب يحترسون من الزوار الغربيين ، فيحاولون ان لا ينكشف لهم شـيء من الامور التي يحترمونها ويقدسـونها وهي التي تثير في نفسية الغـربي العجب وحب الاستطلاع •

« ٦٠ »

الماء والارض

ان المياه التى تنحدر من الجبال ، فتصب فى نهرى دجلة والفرات ، اللذين يلتقيان فى الجنوب ، فيتكون منهما شط العرب ، تبدو ملونة ، باللون الاخضر الممزوج بالحمرة • ويتكون هذا اللون من ملايين الاطنان من ذرات الاتربة ، التى تجرفها المياه من أعالى الجبال والتلول والمرتفعات الواقعة فى تركيا وايران وشمال ما بين النهرين ، وينجرف آخر الامر هذا الغرين ، فيلقى بنفسه فى الخليج الفارسى ، وبذلك يضيع على الناس جميعا هذا الكنز الثمين من خيرات الارض وثرواتها ، وقد يتبقى منه فتات قليل ، تأخذه بعض القنوات ، تروى به أراضيها فى السهول والوديان ، ولكن هذا القدر منه ضئيل جدا ، لا يمكن ان يقاس بالكميات الهائلة ، التى يبتلعها الخليج الفارسى ، فتضيع بين أمواجه •

وتستمر الانهر والبحار تسحب من تلك الاراضى الجبلية أثمن ثرواتها ، بدون انقطاع ، فتجعلها جرداء قاحلة ، وهكذا تنهمل الامطار فوق تلولها العارية فتجرف فى جرياتها أجود طبقاتها الغرينية ، فلا تبقى فيها غير طبقة معتمة اللون ، عقيمة الانتاج ، فقدت جميع قابلياتها الانتاجية ولم يعد فيها نبت أو حياة •

فمن يحمل الوزر هنا غير الانسان ؟ ، انه الانسان الضعيف ، المهمل

الذى يميل الى سهل الامور ويهرب من صعبها ، فيحمل على تلك الغابات فى الجبال فيحرق أشجارها ، ليستفيد من فحمها ، وهو بذلك يستنفذ من الطبيعة ـ أمه ـ ما ادخرته له من كنوزها الثمينة طوال عصور عديدة ، فيعبث بثرواتها ، ويذيبها كما تذيب الشمس الثلوج •

وهكذا تعبث يد الانسان بملايين الهكتارات من الاراضى ، فتعرقل على الطبيعة ، ما احتفظت به من التوازن بين الارض والماء والنبات ، والانسان بهذا العبث يضيع عليه ما تدره عليه هذه الكنوز الثلاثة من الخيرات ، التى لا يستطيع ان يحيا بدونها •

ان الغابة فى الحقيقة أثمن من احطابها ، انها هى التى تحفظ التوازن فى الطبيعة اذ تمتص جذور أشجارها الماء من جوف الارض ، فتنشره أوراق أغصانها بخارا ، فيتصاعد الى المناطق العالية ، فيكون غيوما ، تحمل الماء لتسكبه ثانية على الاراضى العطشى •

وهذه هى الدورة التى تنظم الكون ، تسيرها ارادة الله لبقاء الحياة على هذه الارض •

وترى النباتات ، فى المناطق الشمالية من العراق ، ضعيفة النمو ، بحيث تلفت الانظار ، وقلما ترى مساقط شلالات المياه ، التى تندفع مياهها من قمم الجبال ، الى الوديان ، ويندر ان يرى أثر لحديقة مكتضة بالاشجار تظلل برك المياه ، أو عيونها فى سفوح الجبال • لقد عمد الانسان الى احراق الغابات ، وهو يبغى ان يجد له طريقا الى الاراضى التى تكاثفت فيها الاشجار ، وتراه يتجول بين هذه الغابات التى قد التهمتها النيران ، من غير ان يعبأ بنتائجها ، أو ان يخشى عواقبها • ويرى غير مكترث مما تركه وراءه من أثر فى تخريب الطبيعة • ولم يتضح لنا بعد ما تعنيه بعض البلاد من

عملية حرق الغابات .

كان أحد الامريكان ، قد بحث مرة ما تجرفه الانهار في الولايات المتحدة كل عام من الاتربة والمواد الغرينية ، فتبين له ، بانها تقدر باربعمائة الف من الهكتارات ، وهذا الذي تقذفه الانهار في هذه العملية تستفيد منه الارض ، اذ تصل اليها كل سنة من الذرات المعدنية ، التي تتطلبها الحياة مقادير كبيرة « كالمعادن ، والفحم الحجري ، والنفط » .

ويبدو لنا ان الانسان في العصور القديمة ، كان أبعد نظرا في اتقاء أخطار الطبيعة منه في العصور الاخيرة ، فقد كان الصينيـــون القـــدماء ، يبذلون جهودا جبارة ، للاحتفاظ بأشجار الغابات ، وتحريم احتطابها في مناطق الصين الجبلية . وما الفيضانات الطاغيـــة الاخيرة ، الا ظاهـــرة من ظواهر هذه الايام ، التي كثر فيها احتطاب الغابات في المناطق الجبلية .

وترينا اللوحات الطينية ، التي اكتشفت في خرائب نمرود ، ونقرأ في الرسوم والنقوش ، التي تعبر عن حياة الاسر البابلية والكلدانية ، بان أرض ما بين النهرين كانت في القديم مكتضة بالغابات ، حتى ان الملوك كانوا يصطادون فيها ، ونقرأ الآن في التوراة مرارا وتكرارا ، بان فلسطين والاردن اللذين نراهما اليوم خاليتين من الغابات ، كانتا مزدحمتين بها ، حتى انها كانت تمتد الى الارضي المنبسطة .

اما اليوم فلم نجد فيوادي الرافدين أثرا لغابة واحدة ، واما فيالاراضي الجبلية فقد نجد بعضا منها ، في الاماكن التي لا تصل اليها يد الانسان ، لاحتطاب أخشابها .

والحقيقة ، اننا لا نزال اليوم في كفاح مرير ، للحصول على الاخشاب ، وهذا الكفاح ، الذي اصبح حرا طليقا ، وضرورة اقتصادية ، هو السبب

الرئيسى ، الذى حدى بالانسان الى ان يتناحر مع أخيه الانسان على كل شجرة تنبت فى الارض •

وقد تحدث لى أحد كبار الموظفين فى العراق ، ضاحكا ، فقال ، تصور انا قد غرسنا هذا المساء شجرة ، فرآها أحد الاعراب ، فما عليك الا ان تنتظر بانك ستجد فى اليوم التالى ، جثتين من الرجال ، مكان تلك الشجرة التى غرسناها ، كانا قد اقتتلا ، لاقتلاعها والحصول عليها •

ترى هل نستطيع أن نتلافى هذه الصعاب وتلك الاضرار الفادحة ؟ قد يكون من الحكمة القضاء عليها ، اذا بدأنا بحصاد الاشجار من على الجبال والتلول ولكننا يجب ان ننتظر آجالا طويلة نقطع فيها سنين عجاف قبل ان تعود تتكون فيها الطبقات الرطبة والسائلة •

وعند ذلك يتلاشى القسم الكبير من الطبقات الارضية المثمرة • اذ لم تعد الانهار حينئذ تستطيع ان تجرف بتياراتها غير طبقات أرضية عقيمة الانتاج ، وعندها تفتقد السهول والوديان خصوبة الارض ، فتشح علينا بانتاجها • ويتبع هذه العملية الطبيعية ، ظاهرة طبيعية أخرى تتمثل فيها قوى جبارة ، لا يمكن الوقوف تجاهها ، اذ تندفع الانهار فى الوديان ، فتجرف معها ما يحيط بها من السواحل ، وينتهى الامر بأن تغرق آلاف الهيكتـرات من من الاراضى المنتجة •

وقد طغت المياه فى شط العرب فى أواخر أيام الشتاء لسنة **١٩٤٦** حتى غمرت أكثر أراضى ضفتيه ، فأماتت النخيل المغروسة التى أوشكت على الاثمار وهى أثمن ما فى هذا البلد من مورد اقتصادى •

وقد حققت أعمال الرى الانتاجية شيئا كثيرا من السيطرة على تلك الفيضانات فقد وضعت الخطط ، وصممت مشاريع الرى فى أراضى ما بين

النهرين ، وبدىء العمل فى تنفيذها . فكانت القنوات والانهر ، والسدود والنواظم ، قد حجزت قسما كبيرا من المياه التى تتدافع فى فترات الفيضانات ، والقت بها فى المناطق المنخفضة من الاراضى البور التى كانت محلا لتجمع المياه الراكدة .

ومن يرى هذين النهرين العظيمين فى هدوئهما ، وانسياب مياههما ، فى أيام الصيف لا يستطيع ان يتصور غضبهما ، اذا ما طغيا فى موسم فيضانهما ، اذ ليس بالامكان ان تصدهما قوة بشرية ، فتندفع مياههما ، تخرب الحرث والزرع وتجرف فى اندفاعها كل ما يقع فى طريقها .

ومع كل ذلك ، فانهما العرق النابض الذى يستمد منه العراق الحيوية والنشاط ، ولولاهما لبقيت هذه البقعة من الارض صحراء قاحلة ، تمتد كامتداد صحارى الاردن وسوريا وشمال الجزيرة العربية . حيث يتناقل الناس فيها حفنات من الماء من بعض منخفضاتها ، ويبذلون جهودا جبارة للاحتفاظ بها لارواء ماشيتهم .

واذا ما قدر للعراق ان يحول مياه دجلة والفرات الى تلك الصحارى الشاسعة ـ وهو ما لا يمكن ان يتحقق ، مع الاسف ، بعد زمن طويل ـ لتغير وضع الانتاج الزراعى ، ولتبدلت الارض ومن عليها ، ولاصبحت تلك الاراضى القاحلة جنانا غناء ، تجود بكنوزها بسخاء . وعندئذ يستطيع الفلاح ان يحرث تلك الاراضى الصحراوية ، التى تجوب الجمال اليوم بين رمالها ، وتأكل من حسكها . ولرأينا رمالها تنحسر عن سطحها ، فلا تكاد تسمع فيها غير تجاوب أصوات المساحى والمناجل . ولكان العراق مهدا لحياة اقتصادية منتجة وهو يحوى اليوم آلاف الافدنة من الاراضى القابلة للزراعة ، لم تمسسها يد الانسان بعد . ولا يبعد ان يكون ما نشاهده اليوم فى جنوب

العراق ووسطه من وسائط الرى وطرق الارواء هى التى كان البابليون يستعملونها فى ارواء مزارعهم ، فنجد القنوات والانهر اليوم فى عرضها وعمقها أشبه ما تكون بها ، غير اننا لا نعلم كثيرا عن كيفية استغلال البابليين مياههم وانتفاعهم بها •

وقد لا يبعد ان تكون رقعة الارض لما بين النهرين فى أيام البابليين ليست بهذا الاتساع الذى نراه اليوم • وقد كانت كميات هائلة من مياه دجلة والفرات تندفع فى البحر ، من غير ان يستفيد منها أو يستخدمها أحد ، وقد تكون ملايين الامتار من المساحات الارضية ، قد رسبتها المياه فى جريانها فلم تعد الملاحة فى هذين النهرين ممكنة ، ولم يكن لها أثر فى المواصلات النهرية • وقد تبلغ الاراضى التى رسبتها مئات الآلاف من الهيكتارات •

وواضح ان هذين النهرين تطغى مياههما فى أيام الشتاء ، وتشح فى أيام الصيف ، فلا تكفى لارواء هذه الاراضى الواسعة ، وهذا هو العامل الاساسى الذى حدد ما يزرع منها • وشحة المياه فى الصيف تضطر الزراع ان يقتصدوا فى توزيع كمياتها ، فلا يستطيع الفلاح ان يزرع من الحبوب أو القطن أو غير ذلك من المزروعات الاخرى الا أقلها وهى نفسها تعرقل على الانسان اعمار هذه الاراضى الشاسعة ، وتوسيع زراعتها •

ولعل مشاريع الرى الحديثة ، التى تقوم بها الحكومة العراقية الآن باشراف جماعة من المهندسين الاخصائيين الاوربيين ، تغير وضع الرى فى العراق ، فتتدفق المياه الى هذه الاراضى الخراب ، بل وقد نرى خزانات اصطناعية ، تتحكم فى توزيع المياه والترسبات ، بل وقد تكون عاملا من عوامل القضاء على الاملاح والسبخ ، اللذين هما من أكبر المشاكل التى يجابهها الزراع اليوم •

ومن الواضح ، ان كثرة استعمال المياه في ري الارض ، يزيد في ملوحتها وسبخها فلابد اذاً ان يعنى في توزيع كميات المياه بالقدر الكافي ، لمحافظة الارض من ان تتكاثر فيها الاملاح .

ان الامل ليحدو بنا ان نرى ، عند انجاز هذه المشاريع الضخمة ، آلاف الناس يجدون لهم عملا منتجا وعددا كبيرا من المهندسين الفنيين يديرونها ويشرفون عليها . وسيكون مهندسونا الغربيون الذين جرى بناء هذه المشاريع على أيديهم ، قد أدوا لهذه البلاد خدمة تذكر ، ولعل هذه الارض ستغدق على أناس كثيرين خيراتها وتوفر لهم عيشا رغيدا . ولابد لهذه المشاريع الانشائية الضخمة التي ستنظم الارواء ، وتتحكم في السيطرة على المياه ان تزيد في نماء ثروات الارض ، بما يكفي لاسكان خمسة أمثال عدد السكان الحاليين في العراق ، واعاشتهم .

وتستطيع الحكومة العراقية اليوم ان تصرف على قسم كبير من هذه الاعمال الانشائية من وارداتها الخاصة ، وهي في الوقت نفسه ، تستطيع بحكمتها الادارية وسياستها الرشيدة ان تجني من الطبقات الارضية الاخرى موارد غنية تعم خيراتها البلاد . وهذه شركات النفط في العراق ، التي تدفعها الرغبة الى ان تستمر في أعمالها الانتاجية ، ستكون مصدر ثروة طائلة تلعب ادوارا مهمة في تطور الحياة الاقتصادية ورفع شأنها .

« ٧ »

مقتطفات عن سكان العراق

يتراوح عدد سكان العراق بين الستة والسبعة ملايين نسمة ، وهم يعيشون على بقعة من الارض قد تزيد مساحتها على ربع مساحة جمهورية المانيا الغربية • على ان عدد السكان ليس معروفا بالضبط ، والاعمال الاحصائية التي يقوم بها الفنيون الالمان حديثا ، تقدر عدد السكان بما لا يتجاوز الخمسة ملايين •

والحقيقة ان احصاء النفوس بأي شكل من الاشكال لا يمكن ان يتم في شعب لم يرتبط ببيته ، بل وقسم منه لا يزال من الاعراب الرحل الذين قلما يرتبطون بحدود بلادهم ، فهم يرحلون بمواشيهم حيث الماء والكلأ ، فان هم رأوا في أراضي ايران مرعى يشبع مواشيهم أكثر مما في مراعي العراق اندفعوا الى الاراضي الايرانية • وان وجدوا في مراعي سورية صدفة ، ماء وعشبا ، حطوا رحالهم في أراضيها •

ولقد سألت أحد رؤساء الاكراد مرة ، فيما اذا كانوا يجرأون ان يعبروا الحدود العراقية الى ايران لرعي ماشيتهم فكان جوابه ، وهو يتكلم بلهجة الواثق من نفسه ، ان الاكراد لا يعرفون من حدود الاراضي شيئا غير الحدود التي رسمها الله في أرضه ، وهي السلاسل الجبلية ، التي لا يمكن الصعود اليها ، أو المياه التي تتدافع من الجبال ، فلا يمكن اقتحامها •

والكردي الذي ولد وعاش في المناطق الجبلية ، لا تصده هذه العقبات ، وقد يحاول اجتيازها .

ويسيطر العرب على مناطق العراق الوسطى والجنوبية والغربية ، فهم يشغلون من الاراضي ما يزيد على ثلاثة أرباع مجموع اراضي العـراق ، أما الاكراد ، فهم يعيشون في شمال العراق ، وفي شماله الشرقي ، ويتجهون في اندفاعهم وتوسعهم نحو حدود تركيا وايران ، بل والى الاراضي الواقعة جنوب القوقاز ، وهم يفضلون العيش في الاراضي المرتفعة ، التي تقع في أعالي التلول ، ويرعون مواشيهم مما تنبته الجبال من الاعشاب اليابسة ، بل وقد ينتجعون هضاب الجبال العالية أحيانا كثيرة .

ونلاحظ في تاريخ العراق ، ان شعوبا كثيرة من مختلف الاجناس قد استوطنته وشعوبا أخرى كثيرة قد هاجرت منه ، وقد جرى ذلك على عهد الدول المتعاقبة في الحكم في أراضي ما بين النهرين ، وهي فترة تقدر بما يقرب من ستة آلاف سنة ، تقريبا .

ولا شك ان قسما من بقايا هذه الشعوب ، لا يزال الآن مستوطنا فيها وقسم آخر منهم قد اختلطوا بغيرهم ، وامتزجوا فيهم .

ونحن نعرف من هذه الدول التي تعاقبت على الحكم في العراق قبل نحو ثلاثة آلاف وخمسين سنة ، الدولة السومرية ، والبابلية والآشورية ، والحيثية ، والميدية ،ثم الفرس والعـــرب والاتراك ، وعاشت كذلك في بعض الفترات دول أخرى لا نزال اليوم نتحسس ببقايا أثر شـــعوبها في العراق ، وخاصة ، الشعوب التي سيطرت على هذه البلاد في الايام الاخيرة من التاريخ .

ولا تزال تعيش في العراق حتى اليوم أقلية من بقايا الاتراك والتركمان

وقد نزح الى العراق بعد الحرب العالمية الاولى ، جماعة كبيرة من الآثوريين كما يسمون أنفسهم ، لانهم يعتقدون انهم ينتمون الى سلالة الشعب الآشورى الذى عناه التاريخ القديم ، وأثر الحيثيين لا يزال محسوسا فى العراق . ولست أريد أن أتعمق فى مثل هذه البحوث التاريخية التى لا تسلم من العثار بل وقد عجز عن حل ألغازها العلماء الاخصائيون فى تاريخ الشعوب ، وانما أردت ان ألفت الانظار الى اننى لاحظت جماعات مختلفة من شعوب مختلفة ، قد تركت فىّ انطباعات خاصة .

وأهم ما لاحظته ، بين سكان هذه البلاد هو الفرقة اليزيدية ، الذين يعبدون الشيطان ، وهم جماعة يسكنون فى الشمال الغربى من العراق على هضاب الجبال المتفرعة من جبال سنجار . وهى مجموعة من الهضاب منعزلة عن العالم منقطعة المسالك ، وتقع الى الشمال من مدينة الموصل ، وهم جماعة من الناس ، يحملون نفسا طيبة وخلقا عاليا بالرغم من تسميتهم بهذا الاسم المخيف ، وهم يرغبون بالعيش مع الشيطان بأقدام ثابتة ، ولكنهم لا يجرأون ان يسموه باسمه . ويلقبونه الملك الطاووس ، ويتصورونه كذلك . وهو فى عقيدتهم ، ملك من الملائكة الطيبين ، فليس الشيطان فى زعمهم من الملائكة الذين غضب الله عليهم ، فأخرجهم من جنته . بل له القوة والسيطرة على العالم والناس أجمعين ، وهو مصدر قوى الخير والشر ، وهو مسالم اذا ما تجنب الناس اثارته أو شتمه ، أو تحقيره .

ان هذه العقيدة الغريبة ، لا يعرف عن مصدرها ومنشئها شىء يركن اليه ، ويحتمل ان تكون هذه العقيدة سورية المنشأ ، وان معتنقها وناشرها كان شخصا يحمل اسم شيخ « عدى » ولا يبعد ان يكون من المشعوذين السوريين كان قد عاش فى القرن التاسع أو العاشر الميلادى ، وأكثر اتباع

هذه العقيدة هم من الاكراد •

ويرى الانسان فى مدخل معبد اليزيدية ، صورة غامضة لمعانى متضاربة، وقد وضعت على حائط الباب على الجهة اليمنى ، بشكل ملتوى لا تكاد تبين ، وتبدو تعاليمهم ، انها خليط ، من الوجودية ، والروحية ومن مختلف العقائد الطبيعية البدائية • وتلعب دورا كبيرا فى تعاليم هذه الفرقة ، المظاهر الطبيعية كالشمس والقمر ، والشجر والمياه الجارية •

وكتابهم المقدس ، الذى يتألف من كتابين يحتفظ ببعض نسخه فى أماكن سرية ، مخفية ، وقد أتيح لبعض المنقبين الاثريين ان يحصل على مسودة من هذين الكتابين ، بواسطة شخص من اليزيدية كان قد اعتنق المسيحية •

ويعيش فى العراق جماعات من المسيحيين ، منبثين فى جميع انحائه ويغلب على الظن ، انهم ليسوا من شعب معلوم ، معين ، وانما هم أفراد متفرقون اعتنقوا الديانة المسيحية •

ويظهر ان فرقة النصارى النساطرة ، التى يعيش قسم كبير من أفرادها فى كردستان ، وايران ، تتألف من أفراد سبق ان اعتنقوا المذهب النسطورى ، وهو المذهب الذى كان أحد القساوسة الذى انفصل من كنيسة القسطنطينية ، فى القرن الخامس ، قد نشره ودعا اليه ، وتنص تعاليم هذا المذهب النسطورى ، ان السيدة مريم ليست أم الله وانما هى أم الشخص عيسى •

ونرى من بين سكان العراق ، فى شماله ، عددا كبيرا من معتنقى الكنيستين اليعاقبة والارمن ، وهم لا يزالون يحافظون على عقائدهم وتعاليم كنائسهم رغم ضغط الاسلام عليهم •

ونرى من الشعوب التى تلفت الانظار ، جماعات الآثوريين ، الذين أصابتهم محن ومصائب جمة ، واسم هؤلاء يذكرنا بتاريخ الملوك القدماء « سالامانسر » و « سايجون » ولم يعرف حتى الآن عما اذا كان هؤلاء الجماعات هم من نسل الآشوريين القدماء ، وهو الشعب القوى الذى عاش فى العصور الاولى .

ومهما يكن من أمر ، فانهم ينسبون أنفسهم الى هذا الشعب المحارب وهم فى هذه الاقلية المحدودة ، احتفظوا بصفاتهم الخاصة ، وهى التى تؤيد قولهم بانهم لا يمكن أن ينكروا دماءهم النقية . انهم يدينون بالديانة المسيحية وكانوا فى أول أمرهم يؤلفون قسما كبيرا من الجماعات المسيحية فى الشرق الاوسط .

وكان الاتراك قبل الحرب العالمية الاولى ، قد اضطهدوهم وارجعوهم الى جبال « هاكارى » . وهناك استطاعوا ان يندمجوا بمحيطهم الجبلى ، فاصبحوا رجالا جبليين أشداء ، كما يتطلبه محيطهم الجبلى الذى يعيشون فيه .

ولم تبتدىء الحرب العالمية الاولى ، حتى أنظموا الى حزب الحلفاء ليتخلصوا من حكم الاتراك وظلمهم ، كما انظم العرب والاكراد كذلك .

وكانوا جنودا شجعانا ، وأبلوا فى تلك الحروب الطاحنة بلاء حسنا ، فلفتوا أنظار الانكليز اليهم ، فاحتضنوهم بعد ان حطت الحرب أوزارها ، واستخدموهم فى فترة احتلالهم للعراق ، للقضاء على الثورة التى قام بها الاكراد فى الشمال .

وكان أملهم الوحيد ، ان يظفروا بوعد من الانكليز ، بان يتوسطوا لهم لدى جمعية الامم بان يمنحوهم مكانا حرا يحيون فيه ، غير ان الطعنات كانت

توجه اليهم من كل حدب وصوب ، فلم يتحقق لهم هذا الحلم اللذيذ وبقوا مقيمين فى محلاتهم التى استوطنوها ، ولكنهم ، وهم اثناء اقامتهم قد خاضوا معارك دامية ، أفقدتهم حيويتهم ، وكادت تودى بحياتهم اذ لم يكن أحد قد أقرهم على محل اقامتهم الذى استوطنوه •

وقد توجست الحكومة العراقية خيفة من تكتلهم هناك ، ورأت فيهم قوة مسلحة ، قد دربت تدريبا حديثا ، فلا يمكن ان يؤمن منهم ، وهم فى المناطق الكردية ، التى لم تهدأ فيها الثـــورات والقلاقل بعد اذ كانت هى الاخرى تطمح ان تنال استقلالها ، وهو ألذ احلامها اذ ذاك •

وغلى الحقد فى قلوب الآثوريين ثانية ، فارادوا ان يندفعـوا نحو الجنوب ، فخاضوا معركة تحت قيادة رؤسائهم وأمرائهم كلفتهم غاليا • اذ أضاعوا فى هذه المعركة الطاحنة عددا كبيرا من أحسن رجالهم وأثقفهم • فقد كان عدد نفوسهم فى جبال « هاكارى » تقدر بنحو سبعين الف مقاتل ولم يبق منهم اليوم أكثر من عشرين الفا • وهم يسكنون الآن فى أماكن معينة ، يقاسون فيها حرارة الجو وصعوبة الحياة وضنك العيش فى سهول الاراضى الجبلية الوعرة ، فى حين كانت أنظارهم مصوبة نحو الاراضى الجبلية المنبسطة فى شمال كردستان •

وقد صرح لى زعيم من زعمائهم ، على مضض منه ، بأن اليـوم الذى أعلنت فيه الثورة لنيل الاستقلال والحرية كان من أنحس الايام التى مرت على بنى قومه • وهو اذ قال ذلك ، كان قد يئس من وعود الانكليز وفقد الامل من مساعدتهم • وكذلك باءت بالفشل جميع الخطط التى وضعت لاسكان هؤلاء الآثوريين فى الاراضى السورية • فكـان مصيرهم ان ظلوا تائهين مشردين سنين عديدة •

ويظهر انهم ، في الايام الاخيرة ، قد استعادوا حيويتهم وتحسنت أحوالهم ، وقد استطعت ان أزور قراهم ، فرأيتهم ، كما أيد لي زعيمهم ، يعيشون مع الاكراد على أحسن حال من الامن والطمأنينة والصداقة ، وهم الآن يشتغلون بزراعة التنباك ويعدون من أمهر الفلاحين في زراعته ، يكدون في عملهم مترابطين متراصين ، ولما يزل يتقد الشعور في نفوسهم ، كما تلمسته من بين خفاياها فرأيتهم كالصقر المحبوس .

فقد ذكر لي رئيسهم ، وهو رجل مثقف ، يحسن التكلم باللغة الانكليزية بان عددهم أخذ يتناقص شيئا فشيئا ، وان وفيات الاطفال عندهم تتزايد بالرغم من المساعدات التي تسديها اليهم الجمعيات الخيرية ، والاصدقاء الاوفياء .

ونحن ، ان عدنا بذاكرتنا ، الى تاريخ هذا الشعب ، لتراءت لنا أشباح أسلافهم القدماء ، وهم الذين استطاعوا أن يقوضوا عروش البابليين الشاهقة ، ويحطموا حصونهم المنيعة ، التي أطنب التاريخ كثيرا في وصفها ، ويقهروا جيوشهم الجبارة ، وهي مسلحة ، باسلحة حداد ، ويجتازوا خنادقهم المحكمة ، ويحتلوا بلادهم .

هكذا كان أسلاف هذا الشعب الذي يعيش الآن على زراعة التنباك ، في الاراضي الجبلية الوعرة تصهره حرارة الشمس ، بين الزاب الكبير والزاب الصغير ، وهم حتى الآن لم يستطيعوا ان يجدوا وطنا لمستقبل أبنائهم .

وقد عاش في العراق منذ آلاف السنين جماعة من اليهود ، واستطاعوا ان ينبثوا في جميع انحائه ، حتى استطاعوا ان يسكنوا في مناطق بعيدة من كردستان فكانوا في السليمانية ، وحلبجة ، وداقوق ، ودهوك ، يزاول بعضهم الاعمال اليدوية ، ويشتغل البعض الاخر منهم باعة في الاسواق ،

وأكثرهم كان يمتهن صياغة الذهب والفضة •

واليهود في المدن الكبيرة ، يعدون من الطبقات التجارية التي لها الكلمة المسموعة في الاسواق التجارية • وقد كانوا في ربيع **١٩٥١** آخر من رحل عن العراق • والآن نرى ان كل عربي يشعر في أعماق نفسه ، ان تأسيس الدولة الاسرائيلية في قلب الوطن العربي ، شوكة أصابت عينيه ، وسهم نفذ الى صدره ، ولذلك فان كره العربي لليهود وحقده عليهم يغليان في قلبه ، وأولى بالانسان أن يتحاشى ذكر هذه المشكلة المعقدة أمام أي فرد عراقي •

وترى في مطار بغداد ، جماعات كبيرة من اليهود ، بينهم المرأة الحامل والعجوز والأطفال ، وكلهم ينتظرون بفارغ الصبر ، قدوم الطائرة ، التي تقلهم الى موطنهم الجديد • ويكفي أن تلقي بهم في أي مكان ، بعيد عن الحدود ، وهم في الوقت نفسه ، لا يعلمون عن مصيرهم شيئا •

• ٨ •

من صور البادية عبر الصحراء

لم يكن الحر ليطاق في الناصرية ، فما انحس جوها وما اوخمه !
لقد بتنا ليلتنا على سطح دائرة رئاسة البلدية ، بعد ان قضينا شطرا من الليل مع متصرف اللواء ، في الدعوة التي أقامها لنا على وليمة عشاء في نادي الموظفين ، اذ سمرنا هناك سويعات من العمر ، نلهو بلعبة « الحظ يانصيب » جذلين • وأتذكر جيدا ، بان هذه اللعبة كانت من اللعب المحببة الينا في أيام طفولتنا • ولم أكن أحلم ، ان سيسعفني الحظ ، فأعود ثانية ألعبها بعد أربعين سنة ، مع رفقة من العرب تحت سعف النخل •

وقد صحونا في الصباح المبكر من نومة عميقة ، على ذلك السطح المكشوف ، فرأينا الطيور ، قد اثقلتها رطوبة الجو ، فأفقدتها الحيوية والنظارة ، فاتخذت من أغصان « اليوكالبتوس » ، التي قد أظلتنا ، وكرا لها ، وبدت ألبسة نومنا ، وكأنها بقايا ما قد تم مضغه وهضمه ، ولاح لنا « عبد » ترجماننا النشط ، وقد طرزت جسمه قطرات رطوبة الجو ، فغدا وكأنه كلب من الكلاب السلافية الضخمة •

وقد كان علينا في هذا اليوم ، ان نتابع السفر الى البصرة ، فنقطع الصحراء عن طريق مفرق « اور » ، فالسفر بالطائرة يتطلب تحضيرات أولية • ومثل هذه السفرة عبر الصحراء لا يمكن ان تتم من غير ان تلاحقها

الاخطار . وقد لا يسلم الانسان من سوء المصير فيها ان تعطلت سيارته واسقط في يده . ومن حسن الحظ ، ان قد استخدمنا سيارتين ، في هذه السفرة ، واتفقنا على ان نكون في سيرنا بحيث لا تبتعد احدى السيارتين عن الاخرى بأكثر من مرمى العين ، وحملنا معنا الماء ، وجهزنا أنفسنا بكثير من اللحـــومات المعلبة والفواكه ، وقد احتطت ، لوعورة الطريق ، فاشتريت من الناصرية علبا من الحلويات ، من صنع أمستردام ، وكثيرا من المواد الغذائية الاخرى ، التي تكفي ان يقتات بها الفيلة والقرود في حديقة الحيوانات سنة كاملة .

وملأنا سيارتينا بوقود البانزين وبالماء ، وأخذنا معـــا بعض صفائح من البنزين للاحتياط ، وطلبنا من السائقين « عمر وحسن » ان يفحصا سيارتيهما ، وقد حملنا معنا البوصلة كذلك .

وكانت المرحلة الاولى من هذه السفرة هادئة ، لم يداخلها شيء من المزعجات حتى وصلنا مفرق « أور » ، فتركنا تلولها ، وسرنا في الطريق المؤدي الى البصرة ، وهو يقع الى شرقي « أور » ويحاذي خطوط السكك الحديدية ، فسلكناه متجهين الى الجنوب . وبدت الصحراء منبسطة ، كلوحة ملساء ، وهي في وسعها وامتداد آفاقها ، لا يكاد يبين فيها أثر لطريق أو سابلة ، ولم نر فيها غير آفاقها المتلاصقة ، وكانت أقل حركة تثيرها الرياح في أراضيها الرملية ، يتصاعد غبارها ، في أجوائها بما يزيد في ارتفاعه على هامة الانسان ، فيعكر عليه صفو الجو ، ويعتم صفاءه . وتتلاوح بين حين وآخر صور ينتحلها لنا خداع النظر ، فتتراءى لنا الاسماك ، وهي تسبح في بحيرات واســـعة الامتداد ، وليس في هذه الصحراء ، حقيقة ، سوى الشمس والرمـــل ، تلاعبهما الرياح الجافة بصفيرها ، فتتخذ من الرمال ، بين لحظة وأخرى

أكواما تصور لنا عواميد مرتفعة وقبابا عالية ، ثم لا تلبث ، ان تعبث بها من جديد ، فتعيدها سيرتها الاولى • وتبدو أكوام الرمال أحيانا كسيقان الاشجار التي عصفت بها رياح الخريف فجردتها من أوراقها ، وتبدو أحيانا أخرى كعواميد المداخن المشوقة ، وهي اذ تذريها الرياح ، يتصاعد غبارها الى أعالي الجو •

وتلوح لنا ، بعض المرات ، هياكل عظمية لجمال تفسخ لحمها ، ونرى في مواقع أخرى ، أكواما من الصخور على شكل قباب ، وقد غرست في قممها أعواد ، وهي تعني ان قد دفن في هذا المكان شخص مات هناك •

وبعد مسيرة ، استغرقت مسافة طويلة ، غابت عن انظارنا عواميد التلفون ، التي كانت تبان بموازاة السكة الحديدية • ولاحت لنا عن بعد ، باتجاه الجنوب ، غابة ، كان قد زرعها الانكليز ، مرة هناك ، لتكون محلا للراحة والاستجمام وسط هذه الصحراء القاحلة ، التي تتقد حرارتها ، غير اننا لم نشأ أن نجوب فيافي هذا الجنوب •

وكنا ، ونحن في مسيرنا ، قد رأينا انفسنا وقد انحرفت بنا السيارتان في سهول رملية منبسطة ، لا يكاد المرء يبصر شيئا فيها ، فبدا « عبد » قلقا مضطربا ، لا يقر له قرار ، اذ غشي على عينيه ، فلم يستطع أن يتحقق من رؤية السماء • والحقيقة ، اننا كنا نرزح تحت وطأة زوبعة رملية ، وكأنها البرد ، قد عصفت بها السماء • والزوابع الرملية في هذه المواقع من الصحراء ليست نادرة الوقوع •

وقد كانت السيدة « تومس » قد شهدت مثل هذه العواصف قبل بضعة أيام ، وهي تحلق بطائرة في طريقها الى قبرص ، فرشقتها نبال هذه الرياح الصفراء ، وهي رياح تزيد في علة من ابتلي بمرض ضيق الصدر •

وكان ذعر « عبد » وقلقه ، من زوبعة رملية عاصفة ظنها ان ستقضى علينا ، والحقيقة انها ليست كذلك ، ولو انها مشابهة لها فى عنفوانها ، فلم نر أنفسنا الا وقد التفت بنا ومن حولنا غيوم رملية سوداء كثيفة ، لم يألفها الاوربى ، بل ولم يكد يتصورها .

وقد يتحسس الانسان بالخطر أحيانا قبل ان يحدق به ، وفوجئت بهذا الشعور يستلكنى ، فصحت بالسائق عمر ، وأمرته أن يسير على مهل منه ، فما كان منه الا اصغى لرجع حديثى وامتثل الامر ، فكان فى تخفيف السير حسن طالعنا ، اذ لم نلبث ان رأينا أمام عربتنا هوة سحيقة ، سحبتنا اليها ، وبعد توانى معدودات رأينا أنفسنا ، وقد جلست عربتنا وسط وادى رملى عميق من وديان مراعى الجمال .

وقد كان من أغرب ما شاهدناه فى هذا الوادى ، اننا بينما تتراءى لنا أخيلة الجمال وهى منبثة هنا وهناك بين غيوم الرمال ، اذا بهـــا تغيب عن الانظار ، فلا تكاد تبين ولم نكد نستطيع ان نتحمل هجير الحر فى داخـل العربة ، وهى مسددة الشبابيك لذلك نزلنا منها ، وانتحينا مكانا ، اتخذنا فيه من العربة سدا نتقى به مهب الرياح ، منتظرين ان تنحسر الجمال عن طريقنا .

ولكن الحرارة التى لفحنا وهجها فى هذا الفضاء كانت تصلينا بنيرانها ، فتيبس حلاقيمنا . فكنا كمن يستجير بالرمضاء من نار . والزوابع فى الصحراء ، قد تستمر أحيانا زمنا طويلا . وبعد مدة شعرنا بما فعلته الاتربة والرمال بنا ، فالعرق الذى كان يتصبب من أجسامنا ، من وهج الشمس وحرارة الهواء تبخره السموم اللافحة ، بعد لحظات معدودات ، وقد التففنـا آخر الامر بمعاطفنا ، ووضعنا براقع رقيقة على أوجهنا ، لنتقى بها حرارة الجو ، ونحتفظ

برطوبة أجسامنا ، كيفما بدا منظرنا مضحكا .

وقد استغرقت العاصفة فترة طويلة من الزمن ، ثم ساد السكون . وغريب اننا لم نر في هذا الوادي أحدا من عرب البادية في حين ان لابد ان يكون في هذا المنخفض بعض منهم ، وقد ظن « عبد » بان من الضروري ان يكون بالقرب منا مضارب من خيم البدو . فبدا لي ان تنحرف في سيرنا نحو الشرق ، ولكن « عبد » عاد ، فقال ، ان مضارب العرب تحرسها الكلاب عادة ، وهي تدل الضال اليها في نباحها .

وبعد دقائق معدودات ، استطعنا ان نرى فيهـا آخر جمل من هذه الجمال المنبثة ، ينحسر عن الطريق فصممنا ان نتابع السير ، اذ قد انكشفت لنا الصحراء وبدت لناظرينا على امتدادها وهدأت الزوبعة بهذه السرعة كما كانت قد بدأت . وبعد مسيرة ربع ساعة تقريبا ، لاحظنا أمرا غريبا ، جلب انتباهنا وملك علينا انفسنا ، اذ شاهدنا على مقربة منا كومة من الرمال غامقة اللون تتحرك بحركة متموجة لا يبعد ان تكون جملا أو حجرا ، قد غطته الرمال فاتبع « عمر » هذه الظاهرة ، وسار نحوها ، يحدوه دافع الفضول وحب الاستطلاع ، وكانت مفاجأة غريبة ، عندما ظهر لنا ان هذه الكومـة السوداء ، كانت معزة ، تحتضن مولودا لها ، يبدو انها قد وضعتـه قبـل لحظات ، اذ لم يزل بعد نديا في طراوته ، والحقيقة انها ظاهرة غريبة ، ان تجد في هذا المكان المنعزل معزة تركن بين هذه الرمال وحيدة ، ولكنها لا يبعد ان تكون قد انفصلت عن قطيع من الماشية ، بعد ان احست بثقل جنينها .

وقد حيرنا مصير هاتين المعزتين ، ترى ماذا نستطيع ان نقوم به من أمرهما . فلا يجمل بنا ان نحملهما ونحن ندخل أسواق المدينة . فسـألنا

« عبد » عما اذا كان أحد الاعراب ، وهم كثر فى هذا الوادى لا محالة ، قد اضاع من قطيع اغنامه هاتين المعزتين ، فهز لنا رأسه وكتفه .

وبينا نحن نتداول فى الحديث مجتمعين ، اذ لاح لنا فى الافق البعيد خيال شخص ، يبدو انه قد توجه نحونا ، ثم اكتشفنا الامر فاذا به انسان سوى يقصدنا ، وقد تحققنا بنظارتنا ، فاذا به بدوى من الرعاة يبدو عليه الحيرة والقلق ، كمن افتقد شيأها له ، انفصلت عن قطيعه . وكانت أسارير وجهه تتضاحك بشرا ، وعليها امارات الصراحه والوضوح ، واقترب منا هذا البدوى الراعى بكل هدوء واطمئنان ، وحيانا بتحية حارة ، وهى « السلام عليكم » ويده التى كان لا يلوح بها ، توضح قصده ومسالمته . فقص علينا ، انه قد ترك شاته هنا ، بعد ان ثقلت بحملها . ومنذ ان رأت الشاة صاحبها ، حامت بنفسها هنا وهناك ، تبحث عن قطيعها لتنظم اليه ، وسرعان ما اهتدت الى طريقها ، من غير جهد كبير ، أما وليدها ، فلم يكن ليقوى على تحمل اتعاب الطريق ، ولذلك كان يتطلب من يحمله ويوصله الى امه . وكان هذا البدوى، بعد أن أروى ضمأه بقدح من الماء ، قدمناه اليه ، مع بضع سجارات ، أخذ هذا الحمل معه ، وحيانا وذهب فى طريقه ، وكانت آخر تحية له ان رفع عصاه ، يلوح بها أن وداعا ايها الاخوة ، وهى عصاة ، يرجع تاريخها الى ما يزيد على آلاف السنين فكانت صورة هذا الراعى ، وهو يحتضن الحمل ، وتتبعه امه من بعده قد أعادت فى ذاكرتنا صورة ما أرادت التوراة ان تحاكيه من لوحات هذه الطبيعة الجميلة .

ثم تابعنا السير متجهين الى الجنوب الغربى فبدت لنا الصحراء بمظهر يختلف عن مظاهرها الاول ، وتراءت لنا ، هنا وهناك خضرة من النباتات الصحراوية ، قد نبتت على بعض التلول ، وشهدنا فى بعضها ثمرة صحراوية

بدت لنا كروية الشكل ، متناثرة تكاد تضيع بين الرمال .

وقد كنا قد حططنا رحلنا ، الى ربوة مغطاة بحسك السعدان ، قد عفرتها أتربة الصحراء ورمالها ، وبينا نحن نهم بالجلوس ، اذا بسرب من الطيور يقفز طائرا من بين ظلال هذا الحسك المعفر ، وقد ظننت انها من الطيور النادرة ، التي تحل ضيوفا على أعشاب هولاندة ، فهي شبيهة بالطيور التي ترتاد العشب ، وقد لا يبعد ان تكون قد احتضنت بيضها في هذا الوادي المعشب .

أخذت أشعة الشمس تميل الى الغروب ، بعد ان كانت عمودية ، غير ان وهجها لما يزل بعد ، يلفح وجوهنا ، فأردنا ان نأكل غذائنا في أي محل من البادية ، وقد وقع اختيارنا على مكان ، حوى كثيرا من عظام الجمال ، كانت تتلامع عليها أشعة الشمس وكان السيد « توم » قد تناول من هذه العظام عمودا فقريا وقدمه لجماعته ، يدعوهم للجلوس عليه ، ولكننا فضلنا الجلوس الى فيء عربتنا ، اذ لم نجد في هذه السفرة فيئا أكثر ظلا منه . فكنا نصب الزبدة ، التي ذوبتها الحرارة ، على الجبن ، ثم نخلطهما باللحم ، ونأكل هذا الخليط العجيب .

ورأينا اننا نبعد عن سكة الحديد الممتدة الى البصرة ، مسافة اثنى عشر كيلو مترا تقريبا الى الشمال من محل استراحتنا ، وهو جزء من السهول التي تفتقر الى المياه في جنوب العراق . والبدو الذين ينبثون بين هذه السهول الواسعة ، يتجولون يبحثون عن الماء مسافات بعيدة ، قد تطول بهم أحيانا يوما كاملا .

وتابعنا السير ، بعد ان رفعت هذه السفرة من الطعام ، فلاحت لناظرنا خيم كثيرة ، قد انتشرت في البادية ، بعيدة عن طريقنا الصحراوي الذي نسلكه

فى سيرنا ، ولاح لنا كذلك أفراد من عرب البادية ، يجتازون الطريق ، وقد رأيت ان الشمس أخذت تميل باشعتها نحو الغرب وآذنت حرارتها بالخفوت ، فشعرت بنشوة الانتصار على صعاب البادية ، واختلج فى نفسى ان ننحدر بسيارتنا الى بعض تلك الخيم العربية ، فنزورها فى طريقنا • ولم يعارض « عبد » هذه الفكرة ، اذ رأى هو الاخر ، ان هؤلاء البدو سيرحبون بنا فى مثل هذه الزيارة القصيرة ، فعرجنا عليهم ، بعد ان انحرفنا عن الطريق ، واخترقنا الصحراء ، ولم يطل بنا الزمن حتى وصلنا مطارح الخيام ، واتجهنا اليها • فوقفنا برهة على بعـــد ما لا يزيد عن مائتى متر منهـــا ، حسب ما أشار به « عبد » اذ لابد ان تعطى الفرصة للنساء ان يجمعن شملهن ، قبل ان يفاجأن بزيارة الضيوف •

وفى هذه الفترة استقبلنا الكلاب بالترحاب عن بعد ونحن لا نزال واقفين ننتظر الاذن بالدخول وما اسرع ما أحاط بنا عشرة كلاب ضخمـــة طويلة الشعر مفتولة العضلات ، فطوقونا ، وكاد نباحهم يصم آذاننا ، وظهر لنا فى الخيمة بعض الاعراب يتخطون فيها واحدا أثر الاخر • ثم اتجهوا يتهادون في مشيتهم نحونا • وكان رئيس هذه الجماعة قد وقف بعيدا عن عربتنا ، وبدأ يتكلم مع « عبد » ولم يلبث ان أمر أفراده ان يبعدوا الكلاب عنا ، فنزلنا من السيارة وسرنا بقيادة هذا الشيخ الى احدى تلك الخيم • وبلمح من البصر ، اعد لنا كل ما يكفل راحتنا ، ثم رفع رحلا من أرحل الجمال بيد واحدة ووضعه الى ظهرى استند عليه ، وفرش سجادة مطرزة أجلس عليها ، وعند ذلك اتيح لى ان اتربع فى جلسة مريحة من غـــير ان يلمح الشيخ حذائى ، وقد كان ذلك هو الوضع المناسب ، الذى يجب ان يسلكه الانسان فى مثل هذه المجتمعات واستطعت ان اتحدث معه ، بواسطة

ترجماننا ، احاديث متنوعة تناولت الشياه ، والمياه والزرع .

وما هي الا لحظات ، واذا برائحة القهوة تعط ، فتعبق الجو في الخيمة ، ودلال القهوة عادة ضامرة المخزم ، لها مصب ضيق ممشوق ، تدار منه قهوة مزة مروقة مركزة ، وكان مضيفنا يدير هذه القهوة في قدحين صغيرين وهما ما كانا في حيازة الشيخ ، فشربنا ما قدم لنا منها ، بجرع صغيرة متقطعة ، اطفأنا بها ظمأنا .

والحقيقة ان الانسان قد تبقى في نفسه ذكرى أكلات ممتعة كثيرة يستعيد طعمها كل ما ذكرها ، ومن هذه الاكلات ، تلك الغدوة التي أعدت لنا على بحيرة « سالزبرك » اذ تمتعت هناك لاول مرة في حياتي ، بأكلة من السمك ، كان شكله غامق اللون صغير الحجم . وهي أكلة لم أحلم ان أذوقها بعد . ومنها أكلة صينية خالصة لا ازال استطعمها في مدينة « سوروبابا » في جاوة ، واضيف الى ذكرى تلك الاكلات الممتعة ، متعة هذه القهوة المزة ، التي لن أنسى انني شربتها في ١٥ ابريل من سنة ١٩٥١ في احدى مضارب البدو ، غليت في دلة من الصفر الاحمر ، على نار هادئة .

وبدا لنا ، ان قد أنس الشيخ وأفراده بنا ، واستطابوا مكثنا بينهم ، فقال لنا الشيخ وهو يتحدث الينا ، انه لم يكن يعلم شيئا عن هذه الزيارة القصيرة التي تشرف بمعرفتنا فيها . وهو لو علم بها ، لقام لنا بما يناسب مركزنا ولاستقبلنا بما هو جدير بنا ، ولاستحضر لنا كل ما يليق بنا وسيكون له ولافراد قبيلته شرف السبق ، ان نحن لبينا طلبه ، واستمتعنا معه بغدوة عشاء عربية . فاعتذر لنا « عبد » منه بعبارات تستوجبها التقاليد والعادات العربية ، وشكره على دعوته وحسن ضيافته .

وكانت الشمس قد مالت الى الافول ، حينما قمنا نستودع الشيخ

الوداع الاخير • لقد كانت هذه هي المرة الاولى ، التي اتيح لي فيها ان أكون ضيفا مكرما تحت خيمة عربية ، اطارح العرب جذلا احاديث ممتعة أخاذة وستبقى في نفسي هذه الانطباعات ، وذكرياتها ، فلن أنسى ، جمال أطفال البادية ، وصفاء نفوسهم ، وانطلاق أفئدتهم ، ورحابة صدورهم واستعدادهم للعون والمساعدة ، وروحهم العالية في اكرام ضيفهم ونفوسهم الفرحة ، ووجوههم المستبشرة •

واني لاعتقد جازما بان العرب هم أجمل خلق الناس على وجه الارض فأوجههم النظرة النحيفة ، وأنوفهم العالية المحدودبة ، وعيونهم الحادة ، الغامقة المشبعة بالثقة والرضا ، تعلوها جباه عالية ناصعة ، وأفواههم التي انطبع عليها حلو الحديث ، وزينها كرم النفس ، انها وايم الحق صفات من آيات الله في خلقه ، لا يمكن ان يدانيها مخلوق على الارض •

ويرى « عبد » ان نساء البدو ، اللاتي يقطن في البادية من العراق والكويت يمثلن أجمل ما في هذا الشعب من خلق وخلق ولكنني لم استطع أن أراهن أو ان استمتع بحديثهن •

ونحن نرى في أراضي ما بين النهرين ، بقايا شعوب قديمة كثيرة اختلطت بالعرب والفرس وغيرهم ، ولكننا لم نجد من بينهم من قد حباه الله بجمال الخلق ، ودماثة الخلق ، وصفاء النفس ، مثل ما اتسم بـه أعراب البادية ، الذين هم قد حافظوا على نقاوة دمهم •

وهؤلاء الذين نراهم فطس الانوف كروي الجماجم ، غليظي الشفاه ينحدرون ، في الغالب من اصل زنجي ، ونرى كذلك ، ان سكان البطاح ، تميل أشكالهم وسحناتهم الى انهم من مزيج شعوب مختلفة •

وبعد قليل وصلنا البصرة ، وقـد أفلت الشمس ، وكنا قد سـمعنا

عن مدينة البصرة ، بان هجيرها ووخامتها ، جعلاها أحر مدينة على وجه الارض ، وقد كان فندق شط العرب الذى يقع فى المطار المدنى ، أحسن نزل تتوفر فيه الراحة والهدوء وطراوة الجو ، فنزلنا فيه ، وهناك حف بنا أعضاء جمعية التمور العراقية ، واستقبلونا بحرارة ، وبالغوا فى اكرامنا ، وهؤلاء يمثلون تجار التمور الذين بيدهم أهم أمور تصدير التمور فى جميع هذه المنطقة ، انهم تجار مهرة ، قد حذقوا فن التجارة ، وجابوا انحاء العالم فعرفوا كيف يستميلون الناس اليهم ، ويستهوونهم لبضائعهم .

« ٩ »

فى فجر التاريخ

انني اذ أقف أمام هذه الآثار التاريخية ، التى كشفت عنها الحفريات وتحلت بها المتاحف الاثرية ، أشعر بالحيف يتملكنى اذ لم أعرف من تاريخ بلاد ما بين النهرين الا النزر اليسير . هذا التاريخ الذى يعكس لنا صورا صادقة ترتسم فيها الحياة الانسانية منذ مهدها لم يدع شـاردة ولا واردة من صور الحياة البشرية الا ورسمها على لوحاته الفنية ، وسيبقى منارا يهتدى بهديه علماء الآثار والمنقبين فى توسيع بحوثهم العلميـة وهى التى تتنـاول آلاف السنين من الزمن ، فينيرون لنا الفترات الزمنية التى قطعها العالم فى مراحل مدنيته ، تلك المدنية التى تبتدىء بالعصر الحجرى ، فتمتد الى حين صلب المسيح ، والتى تتجلى صورها فى لوحات حمورابى ، وتسمع أوتار نغماتها فى خرائب أور ، وتقرأ آياتها فى مكتبات البابليين الطينية ، التى خطتها يد البشرية أيام « سارداناپال » .

لقد نظرت الى العالم الهولندى وهو غارق بعمله بين خرائب مدينة نمرود القائمة فى ضواحى الموصل ، فكانت نظرة تطاير منها شرر من العجب ، فلم يقو على ان يفيض على اللسان بغير السكون والبهتة .

فقد كان هذا العالم الهولندى ، مشغولا بتنظيم تلول منثرة من الخزف المنقوش قد أحاطت به ، وهى التى استخرجت من الحفريات الحديثة فى قصر

أحد الملوك . وكان يصف هذه الاخزاف والجرار والاواني ، ويرتبها حسب مراتبها التاريخية فهنا يضع ما يختص منها بالتاريخ القديم ، وهناك ما يخص البابليين المتأخرين وعن يمينه ما يختص بالآشوريين وهكذا .

وكان بعض الفلاحين يعملون ، على مهل ، في ازالة الاتربة عن قبة ظهرت في الحفريات ، فكانوا يستعملون قطعا من القحوف المفخورة ، ليكشفوا فيها عن مطبخ أحد الملوك ، في حين كان البعض الاخر يشتغل بتنظيف ما قد عثر عليه من الآثار بدقة ومهارة . وكانوا يعثرون في حفرياتهم أحيانا على عظام لبعض الحيوانات . ولا يبعد ان تكون هذه القبة التي تجري الحفريات فيها هي قصر الملك . فقد ظهرت شوارع المدينة مبتدئة منه في امتداداتها ، وهي تخترق المدينة في اتجاهاتها المعينة وهندستها البديعة . وقد عثروا على باب المدينة أيضا .

كانت هذه المدينة المطمورة في سبات عميق طيلة آلاف من السنين ، وها هي اليوم قد استيقظت ، تمسح عن أعينها النعاس ، ونهضت تستعرض ثانية لشمس ما بين النهرين وهوائها . ويجري البحث في هذه المكتشفات الاثرية عن تاريخها ، فتصنف حسب أزمانها ، ويقرأ الباحث بين ثناياها ، ويقارن بينها ليهتدي الى ما استطاعت اليد البشرية ان تفعله في عصورها الاولى .

ولقد تحسست بمثل هذا الشعور ، وانا أقطع الصحراء في طريقي الى البصرة ، فبدت لناظري تلك التلول الشامخة ، التي كلكلت برمالها على مدينة أور الكلدانية فغطت معابدها الشاهقة ، التي كانت تضم بين جدرانها ، في غابر الايام جماعات من الناس ، يرتلون فيها آيات الحمد لله ، ظهر من بينهم سيدنا « ابراهيم » فارتحل منها الى مدينة « حران » ، وهي تقع في أعالي

الفرات ، أو ما نسميه اليوم ما بين النهرين • ونحن لا نزال نقرأ فى التوراة ، بان هجرة الاب الاول وأمرائه كانت فى المواقع التى تعنى اليوم الاراضى الممتدة من الفرات الى الحدود المصرية ، ونرى اليوم « أور الكلدانية » تربض فى قلب الصحراء ، وكانت قبـــلا تضم كهان الشـــرق وحكمائهم ، وكان فيها شعب من أذكى الشعوب وأثقفها ، وفيها ازدهرت العلوم الفلكية التى لا تزال محط أنظار العالم • وها هى الان تكشف لنا عن حيطان قصورها فترفع عن نفسها ما تراكم عليها من رمال الصحارى والسهول ، فتبدوا لنا فى عظمتها وكامل زينتها •

ويحل فى هذه الربوع الاثرية السكون والهدوء فى شهر مارت ، لان السواح يرتادونها ، فى الاكثر ، بعد هذا الموسم من الســـنة ، فلــم نجد فيها غير جماعة من البحارة الامريكيين ، تائهين بين هذه الخرائب • وكان يبدو على ابناء الغرب الحديث ، الاهتمام الزائد فى البحث عن جرة لها عروتان ، فقد يجد الانسان بين هذه الخرائب والحفريات ، بعض الاحيان مثل هذه الاشياء • ولم يكن لى ولع باقتناء أى شىء من هذه الجرار الاثرية ، أو تلك اللوحات الطينية ، ولو انى كنت أقلب بعضها أحيانا ، فلم يغرنى منها شىء ، فأتركها برفقة الاحجار المنتثرة هناك ، ولتبق مطروحة على الرمال أبد الدهر •

ترى ، ماذا تخفى هذه الخرائب بين طياتها من حوادث الدهر وعظائم الايام ؟ لقد استطاع الانسان اليوم ان يكتشف فيها كثيرا من الاسرار التى سجلتها البشرية فى تاريخها تحت الرمال • ففى سنة ٩٢٧ وفق الاســـتاذ « وودلى Woodyl » ان يكتشف قبر الملك المشهور « أبارجى "Abargi" و « ژوباد Sjubad » وعثر فيه على كنـــوز فخمـــة من الذهب ، وهى

معروضة الآن في متحف بغداد ، تثير في النفس الدهشة والاعجاب ، وتحوي هذه الكنوز خناجر ثمينة ورؤوسا ذهبية تمثل الحيوانات الضخمة ، ومنها الاسود ، وهي معروضة لمن يريد أن يراها ، وترى الى جانبها تيجان من الاوراد الذهبية تبدو انها من صنع الفتيات الشابات ، اللاتي كن يتبعن الملك في أفياء الظلال . وقد اكتشفت قبورهم أيضا .

وتتضارب الآن الآراء بين علماء الآثار حول تقديم القرابين وذبحها ، فقد وجدت مطروحة بصفوفها بعضها الى جانب البعض الاخر . ولم يعرف اتجاه المذبح ، اذ شوهدت فيه مداخل كثيرة .

ويرى « وودلي Woodly » ان هذه القرابين كانت تخدر ببعض العقاقير قبل ان تساق الى المذبح المظلم .

ومن الحقائق التاريخية القديمة المعروفة ، ان علماء التاريخ القديم كانوا قد اكتشفوا في أماكن معينة في أراضي ما بين النهرين طبقات رملية ملونة ، قد فقدت قابلياتها الانتاجية ، وجدوها تحت طبقات أرضية يمتد تاريخها الى العصور الاولى ، وقد استدل منها ، ان هذه الطبقات الرملية ، هي بقايا فيضانات كانت قد طغت على هذه البلاد فغمرتها .

وقد عثر المنقبون أخيرا في مدينة « كيش » الاثرية ، الواقعة الى شرقي الحلة ، على مثل هذه الطبقات الرملية الملونة ، ووجدوا فيها أحجارا زرقاء ، تحمل طابع الاحجار الثمينة وقد نقشت عليها كتابات ، يظن انها يرجع تاريخها الى خمسة آلاف سنة . أي انه يعود الى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد تقريبا .

ان هذه الطبقات الرملية التي عثر عليها تحت اطلال تلك الخرائب الاثرية تميل بنا الى الجزم ، بأن هذه البقعة من الارض ، كانت تغمرها المياه

زمنا طويلا • وقد اكتشف البحاثة المشهور ، السير « هنري لايرد » Sir Henry Layard في سنة ١٨٥٠ ، صحائف من المسلات الطينية في خرائب نمرود ، قد سجلت فيها الاسس التاريخية للبابليين ، وهي جزء من الابيات الشعرية التي كانت تصف حياة الملك واعماله ، في عهد سلالة « اوروك » ، وقد كانت هذه الابيات الشعرية ، هي الاناشيد الوطنية التي يتغنون بها • ولم يعرف تاريخ هذه المسلات بعد • والذي يظنه المؤرخون ان تاريخها يتجاوز الخمسة آلاف سنة • وتنص هذه القطعة الشعرية ، ان الملك « كلكامش » ملك « أوروك » كان قد سمع باحداث الفيضان ، من فم المعمر الكبير ، « اوتا نايستيم » وهو « نوح » الذي ذكره العهد القديم ، والقصة هنا تبحث عن طغيان الفيضانات ، ويلاحظ شبه كبير بينها وبين ما قصته التوراة في هذا الشأن • وهذه القصة لا شك تبحث عن مثل تلك الحوادث ، ثم تتناول القصة قطعة أخرى ، وهي ولم يسمح « اوتا پيستيم » الى طيور الحمام والغربان ان يطيروا ، واستثنى منها عصفورا واحدا •

والحقيقة ان هذه المعلومات التاريخية عن تلك المواقع ، التي كشفت عنها الحفريات الاثرية تحت طبقات الارض التي حدث فيها الفيضان ، لها اهمية تاريخية قيمة •

ولقد عثر في مدينة « كيش » المعروفة ، على بعض الاحجار تحت طبقات الاراضي التي اجتاحتها الفيضانات ، فدلت على انها من الاحجار التي يرجع عهدها الى اقدم العصور التاريخية • وقد وجدت بين هذه الطبقات التي اكتشفت اخيرا وبين التي اكتشفت قبلها مواد اثرية كثيرة القت ضوءا على حضارة قديمة قامت في ربوع البلاد •

ويرى « پيكة Peake » فى كتابه (الفيضان The Flood) المطبوع سنة ١٩٣٠ ان هذا الفيضان الذى حدث قبل أربعة آلاف سنة الى اربعة آلاف ومائتين وخمسين سنة قبل المسيح ، قد اعقبه فيضان آخر بعد ٦٠٠ سنة تقريبا . وعلماء التاريخ كما لا يخفى يتحرزون كثيرا فيما يبحثون عنه فى غياهب هذا التاريخ القديم . وقد يكون مما سر هؤلاء الباحثين وأفرح نفوسهم، ان الورق لم يكن يعرفه الاولون ، فلم يكتبوا تاريخهم عليه ، مما اضطر علماؤهم ومؤرخوهم ، ان يكتبوا تاريخ بلادهم وأعمال آلهتهم على أنواع مختلفة من الاحجار ، التى لا تمحى الكتابة فيها ، فكانت من هذه الاحجار التى حملت كل ما نعموا به من حضارة قديمة فى تلك العهود الغابرة ، مكتبات عامرة ، طمرتها الرمال بين طياتها زمنا ، حتى عثر عليها المنقبون أخيرا .

ففى المسلات الطينية المعروفة ، وهى مسلات الملك السابع للسلالة البابلية « حمورابى » الذى كان قد عاصر سيدنا ابراهيم ، نرى انها تحوى أكثر من ثلاثة آلاف سطر ، بالكتابة المسمارية ، وهى القوانين البابلية ، التى قد شرعت فى ذلك العهد ، وقد كانت هذه المصادر التاريخية من بعض نتاج جهود مضنية بذلها المنقبون فى حفرياتهم وكرسوا حياتهم لقراءتها وحل الغازها .

لقد كان حمورابى ، البابلى ، من أقوى الشخصيات ، التى لمعت من بين الجماعات التى كانت تسكن وسط العراق ، وقد كان الشخصية المتنفذة بين قومه ، وقد استطاع هذا الملك النابغة ان يسيطر على شمال العراق أيضا ويضمه الى مملكته ، بعد ان دمر السلالة السومرية وأفناها عن آخرها .

والحقيقة ان الباحث يجب ان يكون حذرا فى تحديد تاريخ السلالة

الملكية ، والبت فى بدئها وانتهائها • والمؤرخون اليوم لا يزالون يختلفون فيما بينهم اختلافا بينا فى هذا الشأن • فقد تندفع جماعات الشعوب المتجاورة ، اذا ما أحست بنفسها القوة ، فتغير على شعوب أخرى أنست منها الضعف فتقضى عليها • وهذا ما يشوش على المؤرخين بحوثهم ، فتتضارب آراؤهم •

فالسلالة السومرية ، التى قد ضاع نسبها ومنشؤها فى مزيج من الآلهة والبشر ، قد استمر حكمها الى الفى سنة قبل الميلاد ، اما الاشوريون الذين حكموا فى شمال السومريين ، فقد استطاعوا ان يكونوا حكومة قوية قبل الميلاد بنحو الف ومائتين سنة • وقد عرف من ملوكها ، بين القرن التاسع والسابع قبل الميلاد ، الملك : « آشور ناسيريال » و « سلماناصر » الخامس و « تيكلاپيليزر » الثالث و « سارجون » الثانى وولده « سنحاريب » وهو الذى خرب بابل واستولى على بلاد ما بين النهرين ، وبقيت الحكومة الآشورية قوية على عهد ملوكها العظماء ، وشهدت آخر ايام انحلالها فى سنة ستماية قبل الميلاد ، حتى قضى عليها الميديون ، بعد غاراتهم على عاصمتهم « نينوى » فخربوا آخر أثر من عروشها •

ثم شهدت بلاد ما بين النهرين فترة أخرى ، ازدهرت فيها الحضارة على عهد البابليين الذين عرفوا فى التاريخ باسم البابليين المحدثين "Neo Babylonier" وكان أشهر ملوكهم الملك « نبو ختنصر » • وكانت الحكومة الاشورية التى اتعبتها غارات الميديين ، قد استولى عليها آخر الامر سكان الجنوب ، وهم الذين يعرفون بالسلالة البحرية ، وقد كانت هذه السلالة من الملوك ، قد أقامت دولة قوية على ساحل الخليج الفارسى ، وحافظت على استقلالها ، ولم تشتبك بحرب مع حمورابى الملك البابلى • واستمرت على حكمها ما يزيد على الف سنة ، فلعبت دورا هاما فى تمزيق شمل بلاد ما بين

النهرين • وقد كانت الحكومة البابلية المحدثة قد عاشت ثلاثة أرباع القرن ، تتمتع بمجدها واستقلالها ، حتى ظهر على عهد الملك « نابونيدس » وولده ، والضابط « بلسازار » تلك الحركة الثورية فاندلعت فيها شرارة خرابها على عهد النبي « دانيال » فأفل نجمها وتحطم مجدها • ثم استولى « كيروش » الفارسي عليها في سنة ٥٩٣ قبل الميلاد •

وتكاد تكون هذه الفترة من حكم الآشوريين والبابليين ، من الفترات التي شهدت فيها بلاد ما بين النهرين حروبا جمة وغارات عديدة ، فكافحت كفاحا مريرا ، في حروب طاحنة مع شعوب متعددة ومختلفة • ومن الشعوب التي اشتركت في هذه الحروب ، المصريون ، والاراميون والحيثيون والكلدانيون ، والكنعانيون وغير هؤلاء من الشعوب الاخرى •

لقد كانت فضاعة هذه الحروب بين الشعبين المتخاصمين ، لم تعرف لها حدود وقد كان الآشوريون خاصة ، اينما وضعوا ارجلهم ، جدبت تلك الارض ، فلم ينبت فيها عشب أو شجرة • فقد كان الاسرى يقتلون في أغلب الاحيان بأنواع كثيرة من التعذيب الذي يستمر مددا طويلة ، والتمثيل بالقتلى أمر تتطلبه حروبهم ، فقد ينتزعون جلود خصومهم ، وهم أحياء ، وقد يضرمون في اجسامهم النار ، فيحترقون شيئا فشيئا • ولهم أسلوب خاص بقتل الملوك والامراء المغلوبين ، اذ تصدح الموسيقى حينما يؤتى بالملك أو الامير أو القائد ، للتعذيب ، فتقلع عيناه أولا ثم يضرب أمام الجمهور بالسياط حتى يموت ، وقد كان الآشوريون ، هم أول من ابتدأ بهذه الاساليب في تعذيب أسرى الحرب ، وأول من استعملها ، الملك « آشور ناصربال » الثاني •

وكان ملوكهم يفتخرون بهذه الفضاعة ، ويسرهم ان يوصفوا بانهم من أقسى من فى بلاد ما بين النهرين من الناس وأفضعهم قتلا وتمثيلا بالاسرى •

وكان احد ملوكهم « سرجون الثانى » قد شتت شمل الشعوب الذين كانوا يجاورونه على امتداد حدود بلاده ، فاستطاع ان يسيطر على هؤلاء المغلوبين ويضمهم الى دولته • فكان منه ان نفى السامريين الى بلاد السومريين فى الموقع المسمى « كازان » Gazan وكان نصيب الحيثيين ان أخرجهم من وطنهم فى البلاد الجبلية وأسكنهم فى سورية ، وكذلك كان شأن الكلدانيين فقد جاء بهم من بلادهم فى الجنوب وطوح بهم الى سورية •

وبعد مضى قرن من الزمن على انتصاراته ، قام بنفس العملية مع اليهود فى ارض فلسطين فقهرهم ، وأخذ منهم الجزية • وقد قضى هذا الملك « سرجون » على آخر أثر من آثار الحضارة ، التى ازدهرت فى هذه البلاد ، وأطاح بمجد تلك الدول التى ساهمت كثيرا فى حضارة ما بين النهرين ، وحطم جميع المدن التى عرفت فى التاريخ ، فدمر نينوى ، وبابل ، ونمرود وأور الكلدانية ، وكيش ، وسومر ، فجعلها يبابا تذريه الرياح ، واصبحت صحارى تعبث بها الرمال •

وبذلك صدق قول الانبياء ، وتحققت حكمتهم ، اذ انذروا وحذروا فى مواعظهم وارشاداتهم ، فقالوا « بان بابل ، التى هى الآن شريان الملوك البابليين ، سيؤول أمرها الى الخراب والدمار » •

وها نحن اليوم نشاهد بابل ، وقد باءت بغضب من الله ، وبقيت خرائبها مليئة بآثارها تحدثنا عن مصيرها ومآلها • فتتراءى لنا من بين أطلالها ، مهشمة ، مبعثرة ، تصهرها الشمس وتلفح جباهها سموم الرياح • وقد غطت الرمال شوارعها ، وأزقتها ، فلا تكاد تبين •

واختفت البقية الباقية من آثار مجدها وعظمتها ، فى متاحف برلين ، ولندن ، وباريس ، وبغداد ، ولم يبق غير أسد بابل يقاسى الوحدة فى الصحراء ، وهو لا يزال رابضا فى تلك الخرائب النائية يحرس أشلاء اجداث الاعداء الذين قوضوا مجد بلاده ، تحيط به من حواليه تلك الصخور الصلبة ، التى نحت منها هيكله ، وسيبقى آلاف السنين ، رابضا فى مكانه يعظ الناس ، ويدعوهم لعمل الخير .

انها لصورة أخاذة ، تطبع فى النفس ذكريات خالدة ، وتثير فيها قوى خفية من الشعور بعظائم الدهر وعظاته ، انها لصورة ترتسم فيها هذه الاحجار الصلدة ، فتلهب النفس حماسة وقوة حتى لتكاد تقطع على الانسان انفاسه .

انك لتستعرض فى هذه الخرائب الرابضة فى قلب الصحراء ، آيات من روائع الفن الخالدة . فحيثما وجد الفنان بين مخلفات أعمال هذه الشعوب ، استوحى منها الفكر والمثل ، واستخدم فيها الصورة والشكل لفنه وابداعه .

انها تمثل لنا ، فى الحقيقة ، الفن الحديث والفن القديم الذى يطلق عليه اليوم « الكلاسيك Klasisch » . انها لقطع تعبر عن ما جال فى قلب « شكسبير » ، وما جاشت به نفس « ريمبرانت » .

لقد أبدع هؤلاء الكلدانيون فى فن الرسم والنحت ، ولابد ان يكون قد نشأ بينهم فنانون ماهرون ، استطاعوا ان يرسموا هذه اللوحات الفنية الخالدة ، التى صورت حياة « نبوختنصر » ملك الدولة البابلية الحديثة ، واختاروا لها من الالوان ما لا تستطيع الايام ان تمحو منه شيئا .

وهكذا بقيت تغط هذه الخرائب فى سبات عميق ، وتحلم بما مر عليها من عوادى السنين فجعلها يبابا ، يرقد بعضها تحت أشعة الشمس ، ويحتمى بعضها الاخر برمال الصحراء أو بنباتاتها العشبية .

ولم يقو على عوادي الزمن ، من بين تلك المدن العظيمة ، غير مدينة واحدة ، استطاعت ان تصمد للحوادث والايام ، فشهدت خمسين قرنا من تاريخ البشرية • انها مدينة «أربيل» ، التي ذكرتها التوراة باسم « اربا ـ ايلا » ، وهي المدينة القديمة التي تشمخ بأسوارها ، كالاسد الرابض ، فوق قاعدة من الارض ، تبلغ ثلاثين مترا في ارتفاعها وسط سهول مترامية الاطراف •

وتقع مواقعها المنيعة ، وقلاعها المكتضة ، على مرتفعات التلول ، وهي في الحقيقة ليست سوى قبور اسلاف سكانها ، أو كما ذهب اليه المؤرخون اليوم ، بانها مواقع ستراتيجية ، اتخذها السكان منارا في الحروب ، يكتشفون بها حركات العدو ليأخذوا حذرهم من تدافع الجيوش وحركاتهم • وتكاد تكون جميع المدن العراقية القديمة تحتمي من غارت العدو بمثل هذه المرتفعات من التلول • فهي ، في الحقيقة ، ليست مدنا قديمة طمرتها الارض في زمن من الازمان ، وانما هي مواقع ستراتيجية اتخذت للوقاية والاحتماء ، كما يذهب اليه اليوم معظم المؤرخين •

والحقيقة انا لم نر مدينة أو قصرا أو جبلا ، استطاع ان يصمد خمسين قرنا من الزمن ، مثلما صمدت « أربيل » • وتراها الان رابضة في مكانها طيلة هذه القرون الطويلة التي مرت عليها ، كما هو شأنها منذ نشأتها • انها لترى الان بحيطانها التي يبلغ عرضها عدة امتار ، وبمداخلها المظلمة التي لم تجد الشمس اليها سبيلا • وبقى هذا شأنها من غير ان تمس بشيء من التغيير أو التبديل • بينما يمتد التطور والتعمير ويتسع في أربيل الحديثة ، التي تنحدر تحتها في السهول • وتبدو أزقتها ضيقة متعرجة ، لا يكاد يهتدي المرء فيها ، بل وقد يتيه بين التواءاتها ومنعطفاتها •

لقد كانت هذه المدينة الاثرية تتمتع بمركز ديني مقدس ، قبل زمن

الآشوريين اتخذته الدول سلاحا اتقت بـه غارات العـدوان الخارجي ، فحافظت بذلك على كيانها حتى اليوم • فهي أقدم من تلك المدن الآشورية المحيطة بها مثل نينوى ونمرود • ولعل أسوار هذه المدينة هي التي خيمت على معابد آلهة السومريين ، فحجبتها عن أعين الاعداء المهاجمين • وقد عثر المنقبون على كثير من الاثريات في حفرياتهم الاخيرة في ما يحيط هـــذه المدينة ، يرجع عهدها الى فجر تاريخ البشرية •

وتستقي هذه المدينة مياهها من آبار عميقة ، حفرت في داخلها ، ولذلك فان الارواء فيها لم تصل اليه عوادي الايام ، ولم يتعرض الى الشـحة أو الانقطاع ، كما هو شأن جاراتها من المدن الواقعة الى جنوبها وقد احتمى في هذه المدينة الحصينة الملك « داريوسس » ملك فارس بعد انكسـاراته امام الكسندر الخامس • ALEXANDER THE GREAT

ويغلب على الظن ان السلطان صلاح الدين ، الذي شن الحملات في الحروب الصليبية ، كان قد نشأ في هذه المدينة • ولعلها قد خرجت أكثر الابطال الفاتحين ، الذين دكوا الحصون في حروبهم وغزواتهم • حتى ان المغول أنفسهم لم يستطيعوا ان يمسوها بسوء ، وهم الذين اشتهروا في هذه الحقبة من الزمن بانهم لم يتركوا مدينة في بلاد ما بين النهرين الا وجعلوا عاليها سافلها من غير ان يستندوا الى شيء يبرر ما يفعلون •

وهذه أربيل اليوم تتربع على عرش هذه العواميد العالية من التلول ، وقد أشاد سكانها مبانيهم عليها ، وبقوا فيهـا آمنين • ورقد في سـفوحها آلاف الأجيال من الناس •

« ١٠ »

نحو الشرق

لم استطع الآن أن اتخيل الطريق الذى سلكناه فى رحلتنا الى بعقوبة ، فلم يبق فى ذاكرتى شيء منه ، سوى اننى أتذكر ان الجو فيه كان حارا جدا ، ولعل هذه الحرارة كانت قد نشأت من تبليط الطريق بالاسفلت . وبدت لنا أراضى بعقوبه المحيطة بها على نسق واحد فى شكلها ومنظرها ، وكأنها قد غطيت بأفرشة وثيرة أعدت للنوم ، بينما ظهرت المدينة نفسها بحلتها القشيبة ، وكأنها لوحة فنية خطتها ريشة الرسام .

وترى أزقتها وقنواتها مظللة بأشجار « اليوكاليبتوس » تلاعب أوراقها الرياح فتتجاوب اصداء حفيفها بنغمات تسحر القلوب . وتضرب بمناقيرها طربا كل زوجين اثنين من اللقالق فى أعالى السطوح هنا وهناك . وتتلامع جوامعها القديمة ، فتعكس اضواءها الزرقاء على البيوت الطينية ، وتبدو لضخامتها وكأنها مخيمة بأجنحتها عليها . وتكتض بساتينها الممتدة بين بعقوبة ونهرها العريض ، فترى قطعة خضراء غامقة ، وتتلامع من بين أوراقها ثمرتها الغزيرة .

والحق ان بعقوبة يمكن ان تعد من أجمل قرى العراق ، فهى تبدو ضاحكة مستبشرة منشرحة الصدر . انها لتعيد فى ذاكرتى صورة من صور الجنان المفرحة . واعتقد اننى لم استذوق ، بعد الآن ، طعما للبرتقال مثل

ما استذوقته فی بعقوبة ، ولم أجد متعة تهواها النفس مثل متعة قطف الاثمار ، وهی يانعة فی أغصانها ، تحتفظ بعصيرها الذی يكاد يبان من وراء قشرها •

كانت جلستنا على الارض المنبسطة تحت ظلال النخيل ، قد اشعرتنا براحة النفس وصفاء البال ، فانطرحنا نقضی فيها قيلولتنا بعد غدوة الظهيرة ، وكانت أشجار البرتقال والليمون تشاركنا بالتفیء بظلال النخيل ، وبعد هنيهة أخذتنا اغفاءة ، ثم أعقبها سنة نوم عميق ، سرحنا فيها باحلام لذيذة ، وكان ابرز ما فيها صورة هذا الثمر الناضج الذی تتكسر على اغصانه أشعة الشمس •

لقد بتنا ليلة واحدة فی بعقوبة ، واضطررنا ان نفارقها فی الصباح الباكر ، لنتابع سفرتنا • وقد أردنا ان نتوجه الى خانقين ، التی تقع الى الشمال الشرقی منها ، أو الى مندلی الواقعة الى الشرق منها ، على الحدود الايرانية ، ثم بدا لنا ، ان الطريق الى مندلی قد قطعته مياه الفيضان اذ ذاك، فصممنا ان نتابع السفر نحو الشمال الشرقی •

وقد حدث لنا ، ونحن فی الطريق بين بعقوبة وخانقين ، ان شهدنا حادثة مفجعة ، أثارت فی نفوسنا الالم ، وهيجت فيها كوامن من الآسى فلم نكن نحن الاوربيين لنحتمل رؤية مثل هذا المشهد الاليم • فقد مرت سيارة ايرانية كبيرة تحمل زوارا ايرانيين ، وهی فی طريقها الى خانقين ، وكانت قد سبقتنا بسرعة فائقة ،كما لو كان القدر يلاحق ركابها ليقذف بهم الى حيث حتفهم ، ولم نلبث ، بعد عشرة دقائق تقريبا ان رأينا فی الطريق ، جمعا من الناس ، يطوقون السيارة نفسها ، وعندما اقتربنا منهم ، سمعنا نياحا وعويلا ، كاد يملأ الجو ، ويصم الآذان ، وشهدنا جثة شاب يافع ملقاة على الطريق ، وقد التف حولها جمع من النسوة ، بينهم زوجة هذا الشاب القتيل وأمه ،

يؤبن فقيدهن على الطريقة الشرقية ، وكان الالم والحزن قد ملكا عليهن شعورهن ، فغدون يمزقن ثيابهن ، ويلطمن صدورهن بمجمع ايديهن ، ويعفرن خدودهن بالتراب ، ثم ينثرنه على شعورهن بينما كان البعض منهن ، قد نشرن جدائلهن على أوجههن ، فلم يبن ، من محياهن ، غير بريق أعينهن ، يتلامع من بين الشعور .

والحق ، انهن ظهرن بحالة من التهيج والهستريا ، تعبران عما ألمّ بهن من حزن وألم . وبعد برهة ، تهادى بعض من النسوة ، وقد أقبلن من الحقول ، ليواسين أخواتهن عزاءهن ، فارتمين بأنفسهن ، على هذا الجمع المحتشد من النسوة ، وهن يصرخن ، ويعولن ، وقد اضعن رشدهن فلم يحفلن حتى بستر اجسامهن .

لقد كان منظرا يستلفت أنظار كل من عرف عن المرأة العربية بانها مثال المرأة المنكمشة ، المنطوية على نفسها ، المرأة التي لا يرى منها ، غير شبح من وراء حجالها .

وقد كانت هذه السيارة الايرانية قد تابعت سفرها وتركت ضحيتها ، على الارض تتخبط بدمائها ، وكأن لم يكن شيء . فأشار علينا رجل مسن من الاعراب ، يدل مظهره ، على انه الاب المفجوع بابنه وهو بعد لم يفقد رشده ، وطلب الينا ، ان نحمله الى مركز الشرطة ، الذي يقع على مسافة محطة واحدة . ليتمكن هناك ، ان يخابر مخفر الحدود ، تلفونيا ليلقى القبض على هذا السائق الايراني الذي تسبب في قتل ابنه .

ومعابر الحدود ، في شرق العراق قليلة ، فما ان يصل الخبر اليها ، حتى يكون موظفوها ، كالطيور الكاسرة ، وقد حلقت ، تبحث عن فريستها ، لتنقض عليها . ثم أخذ هذا الاعرابي يتحلم بقيم التعويضات التي يجب أن تدفع

الى عائلة هذا القتيل ، وتسلق سيارة « الجيب » ، بخفـة ، وجلس خلف السائق عمر ، وقبل ان تتحرك بنا السيارة حانت منا التفاتة ، فرأينا النسوة اللاتي قد فجعن بالمصاب حيرى ، يحمن في طريق المارة ، كمـــا يحـــوم الباعة المتجولون ، وقد كن يعددن ثلاثين امرأة ، وتبعهن من جميع انحاء الطريق كثير من النســـاء الاخريات ، جئن يشاركهـن مصابهن ، ويبدو ان وقوع هذا الحادث كان قريبا من القرى المنبثة حول الطريق .

وجلس هذا الاعرابي في المقعد الاخير من الســيارة ، وهو مطـرق برأسه ، يحاور نفسه بتمتمة ، لا يكاد يسمع لها غير صوت الانين والتأوهات على فجيعته بابنه . وعاد السائق عمر ، يشرح لي ثانية بلهجته الانكليزية المضحكة ، كيفية حدوث هذه الفاجعة ، ثم أخذ يسرد لي قصصا عن مبلغ التعويضات التي لابد ان تدفع الى رب العائلة ، وعن العقـوبة التي يرتئيهـا ان تنزل بهذا الايراني الاثيم من غير ان يجد نهاية لحديثه .

ولقد أجهدت نفسي أول الامر ، عساني أجد مخفرا للشرطة ، وانا في طريقي ، والمخافر في العراق يرفرف فوقها العلم العراقي ، فيهتدي الضال اليها ، أو ان أرى أفرادا من الشرطة الخيالة ، وهم الذين يقفون دوما ، أمام المخافر وقد الهاني عمر بأحاديثه عن مأتم النسوة ، الذي سيقام في مساء هذا اليوم ، وعن ما سيقال فيه من الشعر في تأبين فقيدهن . وما سيبدينه من آلامهن فيه ، فسيدمين أجسامهن بأيديهن ، وعن أمور أخرى كثيرة .

ولم يلبث « عمر » ان تحرك حركة غريبة ، والعربي يحب الحركة دوما ، فأدار ظهره ومد يده نحو السماء ، وأسر الى ذلك الرجل الاعرابي بشيء في نفسه .

وقد كنا اذ ذاك ، قد قطعنا مسافة ، تجاوزنا فيها مركزين من مراكز

الشرطة ، وقاربنا ان نصل الى المركز الثالث ، الذي يبعد سبعين كيلومترا عن محل وقوع الحادث ، وهناك طلب منا هذا الاعرابي ان تنزله من السيارة ، من غير ان يودعنا بكلمة ، تشعرنا ، بارتياحه منا ، وقد كان من « عمر » ، ان اجاب على سؤالي عن هذه الظاهرة ، جوابا بارعا ، اذ قال ، ان اعجاب هذا الاعرابي بالسفر بالسيارة أنساه ان يقول كلمة الوداع • وقد سمعنا ، بعدئذ ، ونحن في خانقين ، بان قد القى القبض على السيارة الايرانية ، وعوقب سائقها •

وكانت مدينة خانقين ، قد تركت في نفسي ذكريات طيبة ، لا يمحى أثرها ، فهي مدينة مفرحة ، تزينها خضرة اكتضاض النخيل في كل حدب وصوب • والعراق يعد اليوم من أهم المراكز لتصدير التمور في العالم ، اذ تبلغ التمور العراقية التي تصدر الى انحاء العالم سبعين بالماية من مجموع تمور بلاد الدنيا • وتعد مدينة البصرة ، مركزا مهما لتصدير التمور الى جميع أنحاء البلاد المستوردة •

ويلاحظ في تربية النخيل في العراق ، ان التلقيح يلعب دورا كبيرا في نوعية التمور وانتاجها • فالنخيل فيها الذكر والانثى ويستطيع العربي ان يميز بينهما بكل سهولة ، في حين كنت ، ولما أزل ، لم أفقه من علاماتها الفارقة ، بينما يميز صغار أولاد الفلاحين بين الجنسين منها من غير تكلف ولا تعب • ويكون تلقيح النخيل عادة حين ايناع الاشجار ، فيتسلق الفلاح الماهر على النخلة ، يساعده حبل يسند به ظهره من جهة ويربط بجذع النخلة من الجهة الثانية ، فيحركه الى الاعلى في كل حركة من حركات تسلقه • وهو يحمل معه طلع اللقاح الذي اقتطفه من فحل النخيل ، حتى اذا ما وافى أعالي النخلة شد طلعها بحزمة من طلع الفحل • وبعد هذه العملية من اللقاح تثمر النخلة وتؤتي أكلها •

ويعد التمر فى الشرق الاوسط عامة مادة حيوية لغذاء الشعب • فالبدو الذين يرحلون بمواشيهم ، حيث الكلأ والمرعى يعيشون على التمر واللبن طيلة أيام السنة ولا يأكلون من اللحم الا قليلا •

وتكاد تكون مدن العراق جميعها مرتعا استأثرت به الكلاب واللقالق والغربان وغيرها من الحيوانات الاخرى • وكل بلدة تحمل طابعا خاصة بهذه الاثرة • ومع ذلك ، فقد ترى بعض القرى ، وهى تدعو الزائر للراحة والاستجمام اذ تبدو هادئة وقت المساء متحررة من كل ضوضاء • ومن هذه القرى خانقين • وفى هذه القرية تنبعث أصوات المؤذنين من الجوامع يدعون الناس للصلاة • ومما يلفت النظر ان المؤذن هنا لا يستعمل مكبرات الصوت فى أذانه • وفيها تسمع ضربات مطرقة الصفارين المتقطعة فتعكر صفو السكون والهدوء • وفيها يركن العربى الى الراحة والسكينة ، فيجلس منبسط النفس ، يحتسى القهوة ويقرقر بنرجيلته ، وان هو رأى أمرءا غريبا بادره بالتحية المألوفة ، وهى « السلام عليكم » مع انحناءه ، هى دليل الرضا والاطمئنان •

وترى الجواميس راكدة فى مياه الانهر ، تسبح فى أحلامها فتمثل صورة لهدوء هذا البلد ، الذى يزيد فى نشاط الانسان وحيويته •

وكانت ضوضاء المدينة وجلبتها ، بعيدة عنا ، ولحسن الحظ لم نكن لنسمع لها أثرا ، فلم نشعر بحركة المرور ، ولم يزعجنا ضجيج الباعة ولم يعكر صفونا شيء من مظاهر تزاحم البشرية أو انينها ، فكل ما يحيط بنا كان يجلب لنا الراحة والطمأنينة ، وهما من نعم الله وعطاياه الثمينة •

وقد كانت الاحلام تداعب مخيلتنا فى ان نتابع سفرتنا من خانقين باتجاه الشمال الى حلبجة ، وهى المدينة التى تقع فى سفوح جبال كردستان ، غير

انا لم نستطع ان نحقق هذا الحلم ، لان الطريق الذى يوصل اليها لم يكن يكمل بعد ، لاسباب ستراتيجية ، كما يقول المترجم « عبد » فاضطررنا ان نعود عبر بعقوبة الى بغداد •

فكان يبان ، على جوانب الطريق ، سهول صخرية مرة وأراضى ترابية اخرى ولم نر غير مناظر صحراوية قاحلة ، وكانت تبدو ، بين حين وآخر ، هنا وهناك ، بعض خيم البدو ، منتشرة فى هذه الصحراء ، تضم عوائل تنعم بوحدتها وعزلتها •

وقد أوقفنا فى منتصف الطريق ، طفلان من الرعاة ، وطلبا الينا ان نسعفهما بالماء ، والماء فى هذه الصحارى الموحشة ، أغلى السوائل وأثمنها ، وهو لهذين الطفلين اللذين أعياهما العطش ، ضرورة من ضرورات حياتهم ، فهما مع قطيع ماشيتهم لا يبلغونه الا بعد أن يقطعوا مسافات طويلة أخرى •

وكنا نحتفظ ، على الدوام ، باناء نختزن فيه الماء خلف السيارة ، وكان منظر هذين الطفلين ، يثير فى النفس الشعور بالغبطة والفرح فقد كان أحدهما ، مثلا رائعا للجمال العربى ، وكان وهو يحتسى الماء حذرا كل الحذر ، من ان تضيع منه قطرة واحدة •

ويعبر البدوى عن شكره وامتنانه ، فى حالة مساعدته فى الصحراء ، بكلمة « الله يعينكم » وعاد الطفلان ، يجريان خلف كليهما يحدوهما الامل ، ان يبلغا مضرب خيمتهم قبل ان تميل الشمس الى الافول ، ولا يضيرهما حتى اذا داهمها الظلام ، فالعربى يهتدى بهدى نجم السماء ، فى طريقه كاهتداء ربان السفينة ببوصلته •

وقد سألت « عبد » لم لا يحتلب هذان الطفلان احدى النعاج فيرويان

ظمأهما بالحليب ، فهز رأسه وقال ، ان الحليب الدسم الذى تدره النعاج لا يعوض عن الماء ولا يروى الظمآن ، والنعاج فى هذه الاراضى القاحلة لا تدر الا القليل من الحليب وهى ظاهرة يلحظها النسوة عندما يحتلبنها فى المساء • وحرص الطفلان ان يحملا معهما ما يسدان به حاجتهما ، وقد اوصاهما ابوهما بان يقتصدا فى الماء ما امكنهما •

والحق ان البادية كما شهدتها وخبرت أهلها ، تبعث فى النفس الحيوية والنشاط ، وتزيد الجسم قوة وصلابة ، فنشأ العربى فيها عزيز النفس شجاعا قوى الارادة • وقد يستحيل ان يرى فيها بشر أقعده الكسل أو فت فى عضده الخمول • وقد كان النبى « محمد » قدوة لعرب البادية فى سد الحاجة الى الماء بوسائل كثيرة ، حتى أجاز ان يستعاض عنه بالتراب اذا ما تعذر الحصول عليه •

وأردنا ، وقد أدركنا الليل ، ان نبيت ليلتنا فى بعقوبة ، فى دار السيد رشيد التى أعدها للضيوف • وهو الذى قد سعد بزوجة لبنانية كريمة ، ثم تابع السفر الى بغداد فى صباح الغد الباكر • فاستقبلتنا سيدة البيت بكثير من الترحاب ، وقدمت لنا طعام العشاء ، فأكلنا ومرحنا • وحانت منى التفاتة ، فرأيت السيدة تتهادى نحو الغرفة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة عبرت عن الرضا والتواضع ، ووضعت على المنضدة علبة من لفاف التبغ الهولندى ، فلهوت بتدخينها الى ما بعد منتصف الليل ، استمتع بهذه السجاير التى لم أكن انتظرها ، واصغى الى حفيف الاشجار ، واستوحى الوجد والهيام من نوح الحمام ، الذى سهر هو الآخر ، فى أعالى النخيل ، ولما يجد فى وحدته طعما للراحة والهناء •

« ١١ »

ليلة في العمارة

كانت سيارتنا ، ونحن لما نزل بعد في طلائع المدينة ، تلتف طي غيوم كثيفة من الاتربة والغبار ، وما كدنا نعبر الجسر الممتدة على نهر دجلة ، حتى شعرنا بعجلات سيارتنا تغوص في الاسـفلت الذي فرش على أرض الشارع •

وكان في استقبالنا ثلاثة من السادة ، يرفلون بلباس أوربي أنيق ، وقفوا ينتظرون قدومنا •فحيونا ، وجرى التعارف فيما بيننـــا • وقد بدا لنـا ان أحدهم هو الذي سيقوم بضيافتنا • وكنت اتمنى من أعماق قلبي ، الا يتكلف الرجل ضيافة هذا الجمع الغفير والا يتحمل اعباءه • وقد يكون من نكران الجميل ان استبق الحوادث فاتسرع بحكم جائر • فقد كانت رقة شعوره وكرم وفادته تعكسان لنا شخصية مضيافة ، قد لا تدانيها ضيافة العربي في بيتـه •

وماذا يستطيع ان يفعله هذا العربي المضياف ؟ وها هو قصره لم يزل بعد في آخر أحياء المدينة ، يخيم عليه الاهمال وتضـج به الفـوضى وتعط من بين جنباته رائحة جبنة ، قارب مرور الزمن ان يفسخها ، وتشم فيه رائحة لحمة مقلية • وكنت واثقا بان هذا الرجل لم يكن له أي أثر في تنظيم طرق المدينة ومنعرجاتها الممتدة على منبسط من الارض في الهواء الطلق •

أما فراش النوم الذي كان قد هيىء لنا ، فقد بدا مبعثرا لم تنتظمه

يد انسان قط • وكانت شبكة حديد الأسرة رخوة متقلطحة ، لم تنهض بحملي فقد انهكت هذا الجسم الذي يزن ماية كيلو واتعبته فغدا مثقلا باعبائها •

وابتدرتني السيد « توم » يقول ، وكأنه المتأكد مما يقول ، لعلك لم تنزع ثيابك بعد ! أولى بك ان تتمهل قليلا ، فاحسب ان ذكرى ذلك الجمل تعاودك الآن ، حينما جاء محملا بأكياس محشوة بالتبن ، وقد ركبته السيدة الامريكية وهي تحمل باحدى يديها قدحا من عصير الليمون ، ، فبدت أكياس التبن ثقيلة لم يستطع الجمل حملها ، فانعم عليه برفعها عن ظهره ! وعاد يهزل فقال ، اظنك الآن كيسا من أكياس ذلك التبن ، يصلح لهذا الفراش ! ثم قفز وصاح فرحا ، حينما رآني مشغولا بتخليص نفسي من معقلي الحديدي الذي كان قد خصص لراحتي في منامي •

وأسرع مضيفنا ، فاستقدم رجاله وحشمه ، فكانوا اثنين ، احدهما رجل طاعن في السن كان مزكوما والاخر صبي قد عبثت الاوساخ بنظارة وجهه • وأسرع الاثنان يجددان فراشنا •

واستدعانا مضيفنا الى المائدة بلهجة كلها رقة ولطف ، وقد أجهد نفسه لان يهيىء لنا كلما سمحت به امكانياته • ولن يجمل بالضيف ان يلقي في اسماع مضيفيه ، انه كان ينتظر منه ان يجد بين قشرة البيضة مادة بيضاء مطبوخة مهما كان نوعها ، بدل ان يجد سائلا لزجا يتقاطر سيله من بين اصابع اليد على اللباس • ويبدو ان العرب يأكلون البيض من غير أن يسلقوه • ومهما يكن من أمر ، فقد انتظرنا مضيفنا حتى رأيناه يحتسي البيضة تلو الاخرى أمامنا ، فحاولت ان أقلده في هذا الاحتساء •

ولم تكن أوامر مضيفنا التي كان يوعز بها الى خدمه واضحة ، بحيث تفي بمرامه • فقد جاءنا الرجل العجوز بارغفة فطيرة من الخبز ملفوفة

بمنديل ، يبدو عليه ان قد غسل بالماء والصابون ، وبين طياتها ما يشم منه رائحة أكلة سمينة • وقد حاول هذا العجوز ان يضع دجاجاته المقلية فى صحن ، كان أصغر من ان يتسع لها • وبعد ان حشرها فى هذا الصحن الصغير ، تناول بكلتا يديه الوسختين فخذى دجاجتين ، ليحل بذلك مشكلة ضيق الصحن الصغير بها • وكانت خمس دجاجات مقليات أخريات قد وضعت في طاسة متوسطة الحجم ، بعيدة عن متناول اليد • وبدا اذ ذاك على مضيفنا الانزعاج ، فقام والجد يعلو ملامحه ، وأخذ دجاجتين ، وقطعهما قطعا ، ووزعها على صحوننا وأوعز الى خادمه العجوز ان يبعد هو والفخذان اللذان كان يلوح بهما فى يديه ، ليكون خلا من هذا الواجب الذى أرهقه ، فمنعه من ان يلهو بأنفه المزكوم الذى كان يتقاطر رشحه على لحيته •

ولاح لنا هذا العجوز بعد فترة وجيزة ، يحمل بيديه القهوة ليقدمها للضيوف • وكان يبدو وكأن أنفه الضخم قد علق بالمنضدة ، تعلو فوقه أشباح صور مبعثرة تنبىء عن مدى ما تأثر به جسمه من نزلته الصدرية • فكان منظرا استرعى كل انتباهنا وتعلقت عيوننا تحدق به • ولم ندر أية كأس من كؤوس قهوته سيكون من نصيبنا • ولكننا تركناها ملقاة على السفرة من غير ان نمسسها بأذى ، حتى اضطر مضيفنا ان يدفعه عنا ، والحق انى استطيع ان أقول ، ان قد بدت سورة الغضب على اسارير وجهه ، فلم تبق فيه عضلة الا وانقبضت •

وعند ذلك ، انتفض « توم » وقال ، بلغته الافرنسية ، « الحرب هى الحرب » وتمتم « جون » هو الآخر فقال « عليك ان تتجرع الدواء المر حتى آخر قطرة منه » •

وقد تكون حالنا مرضية ، لو انها اقتصرت على هذا القدر من الراحة

وطيب المقام ، ولكن « توم » لم يرضه ، الا ان طلب من مضيفنا ان يرينا ما في ليالى العمارة ، من متع ونوادر ، فقال له ، لعلك اطلعتنا على الفتيـات الراقصات على ضوء القمر ، بل وندعوك الى ان تمتعنا بكل ما هو جميل فى هذه المدينة الشرقية .

فكانت جولتنا الليلية ، قد ابتدأت بزيارة بناية النادى ، وهى بناية ، لا استطيع ان أقول عنها أكثر من انها لا تصلح ان تستخدم لبنى الانسان ، وقد شربنا فيها كأسا من البيرة الحارة ، ألهبت احشاءنا ، فأخذتنا اغفاءة قصيرة كانت تتطارحنا واحدا بعد الآخر . ونهض السيد « توم » وعاد يطالب مضيفنا ، ان يرينا ليلة من ليالى الشرق الحمراء ، بل وهو يشير بملامح وجهه ، انه يريد ان يرى الفتيات الجميلات يرقصن عاريات ، رقصات شرقية ، تتمثل فيها التواءات أجسامهن وزحفهن على أرض المعبد . فأجاب مضيفنا على هذه الطلبات بعبارات ، يشم منها المبالغة والبلف اذ قال : سنذهب الى احدى دور اللهو فى الساعة العاشرة وسنرى هناك كل ما يمتع النفس ويسر الخاطر . ثم انبرى رئيس البلدة بعد برهة ، والحف فى طلبه ، ان يرافقنا الى احدى دور اللهو فى بلدته ، لنحظى برؤية رقصات « جوزفينا » .

ولك ان تتصور ايها القارىء الكريم ، ما تملكنى اذ ذاك من دوافع الشوق ، وحب الاستطلاع ، بعد ان استمع من رئيس بلدية العمارة مثل هذا الطلب . وقد تساءلت فى نفسى ، ترى اين يقع حى اللهو والفن ؟ وليس فى العمارة غير شارع رئيسى مبلط واحد ، ليس فيه من العمران ما يلفت الانظار ، وشوارع فرعية هنا وهناك تعافها النفس ، من أوساخها وقاذوراتها ، ثم ينتهى المطاف بسوق طويلة مظلمة ، كانت قد عدمت فيها الحركة منـذ أن أفلت الشمس للغروب .

وجاء مضيفنا في الساعة العاشرة وقد غشيه النعـاس ، فلـم يقو على احتماله . وأخذنا الى بناية الملهى الموعود ، وكنا قد فوجئنا ، ونحن نتهادى الى مدخلـــه بأنوار متلألئة ، أزالت عنا كابوس الظلام الذي رافقنـــا في الشارع .

ولم يكن الانطباع الاول ، عن هذا الملهى مغريا ، فقد احتوتنا غرفة كبيرة عارية ، قد فرش قاعها بأحجار مبعثرة ، وظهر فيها خمسة عواميـد مطلية بالجص الابيض ، غطتها طبقة من الاتربة والاوساخ ورأينا على الحائط المقابل للمدخل ، مسرحا مفتوحا يضم الفرقة الموسيقية ، وهي تتألف من ثلاثة من الموسيقاريين يلاعب احدهما أوتار الكمنجة ، ويضرب الآخر على الطبلة ويرتل الثالث بمزماره . وكان جمع من الرواد العرب يجلســـون على كراسي حديدية حول هذا المسرح ، يدور فيما بينهم بعض السيدات اللواتي يقمن على ما يظهر ، بخدمات الترفيه عن النفس واشعارها باللذة والسرور ، وقد كان على أي الاحوال منظرا ، لم نكن ننتظر ان نرى مثله في هـــذه البلدة . وقد اخترنا لنا مجلسا بالقرب من المسرح ، فجلسنا بجمعنا وانبرى مضيفنا يجود علينا بما طاب من المشروبات الروحية ، وبعد برهة قصـــيرة حضر أمامنا العرق والبيرة والويسكي . ولم يكف مضيفنا ، ان يقتصر على اكرام ضيوفه الغرباء بهذا القدر من الجود ، فطلب من متصفنا ، ان تظهر على المسرح سيدة خصها بالاسم ، فتطربنا بغنائها ، وتلهب عواطفنا برقصاتها وقد كانت هذه السيدة ، قد قدمت من بغداد حديثا ، وهي لا شك تجيد الرقص والغناء ، ثم أخذ يقص علينا شيئا من سيرتها ، فقال كمن هو متأكد مما يقول ، تسانده أسارير وجهه وتقلصات عضلاته ، ان هذه السيدة تجيد الغناء ، ولا تبدع في الرقص » ، فكان لقوله انطباع مؤثر في نفسي . ثم

ملأ الاقداح وصب فى قدحه عرقا ، مزجه بعد ذلك بكمية من البيرة حتى بدا كدر اللون • ثم احتسى من قدحه جرعة ، وأدار كرسيه نحو المسرح ، وتوجه بكل جوارحه ، ليستمع ويرى ما يسر النفس ، ويريح الاعصاب • وبدا وكأنه أمرؤ قد أعد لنفسه فى هذه اللحظة الذ متع الحياة وأنفسها ، ولم تطل مدة الانتظار ، حتى بدت السيدة المغنية الراقصة ، وكانت ترتدى فستانا شفافا أخضر اللون ، طرز بخيوط من الشعر ، قد ضاق به جسمها ، وبدت بهذه الحلة القشيبة تحمل نفسها وهى تريد ان تسلق على خشبة المسرح وبعد الجهد ، استطاعت ان تنهض بجسمها الذى يتجاوز وزنه المائة والعشرين كيلو ، فصعدت وكأنها السفينة قد حملتها أشرعتها فرست بها على حافة المسرح ، وبدت تتهادى فى مشيتها وكأنها الملكة بليلة زفافها ، وابتدأت تداعب صاحب المزمار بنكاتها فى حين أدارت ظهرها على الجلاس ، وسمحت له وحده ان يعجب بزينتها ، ويتمثل مفاتن جسمها • وهذا ما سبق لها ان اعتادت عليه ، كلما مثلت أمام الجمهور •

وفجأة رفع المزمر مزماره حتى دانى شفتيه ، واذا به يصوت بهذا المزمار اصواتا عالية ، لا تغير بنبراتها كادت تصم آذننا ، حتى اذا ما خفت دويها ، استمع الانسان فى داخل الهو وقع أرجل الفيران ، وهى تعود لاجحارها • وكان يقف على باب الملهى ، حمار لاحد الرواد ، راح هو الاخر فزعا من أصوات المزمار ، فنهق بأعلى صوته يعلن احتجاجه على ما داخله من الرعب فى هدوء هذا الليل البهيم • واستمر فى نهيقه ، حتى انتهت القطعة الموسيقية ، فانتهى معها • وحينذاك بدت صاحبة الفستان تتحرك على حافة المسرح ، وابتدأت بالغناء ، أو بالاحرى ضغطت الفتاة على بطنها ، وصاحت بصوت لم تنقطع انفاسه ، وكأنها البلبل الغريد ، فكانت بهذا الصوت

الذى كان يلعلع على وتيرة واحدة ، قد أرعبت نفوس اولئك الهنود الحمر ، الذين يعيشون فى أول مستعمرة امريكية ، فأيقظهم من نومهم فزعين . وظل يلعلع هذا الصوت حتى انقطعت أنفاسها ثم عادت الكرة ثانية ، بعد ان رأت ، ان أغنيتها قد اطاحت بالجمهور ، فغدوا يتمايلون من نشوتهم بها ، ولكنها فى هذه المرة ، قد غيرت النبرة ، واندفعت فجأة تردد صوتها بنبرات متدافعه سريعة تمثل لوحة من الغناء العربى . وقد كان « عبد » قد أعجب بهذا الفصل من الغناء . ولعل آذان الغربيين لم تكن تستسيغ مثل هـــذه الاصـوات . ولا يبعد ان تكون أصوات الاحرف الموسيقية عند العرب غيرها عند الاوربيين التى تمثل بالاحرف « دو ، رى ، مى ، فا ، صول » ، فبدت هذه النغمات التى جادت بها الفنانة ، من نوع الموسيقى الحديثة ، حيث يتدرب الهواة دوما على سماع نغماتها التى لم يألفوها بعد .

وتمايلت السيدة المغنية قليلا وهى تغرد بألحانها ، واندفعت متباطئة الخطى ، ثم دارت حول نفسها دورة وسط المسرح ثم اتبعتها بأخرى ، وافتر ثغرها عن ابتسامة ملؤها الطرب والانشراح ، وهى تترنح بفستانها ذات اليمين وذات الشمال ، وبدت منا التفاتة ، والفنانة تدور حول نفسها ، فرأينا ان قد لاحت ساقاها ، فكانتا متعة للناظرين ، اذ أعادتا لذاكرتنا خواطر ما خلفته نفائس العهود الرومانية واليونانية من أعمدتها التاريخية .

وكان مضيفنا قد حدجنى بنظرة ، وكأنه يريد ان يقول لى « وماذا تقول فى هذه المتعة » ثم انحنى على قدح الويسكى فاحتسى آخر ثمالته .

وقد أراد السيد « جون » فى أول الامر ـ وهو الرجل الامريكى ، الذى يشارك الامريكيين فى حنكه وقصر أنفه ، ان يشهد آخر منظر من مناظر هذه السهرة ، ولكنه عاد ، فقلع عن رأيه الاول ، وطلب ان يذهب

الى فراشه ، وقد كنت انا الاخر أشاركه الرأى فى تفضيل النوم والراحة على هذه المتعة الفريدة ، لولا ان « عبد » بدا متأثرا ، وقال لنا ، انه من العيب ان نترك القاعة ونخرج منها ، اذ نستهين بمضيفنا ، وهو عمل لا يقرنا عليه العرف ولا العادة ، فاضطررنا آسفين ان نحتمل هذه السهرة .

وبدا السيد « توم » قلقا ، وهو الذى اقترح ان نسمر فى هذه الليلة الحمراء ، فلم يستطع اصطبارا ، ولم يعد يتحمل المكث طويلا ، وتقلصت عضلات وجهه واستدار بنفسه ذات اليمين ، وطفق ينوء بحركات ملتوية تنبىء عن جوع ألم به . وكان فى كل حركاته يشير الى انه يبغى الخروج من هذا المأزق ، ولم يتمالك نفسه حتى بدا الجد عليه ، انه يقاسى آلاما فى معدته ، وترك القاعة يرافقه ماجن أوربى ودليل شرقى . وعند ذلك تذكرت حكميات « جون » اذ قال ، « عليك ان تتجرع الدواء المر الى آخر قطرة منه » .

وهنا انتهت السيدة المغنية من قطعتها الغنائية المحبوبة . فكان بعض الرواد من العرب قد أثارهم اللحن والغناء ، بينما كان مضيفنا يطفىء هياجه وتأثره بجرع متتالية من خمرته . ودنا منى « جون » وهمس فى أذنى ، بانه يخشى على هذا الرجل ان يغلبه الشراب اذا هو استمر على هذه الحالة . وقد تحقق تنبؤ « جون » ، بعد قليل من الزمن . وارتأى مضيفنا الان الا يستأثر بالانس والطرب وحده ، بل أراد ان يفاجئنا بمقدم السيدة المغنية والتسامر معها جنبا الى جنب ، وقد قمنا بواجب التحية والترحاب ، وأبدينا اعجابنا بها ، وهى لا شك لم تفهم من كلامنا شيئا ، لانها لم تتكلم غير اللغة العربية . ولم نلبث ان نظر كل منا بوجه صاحبه ، وكأننا نريد أن نقول لها ، لا حاجة لنا بهذا السمر . فقامت السيدة ، مودعة ، وولت وجهها نحو

مجموعة أخرى من الرواد بدا عليهم انهم كانوا ينتظرون قدومها اليهم بفارغ الصبر •

وهنا ظهر على المسرح ، مغنى جديد ، ليسد فراغ الوقت ، ثم حضر معه صبي لا يتجاوز الثانية عشرة من العمر ، وابتدأ يغنى قطعة ، لم تصدم اللحن والاسلوب اللذين غنت بهما مطربتنا من قبل • وكوفىء باعجاب الحضرين وتصفيقهم • وبعد لحظات اقبلت سيدة رشيقة القوام ، ووقفت على خشبة المسرح ، وقد نعتها مضيفنا بانها تجيد الرقص ، ولا تبدع في الغناء •

فرأينا ان لم يعد بالامكان احتمال المكث ، لنرى رأينا فيها ، فقد بدأنا السهرة في الساعة العاشرة ، وها هي الآن قاربت الواحدة ، وانعكست على ملامح « جون » امارات الشعور بالاستياء ، فلم يستطع ان يتظاهر باخفائها ، وكانت ممزوجة بالسخط تارة والامل أخرى • وبدا عليه كمن يريد أن يتناول فراشه ، وقد اثقله النعاس ، وقد رافقنى السعد والتوفيق ، اذ رأيت « عبد » يقترح على مضيفنا ، وهو يحاوره ، ان قد آذن الوقت بالرحيل ، واذ ذاك كان قد بدأ فصل السيدة الرشيقة فبدت على المسرح تعانقها الارواح الثملة ، وهى تعرض رقصاتها الفنية المغرية ، وبدأت برقصة هز البطن ، وقد توشح جسمها بقطع من الحرير الشفاف وغطت بعض مفاتنها بخيوط من اللؤلؤ المزيف ، حتى انتهى العرض ، ولعل الاسراع بانتهائه كان لاجلنا •

وكان مضيفنا ، قد غلب عليه الشراب ، فلم يعد يستطيع ان يملك قواه وأطاحت به اغماءة ، أفقدته رشده ووعيه ، وبعد لأي استطعنا ان نوقظه من اغماءته ، وهو لما يزل بعد في خمار سكره ، واستدعى منصفنا ، ووعده بنقاد دراهمه في صباح الغد ، وكنا قد دخلنا في موضوع نقاد الدراهم ،

ومددنا أيدينا في جيوبنا ، فكانت حركة تخللتها جلبة وضوضاء ، وبدا على صاحبنا التأثر والانزعاج ، وارتبك « عبد » فغدا كمن يريد ان يؤنبنا على فعلتنا ، اذ رأى فيها التحقير والاهانة .

وبعد لأى ، قام مضيفنا ، يسنده « عبد » عن يمينه وأحد اصدقائه الثلاثة العرب عن شماله ، وفي مقدمته صـــديقاه الآخران ، وكنت أنا و « جون » مستنده من خلفه ، فسار بخطى متثاقلة ، وهو يترك معبد الفن الخالد ، بجسم ملىء أثقلته كحول العرق والويسكي . وكان في مشيته ، كالمتردد ، بينما كان وجهه يفيض بالحيوية والانتعاش ، وبدا كمن داخله الفخر والاعجاب ، ان قد استطاع ان يقدم لبلدته هذه الفرقة التمثيلية ، التي ابدعت في فن الرقص والغناء ايما ابداع ، وكأنه ، قد نال بذلك أقصى أمانيه في حياته .

ودب في وجهه النشاط ، وهو خارج الملهى ، وبدا عليه ، ان قد أفاق من خمار السكر ، فأراد ، ان يستجمع قواه ويستأثر باستقلاله ، ويستغني عن مساعدة من اسنده من اصدقائه فانتفض يهمهم ، وهو يريد ان يستخلص نفسه من مرافقيه ، فانطلق من بينهم بسرعة البرق الخاطف وراح يتسلق على بعض اسيجة الدور المتهدمة ، فمكث هناك وهو في نشوة من الطرب وخفة الروح ، واندفع من غير ارادته يقلد مغنية السهرة ، بالحان أصواته ، وتوسل بكل من حوله من رفاق ، بلغته الانكليزية المستعربة ، ان يتركوه طليقا ، والا يقودوه الى بيته أسيرا ، فقد اقضه الجوع ولابد له أن يأكل شيئا .

والسكارى ، كما خبرناهم ، لا يدينون بصلابة الرأى ، وهم في بعض الاحيان ، لا يقصدون ما يقولون ، فاستطعنا ،بعد لأى ان نثنيـه عن رأيه ، ونحول وجهة تفكيره . وقد كنت لم أزل ، اتذكر معـالم الطـريق الذى

يسلمنا الى البيت • وأخذت صاحبنا سورة الغضب ، بعد ان تحسس اننا قد تغلبنا عليه واستطعنا ان نثنيه عن عزمه ، ونقنعه بمغادرة مكمنه ، فكانت غضبته رحمة له ، اذ قد رجت اعصابه ، فأعادت اليه وعيه ، وغدا يتحرر من من كحول العرق والويسكي ، التي قيدت عقله ، وارهقت جسمه ، وبذلك استطعنا ان نخلص منه نجيا ، فلم يعد ، بعدها عبئا علينا • وبدت الحيرة على خادمه العجوز الذى لم تفارقه سعلته ، فغدا يدور حول سيده ورئيسه ، وهو يبغى ان يجد الوسيلة لتوفير الراحة له في نومه ، واستطعنا انا و « عبد » ان نلقيه على سجادة بخارية فرشناها له ، وبقى خادمه العجوز ، يحوم حوله ، وهو يولول بكلمات متقطعة ، آه دعوه دعوه يرتاح ، عساه يهنأ بنوم عميق •

وانسحبت بعدئذ الى المحل الذى أعد لى ، وقد أردت قبل ان ابلغ مكانى ، ان القى نظرة حاقدة على وجه السيد « توم » الذى يتمتع بنومة هادئة عميقة ، حتى اذا ما دنوت منه ، سمعت نبرات صوته ، وكأنها تنفجر غيظا ، وبادرني يقول ، لعلها كانت سهرة ممتعة ؟ فلم أكن اتمنى له ، غير ان تبقى معدته معذبة الى ان يحين الغد ، ولكنه ، انتهرنى ، وقال ، ان معدتك هي التي أقضها الجوع ، ولعلك تعلم ان معدتى يسودها الانتظام والراحة ، وقد عرفت من كلامه ، ان هذا الماجن قد أعرب عن الحقيقة •

وبعد ان تمددت على فراشي ، كانت أمثل أمنياتى أن أغط حالا بنومة عميقة ، فقد أوشك أن يحين الوقت الذى كادت أن تترابط فيه صور الحياة الواقعية اليومية فى مخيلتى ، وهى كما يقول العلامة « فرويد » يختزنهما العقل الباطن ، فتتراءى اشباحها للعقل الواعى حينما يطلبها ، أو يستنجد بها ، وتتراءى له كذلك فى أحلامه • فان كان حقا ما يقال ، ان الانسان يكون فى أحلامه فاقدا لارادته ، فسأهنأ بنومة عميقة ، فقد انهكنى التعب وأعيانى •

وقد كنت ، وانا احلم بنومة هادئة عميقة فى هذا الفضـــاء المظلم من عالم النسيان ، قد سمعت أصواتا تناديني ، من على ضفة النهر ، فتشتت صـور الاحلام التى بدأت تشغل مخيلتي ، فنهضت ، وجلست على خشبة معكرة ، واستمرت هذه الاصوات تلعلع أمام الدار ، فشتتت سكون الليل ، ونغصت على هدوءه ، وقد كانت هذه الاصوات ، يتردد صداها فى أذنى ، فتفززني ، وتزيد من تأثرى .

لقد كانت قطعة موسيقية ، استعذب الحانها أحد الاعراب ، فراح يلحنها بمزماره ، ويستمتع بها ، ويبدو انها من الموسيقى العربية التى تصم أذنى وتجرح حلقومي ، وقد أعادت فى ذاكرتى عفوا كلمـات « باوتن » عن الالحان الثقيلة على السمع فى بحثه عن القطع الموسـيقية التى تتمـدد النغمة فيها وتطول حتى تعافها النفس . ولا يبعد ان يكـــون « باوتن » قد سمع الغناء العربى ، والا ، ما استطاع ان يبدع فى وصفه وتحليله لهذه النغمات المزمارية . ثم عدت أسائل نفسى ، اما كان عليّ ان استغل هذا الازعاج ، فانصت الى هذا الفن الموسيقى طيلة هذه الليلة ، عسى ان تعتاد عليـــه أذنى فاستسيغه واستمتع به ، بدل ان يكون مزعجا لى ، وسرعان ما تداعت اركان هذه الفكرة من خيالى ، حينما ، انقطع العازف عن العزف ، ليشد فى قصبة المزمار ويحكمها . ويبدو انها من نوع المزامير الهولندية ، التى تستعمل فى مآتم الكنائس الريفية . وقفزت من مكمنى ، ونزلت الى ساحة الدار وفتحت الباب ، لعلى أرى صاحب المزمار ، فرأيت شبحا هالنى ، وافزعنى ، وتبينته ، بعد ان احدقت النظر فيه على ضوء القمر فاذا به رجل مسلح بالنار والحديد ، وحينما رأى وجهي النحيل من فتحة الباب ، رفع بندقيته من على كتفه ، واستعد للخطر ، ولكنى سددت الباب بوجهه بكل برودة .

وعاد الرجل ثانية يرتل في مزماره الحان أغنية الليل ، بعد ان ترك مكانه الاول الذى كان يعزف فيه ، وجاء ، هو وآلة المزمار أمام باب الدار • فرأيت ان الامر لم يعد بالامكان احتماله ، فصممت ان افتح الباب ثانيـــة وأحدق بوجه هذا العربى المسلم ذى اللحية الطويلة ، لعلى استطيع ان أجد مخرجا من هذا المأزق الحرج • ولكنه استمر في ترتيله ، وهو ينفخ بمزماره بحماس شديد وعند ذلك ، ابتدأت أحاوره ، فقلت له ، كفى ، كفى ، اريد ان أنام ، وأومت اليه ، بعملية النوم ، فوضعت رأسى على يدى اشير به الى ما أريد • فأجابنى الرجل بتمتمة ، بلغته العربية الريفية ، لم ادرك معناها ، فقد كان فهمى للغة العربية محدودا جدا •

وعدت أكرر عليه القول ، كفاك هذا التزمير ، ولكنى فى هذه المرة ، قطبت عليه جبينى ، وحملقت عليه عينى ، لاشعره ان تزميره أقضى مضاجعى، وحرمنى النوم • فالتفت الي الرجل ، وقال ، نم هادئا ، فكان من كلامه ، يدل على انه لبى الرجاء ، أو امتثل الامر • فدنوت منه ، وهززت مزماره ، وقلت له ، ما هذا الذى تزعج الناس به • وكنت قد ظننت ، ان هذا الرجل المحارب ، قد فهم قصدى ، وسيلبى رجائى ، اذ كان يشير لى بالامتثال ، ولكنى ما كدت أسد الباب ، حتى عاد الى مزماره ثانية ، وراح فى هذه المرة ، يضاعف قواه ، ليسمعنى الحان قطعته اضعافا مضاعفة ، ولم يكتف بذلك ، بل أخذ يملأ فترات الاستراحة ، بترميرة متقطعة • وعند ذلك ، داخلنى اليأس وخيبة الامل ، وبدا لى ، ان لابد ان اتصبر فاعانى السهاد فى هذه الليلة ، كما تعانيه معدتى •

وكان السيد « توم » قد وهب في طبعه خلقا عمليا ، فحاول ان يوقظ

مضيفنا ، ويطلب منه ، ان يأمر الرجل بالكف عن ترديد أغنيته ، في سكون هذا الليل ، فرآه يغط في نومة عميقة ، وعبثا حاول السيد « توم » ايقاظه ، فلم تجد معه أية وسيلة في اعادة الحياة اليه ، وأخيرا استيقظ الرجل العجوز وهو يرزح تحت وطأة سعلته ، وأيقظ الصبي الذي كان أقل فهما منه ، وطلبنا منهما ان يساعدانا ، على اسكات هذا المزمّر الذي كان لا يزال مطربا على نغمات مزماره ، وقد استطعنا أخيرا ، ان نتغلب على صعوبة هذا العمل الشاق ، وجزى الله هذا الصبي كل خير ، على ما اسداه الينا من جميل •

وكان مضيفنا ، بعد ان طلع علينا الصباح ، يقدم لنا القهوة ، يتبعه من ورائه قط سمين ، وقد أراد ان يسمعنا ، بانه لم يكن يداخله الظن ، ان سيبقى ضيوفه الكرام ليلتهم من غير ان يقوم بحراستهم عسس الشرطة ، وانه سبق ان طلب من مدير الشرطة ، ان يرسل بعض أفراد الشرطة لحراستنا ، وهو يرى نفسه الآن مسؤولا أدبيا امامنا عن هذا التقصير • اما هؤلاء الحراس الاهليين ، فقد اعتادوا ان يسمعوا حارسيهم اثناء قيامهم بواجب الحراسة اصواتهم ، ليطمئنوهم بأنهم عيون يقظة ، فيشعر الضيوف اذ ذاك بانهم في مأمن من كل خطر ، فيسلموا أنفسهم لنومة عميقة هانئة ، ولذلك كان علينا ان نتقبل تلك الاصوات المطمئنة ، برحابة صدر ، وليس لنا ان نتضايق منها • ثم بدا يوضح لنا ، ان الانسان اذا اطمأنت نفسه ، وعرف ان الحراس دائبون على حراسته استطاع ان يغمض عينيه ويستسلم للنوم •

وكنت قد استيقظت في الثامنة صباحا ، فغسلت وجهي ، لاطرد عنه النعاس ، واستعيظ عنه بطراوة الماء واستنشاق الهواء ، وكان ذلك الصبي البليد ، قد وقف أمامي ، وهو ينظرني شزرا ، وقد عبرت نظراته عن استغرابه عن كثرة ما استعملته من الماء في غسل وجهي ويدي • وقال انه

حرام ان تبذر هذه الكمية من الماء ، وهو لا شك ، لا يستعمله الا نادرا ، ولعله لا يستعمله لغسل وجهه • وقد مسحت على رأسه بيدى المبللة ، فأدار خده الايسر ، فبانت عليه الاوساخ وقد مثلته بحمار الوحش فى تخطيطه ونقشته وبدا عليه الزعل والانفعال من حركتى ، وازدادت انفعالات وجهه عندما نهره الرجل العجوز ، ويظهر انه جده ، وأمره ان يغسل وجهه حالا • فكانت هذه العملية التى لم تتناول رقبته السوداء ، قد غيرت شكله ، فبدا وكأنه عصاة يتوكأ عليها المرء فى فسحته ، قد دق طرفها •

وكان التعب قد بان على ملامح مضيفنا ، فلم يبد مرتاح النفس ، ولكنه تدارك واستجمع قواه ، وأراد ، ان يلحق اليوم بأمسه ، وراح ووجهه يطفح بالفرح والسرور ، يردد ضحكات طويلة عريضة ، وبان الدم يسرى فى عينيه وملامح وجهه ، ولعله أراد بها ان يشعرنا بحفاوة الضيافة وبالغ الكرم •

ولم نستطع ان نقدم الى مضيفنا الطيب هدية جزاء اتعابه وحسن وفادته ، فقد كنا نشعر باننا سنسيء اليه فى هذا الاكرام ، ونخدش عواطفه به ، ولكن السيد « توم » تقدم اليه باحصائية جمعية التغذية العالمية وقد كنا نحتفظ بنسخة منها ، وقد اراد « توم » بهذه الهدية أن يشعره باننا نحتفظ له بهذه الذكرى الطيبة ، ونقدر طيبه وحسن ضيافته •

وكادت نفس مضيفنا تطير طربا ، حينما رآنا ، وقد سجلنا على زاوية تلك الاحصائية اسماءنا مع كلمة الشكر ، وراح يلقى علينا خطبة مطولة بانكليزيته ، كان أبرز ما فيها ، انه لم يحض فى حياته بمثل هذا الشرف ، الذى جمعه بنا • ووقف الى جنبه خادمه العجوز ، فاتحا فاه ، ولم تزل بعد على أنفه قطرات الرشح ، من آثار نزلته الصدرية التى كانت قد أرهقت جسمه •

وكنت قد صممت ، ان لا أذكر شيئا عن حوادث ملهى العمارة ، ولن اتناولها بالنقد أو التجريح ، ذلك انى ، قد أسأت فهم الموسيقى العربية ، وحكمت عليها حكما جائرا لا عدالة فيه ، وكنت قد شعرت فى أعماق نفسى بان هذا الحكم الجائر ، لم يكن نتيجة انفعالات نفسية قاهرة ، أثارتها السيدة المغنية وفرقتها الموسيقية فحسب ، بل كان حكما مبالغا فيه ، أملاه التسرع ، وخانه ضبط النفس •

وفى شهر مايس ، زارنى بعض أصدقائى من العرب فى نزلى ، ودعونى الى ان أحضر معهم ، لارى أحد الملاهى فى بغداد • وكانت هذه الدعوة قد لاقت قبولا فى نفسى ، فاندفعت الى تلبية الطلب بكل جوارحى • وقد كان الطقس حارا ، وقد ضاق جو الصالة بدخان السكاير ، وهى على ما اتذكر ضيقة لا أثر للفن فيها ، فاستعادت مخيلتى ، ذكريات حوادث ملهى العمارة ، وبدت أشباحها تتلاوح فى ذهنى • فكانت البيرة الحارة ، وتبعتها الموسيقى الباردة وترنحت على خشبة المسرح مغنية ، قد أثقلها الشحم ، وانهكتها السمنة وهى تردد أصواتا متقطعة ، تتقزز منها النفس ، ويعافها الذوق • فتصبرت ، أتجرع غصص ما لا تمتد اليه يدى ، وانتظر بفارغ الصبر ، نهاية فصول هذه السهرة • ولحظ منى أحد الداعين تنكرى للغناء والرقص • فقال لى ، لا تعجل فسترى ما هو جميل بعد لحظات •

وتراءى لنا ، بعد فترة قصيرة شبح فتاة هيفاء ، قد نحل خصرها ، ونهد صدرها ، فبرزت بمفاتنها على خشبة المسرح ، تتهادى برشاقتها هنا وهناك • وكانت الفرقة الموسيقية تتابع خطواتها بالحان عذبة ، يسرح فيها الخيال فينتعش القلب وتسر النفس ، كانت انغاما موسيقية ساحرة حقا ، لم تكد ان استولت على شعورى وارهفت حسى • وأشعلت فى نفسى نار الوجد والهيام •

وبدت المغنية الحسناء ، تراقصها الالحان العذبة ، وقد رفعت الحجاب الشفاف عن وجهها ، واشتمل به ذراعها ، وبدأت تصدح بألحان تجتذب بنغماتها القلوب وتلتهب بعذوبتها العواطف • فكانت هذه الالحان المؤثرة على ما اعتقد ، بداية لقطعة غنائية عربية •

والحق ، انها قد مثلت فنا وابداعا ، فلم تكن تسمع فى غنائها صراخا متقطعا ، أو تشعر بنغمة مملة ، وانما كان وجدا وهياما • وبقيت هذه الفاتنة ، تتلاعب بالقلوب ، وهى تصدح بنغمات ، يتبين من بينها أثر الالم واللوعة ، وكان ابداعها فى تلحين القطعة الغنائية ، انها ترددها بأنغام منسجمة فى تخالفها وسرعتها ، فتتغير اللحنة من نبرة عالية الى عذبة واطئة يسودها التوافق والانسجام •

ولم تكن هذه الالحان الموسيقية ، ثقيلة على سمع الاوربى ، اذ كنت أشعر ، انها تصدر عن قلب مكلوم ، أضناه الشوق وأطاح به الهوى •

ولم يكن عسيرا علينا ، ان نهتدى ، الى هذا الاغراء ، الذى سحرتنا به هذه الفاتنة الهيفاء ، فقد كانت فى أمواج صوتها ، وتعابير ملامحها ، تبعث فى خيالنا صور تلك البادية المترامية ، فى سكونها وهدوئها •

كانت تغنى ، وهى غارقة بأحلامها ، تناجى أشباح صورها الحائرة ، وكانت عيونها مصوبة نحو تلك الاحلام الحلوة تستوحى منها السحر والخيال • وكان الجهد يبدو عليها ، وهى تتلاعب بأصواتها ، وتبدع فى تنهداتها •

ولم يتمالك الرواد أنفسهم ، فهاموا بها ، وسحروا بتأوهاتها وتنهداتها ، فانحنى كل منهم لفتنتها ، بعيون تتلامع فيها الدهشة والاعجاب ، ووجوه تعبر عن جوى النفس وهيامها • فلم يستطيعوا السيطرة على أنفسهم ، فراحوا

يرددون الانات والآهات ، ليطفئوا بها نيران وجدهم .

وبدا هذا الجسم النحيف ، يهتز ، فتهتز له القلوب ، وتتدافع نحوه الارواح فكانت فاتنة في رقصاتها ، كما كانت فاتنة في غنائها . وكانت أهداب جفونها قد غطت عينيها الناعستين ، وقاربت ان تتدلى على وجنتيها ، ولعبت بذلك الوشاح الشفاف ، الذى اشتمل ذراعها ، فانتزعته بحركات سيقانها ، ورمت به في الهواء ، فتهاوى على المسرح كما تتهاوى الرمال في البادية في سورة ريح عاصفة . وبين هذه العاصفة التي أثارها وشاحها المتطاير ، وشعرها المتدلى ، وأجزاء جسمها المتراقصة ، كانت تغرد بصوتها ، كما يغرد الطير الابيض ، وقد هرب من غابة سوداء . وكان الرواد قد أثاروها عاصفة من التصفيق ، يبغون استعادة حركاتها والحانها ، وقد اندفعت في هذه العاصفة من حيث لا ادرى .

ولكن الغانية ، وقفت برهة ، بغير حراك ، كأنها التمثال تزاوله أشعة الغروب ولم تستعد شيئا مما طلب منها ، ثم غابت عن الوجود فجأة ، كما جاءت فجأة .

« ١٢ »

طيور الصحراء

ليس سرا ان تكون الصحراء مصدر الالهام والوحي ، ففي امتدادات آفاقها ووحدتها وصفائها تجد النفس الانسانية مجالا لان تسرح وتمرح بأخيلتها ومثلها من غير ان يكدر صفوها صعاب الحياة ومشاكلها . فمن اشتاق ان يستجم بوحدته وينطلق بخياله فدونه هذه الصحراء الهادئة ، على سعتها وبعد آفاقها . ففيها يستنشق الانسان عبير الحرية ويتلمس الراحة ، ويتحسس بالسعادة . هناك في سهولها الممتدة الى ما لا نهاية له يستمع الانسان الى تأوهات الريح وأناته ، وينصت الى تغريد الطيور وهي محلقة في سمائها الصافية ، فيتمثل الحرية ويشعر بالسلام . وهناك في تناوح رياحها وأهازيج طيورها تجد النفس الحرّى محلا يتسع أن تبث فيه آلامها ووجدها . انها الصحراء تحتضن من اشتاق اليها وترد لهفة من لاذ بحماها ، فتشعره بالامن والطمأنينة .

فان حل المساء ارتمى الانسان على احضان مقدمة خيمته ، يجيل النظر في مغرب الشمس وحمرة الافق ، حيث تتلاقى الحدود بين السماء والارض ، مثلما يلتقي قلب المشوق بمشوقه . فمن تعطش الى مهوى السلام ، ورنا الى مطلع الحرية ، وأراد ان يهتدي الى حلو الحياة ونعيمها فدونه هذه الصحراء . لقد احاطت بها يدالله من جميع آفاقها ، ورفعت فوقها قبتها السماوية ، فجعلت

منها معبدا يذكر فيه اسم الله ، وكل حركة أو همس يسمع في هذا المعبد ، ان هي الا تحية ذلك السكون الابدى • وهي ايذان لمن لعب دوره أياما معدودات في دولة هذا العالم الابدى •

انها الخلاء الذى يفتقد فيه الزمن ، ولا تبين فيه الحدود ، وستكون الارض خلاء مثلها اذا اختفت فيها الحياة ، وانحسر عنها الموت ، وانما اتجه الانسان في مداخل هذه الصخرة يتحسس بقوة سيطرتها وعظيم هيمنتها • والحق انها لتسحر الانسان وتشعره بسلطانها وتثير في نفسه انفعالات لا تثيرها فيه أية بقعة من بقاع هذه الكرة الارضية •

وهناك على تلول الرمل في أفق المغيب تلوح آخر ذبالة من ذبالات أشعة الغروب ، فتبين أخيلة ضعيفة سوداء تعكسها رؤى التلال وأشواك النبات على الرمال الخضراء ، فتنشر في أرجائها الامن والسلام ، حتى الريح تكاد تطمئن لها فتسكن حركتها وتخمد ثورتها •

لقد شهدنا هذه الصحراء التي تحد العراق وسوريا ، فكنا نشعر فيها أننا في أرض رملية لا نهاية لها ، تمتد ما امتد النظر ، فيستطيع الانسان أن يسير فيها ما شاء ساعات طويلة من غير ان يتراءى له شبح انسان أو حيوان • وكانت سيارتنا قد هوت في منخفض سحيق وسط هذه الصحراء ، فتركتها مع السائق ، وانتحيت أجلس على احدى تلولها المنبثة ، استنشق نسيم الحرية والسلام في هدوء هذا السكون المطبق • واذ ذاك سمعت صوت أهزوجة بعيدة ، يردد الريح صداها في أذني ، فسألت السائق حسن ، اذا كان هو الآخر قد تسمع الى هذه الاصوات البعيدة ، وماذا يحتمل ان تكون ! وتدانت الاصوات مني فوضحت لي ، وكأنها صدى تغريدة سرب من الطيور ، وتبينتها في السماء ، فتراءت لي من بين شعاعات الغروب المتكسرة بقعا سوداء

تمايل بها الريح نحونا . فكانت أسرابا من الطيور تصدح بأهازيجها تنشد الامن والطمأنينة في هذه الصحراء . ولمحت ، وأنا أجيل نظرى فى السماء وأنصت لتغريدها ، أسرابا أخرى تبعتها ، وكأنها غيمة سوداء ، وكادت طلائعها تقترب منى . ولم تمض لحظات قصار حتى شهدت منظرا مغريا ، مثلت الطبيعة أدواره ، فأبدعت بكل ما فيها من سحر وجمال . فكانت هذه الاسراب من الطيور تتابع رفوفها ، وهى تحط على أرض البادية .

ولقد حاولت أن أعد هذه الاسراب ، لاعرف معدلا تقريبيا لها ، فوجدت ان ليس ذلك بالامكان ، اذ كانت تترى رفوفها أفواجا متتابعة ، وقد ملأت السماء بخفقان أجنحتها وتغريد أهازيجها .

لقد كانت نوعا من طيور الصحارى ، تميل فى لونها الى اخضرار رمال البادية ، وهى التى يسميها العرب طيور القطا . ولا يبعد ان يكون هذا الاسم قد اشتقه العرب من اصواتها . ولست استطيع ان أقدر الكميات التى حطت منها ، سوى انى أعتقد انها تجاوزت العشرة آلاف ، فافترشت ساحات واسعة من أراضى الصحراء ، وقد حطت أضعافها فى اليوم التالى مما يدل على ان عددها لا يكاد يحصى . وكنت قد سألت أحد الاعراب عن هذه الظاهرة الطبيعية ، فقال لى ، ان هذه الطيور تهاجر تبحث عن مأوى تجد فيه غذاءها ، وتأمن فيه على نفسها ، فتتلاقح وتبيض وتفقس . وقد يبدو ان ليس عسيرا أن يلاحق الانسان هذه الاسراب من الطيور ، ليهتدى الى مواطن مستعمراتها ، ويمكن ان يلاحقها بعربته أو على صهوة جواده ، ليرى خفايا الطبيعة وابداعها . اذ لابد ان تكون هذه المستعمرات قد وسعت مئات الهيكتارات من الاراضى . وقليل من الناس من يستهويهم سحر الطبيعة بين مجاميع هذه الطيور الجميلة .

وقد بقيت صور هذه الاسراب من الطيور تردد فى مخيلتى ، وانا فى موطنى بعيدا عنها ، وتتلامح أخيلتها فى ذاكرتى ،فتثير فى نفسى الحنين اليها .

ولعل هذه الملايين من الاسراب التى ألفت هذه الصحراء ولجأت اليها ، تنشد فيها السلام والامن توضح لى سحر الصحراء وأخيلتها الجميلة التى لن يمحى أثرها من ذاكرتى .

وأرانى ، وقد تناولت الحديث عن طيور البوادى ، تتدافعنى ذكريات بعض ما شهدت من أصناف أخر منها ، بألوانها الساحرة ، الفت هذه الارض وسكنت اليها . فهناك فى طريق كردستان ، تبدو جماعات النحل تتلامع ألوانها بين أشعة الشمس ، وهى تطير فى طريق مغبر طويل الى مملكتها الخضراء فى كردستان ، قد زينتها بيئتها بأثواب مختلفة الالوان ، هى ألوان أزهارها وباسقات أشجارها . وقد يرى هذا النوع من النحل فى أواسط أوروبا أحيانا .

ومن بين هذه المناظر الممتعة تلك الطيور الصغيرة ، بريشها المشرب بالزرقة والخضرة ، تتخذت أسلاك التلغراف وكرا لها ، فان هى أحست بعربة أقبلت عليها فزعت منها ، وحلقت فى السماء تطلب النجاة ، فتتراءى زرقة ريشها وخضرته بين أشعة الشمس ، ثم تحط على الارض الخضراء .

وقد يوفق الانسان ، ان يشهد بحيرة الحمار ، فى جنوب العراق ، أو أى بحيرة أخرى بالقرب منها ، ففيها يرى أسراباً من الطيور ، تسبح فيها ، وتحوم حولها وكأنها غيوم سوداء ، وهى تغرد أهازيج مختلفة الالحان والنغمات ، وقد قطعت مسافات بعيدة لتحط فى هذه المنخفضات ، وترى فى أراضى هذه البطاح الخضراء أسراب كثيرة من الغربان ، بألوان مختلفة ، وبينها أسراب أخرى من أنواع البط الابيض بمناقيره الخضراء ، الى غير هذه الانواع من

الطيور المختلفة في اصنافها وألوانها ٠

وكنت وانا اتجول في جبال كردستان ، في طريق جبلي ضيق ، قد سمعت نعيق ثلاثة من الغربان ضخمة الحجم ، وقد حطت على الارض حولي ، واذا بكل منها يدير رأسه الاصلع على رقبته العارية ، وكأنه يريد أن يستطلع عن أمر هذا الانسان الذي يتيه في وحدته وخياله ، وقد ساعدني حسن الطالع ، أن رأيت أحد الصقور كان يطارد هذه الغربان ، وتمكن ان ينقض عليها ، ويصرعها بأجنحته العريضة ، وقد استطعت بعد لأي ، ان أرى بناظوري ، بعض ريش هذه الغربان ، في مؤخرة منقاره ، وهو يحلق بأجنحته الممتدة في الفضاء ، من غير ان يخفق بها ، حتى بعد في أجواء الفضاء ، ولم يبد منه غير بريق عينيه ثم غدا نقطة سوداء في زرقة السماء المتموجة ، فهو والحق صقر الطيور ، وهو مدين لها بالشكر ، اذ منحته هذا الاسم ٠

وقد يستطيع الانسان ، ان يستمع الى خفقان أجنحة الغربان الكبيرة في الجبال ، بكل وضوح ، وتتلاوح بين الجبال كثير من أنواع الغربان المختلفة الالوان والاصناف ، وقد لاحظت الغربان المنقطة ، تبدو دميمة الخلق ، وسخة الصدر والجسم ، وهي شبيهة بغربان مناطقنا الجبلية ٠

وتتكاثر أسراب من الطيور ، بمختلف الالوان ، على مجازر المدن الكبيرة منها خاصة ، فيرى من بينها الغربان البيض ، واللقالق بكثرة ، وتعتبر اللقالق ، من الطيور المحرمة ، فهي ترى دوما في كل القرى والارياف ، وقد تخذت أوكارها على مرتفعات الابنية والقباب ، اذ تشعر هناك بالامن والسكينة ٠ وتحوم اسراب كثيرة من هذه اللقالق على مجازر المدن ، وتبدو جباهها البيض ملوثة ببقع مختلفة الالوان ، وتراها ، تحمل بمناقيرها على الدوام قطعا من فضلات الذبائح التي لم تستطع ان تبتلعها ، انها لتجد

فى هذه المجازر سفرة مثقلة بالطعام ، فلا تتعب نفسها للبحث عنه ، ولذلك فهى تمكث فى الليل هناك ، وترجع فى الصباح المبكر الى اعشاشها . يدفعها الوجد الى ان ترى اناثها ، وهن أثمن ما تملك من حياتها ، ولولاها لبقيت تمرح على تلك المائدة ، ولما تمل منها أو تشبع من نعيمها .

ولقد رأيت مرة ، أحد هذه اللقالق ، عندما لمح صقرا أسود اللون وهو فى تحليقه ، يرمقه بعينيه اللامعتين ، قد انكمش على نفســه وذوت رجلاه الطويلتان ، وكاد يفقد الاحساس ، وكأنه أراد أن يقول ما هذا الوباء الذى أيبس عظامى ، ومهما يكن من أمر فان هذه اللقالق الموشحة باللونين الابيض والاسود قد زادت فى جمال القرى والارياف ، فطبعت فى النفوس ذكرياتها وليس بعيدا ان يكون العرب قد اشتقوا اسمها من صوتها .

« ١٣ »

الحيوانات الوحشية في العراق

حاولت كثيرا ، وانا أسير في متعرجات التلول والوديان ، بين أراضي ما بين النهرين وكردستان ، ان أعرف شيئا عن عالم الحيوانات الوحشية في هذه البقعة من الارض ، وعن مدى تنبعها ، وهوايات الصيد فيها ، وقد رأيت ان معلومات الناس العامة في هذا الحقل من عالم الحيوان ضحلة ، لا يمكن ان تروى غليل من يرى في صغار هذه الحيوانات الكاسرة أجمل مناظر الطبيعة الساحرة .

والحقيقة ، ان الاكثرية من الناس الذين يعيشون على هذه الارض من العالم ، وهم يكدون ويكدحون ، ليقاوموا الجوع ، لا يمكن أن يغريهم سحر هذه الطبيعة ولا يجتذبهم منظر صغار هذا الوحش من الحيوان . وليس بين أغنيائهم من تهمه معرفة هذه المغريات من الطبيعـة ، أو تجتـذبه هواية الصيد فيها .

ويبدو ، ان هذه الربوع قد اندثرت فيها اصناف غير قليلة من حيوانات الصيد ، فلم يبق لها أثر فيها . وقد لا يبعد ان تكون بواعث ذلك ، ان هواة الصيد لم يحترموا قوانين الصيد ولم يأبهوا بها . وقد لا يزال الناس حتى الان ينهجون على ذلك ، ولهم في مطاردة الصيد أحدث ما اخترعه الانسان ، وهي السيارة ، ففيها يستطيع الصياد ان يلاحق صيـده ، ويسـبق أسرع

الحيوانات البرية .

وقد اختفى اليوم كثير من مجاميع حيوانات الصيد فى هذه الربوع . كان الاسد قد ظهر فى أراضى ما بين النهرين فى العشرة الاولى من هذا القرن وقد كان يأوى فى أكثر الاحيان فى الاماكن الرطبة القريبة من الانهار الواسعة ، بينما لن تجد له اليوم أثرا فيها . وكانت جريدة الاوقات العراقية قد كتبت فى ابريل من سنة ١٩٥١ قطعة مسهبة عن أسود العراق ، بقلم أحد العراقيين ، جاء فيها ، ان اثنين من أعضاء أسرة كاتب المقال يستطيعان ان يفخرا بانهما كانا قد قتلا آخر أسد فى العراق . فعلق على ذلك أحد كتاب الانكليز فى الجريدة نفسها اذ قال ، ان الحيوانات الوحشية فى العراق محمية ولم يحن الزمن بعد للقضاء عليها ! .

ويبدو ان الاسد قد اختفى أثره فى ايران كذلك . ويخال لى ، ان قد بقى الدب من بين الحيوانات الكاسرة ، فى جبال كردستان ، وهو فى هذه المنطقة من نوع الدببة السورية . تميل ألوانه فى الغالب الى لون الحشائش الخضراء ، ويبدو انه أصغر حجما من أنواع الدببة الاعتيادية التى تعيش فى أوربا . وقد شاهدت فى مدينة أربيل دبا ، لم يزل بعد يافعا ، قدحبس فى قفص صغير فى صحن الدار ، فساءنى وضعه ، ورثيت لحاله ، اذ لم يستطيع ان يرى نور الشمس ، مرة واحدة ، وهى من أهم ضروريات حياته ، اذ يستمد الدفء والحيوية منها .

ومن الحيوانات الكاسرة التى تعيش الآن فى جبال كردستان وفى شمال ايران ، هو النمر وهو أكبر حجما من الاجناس الموجودة الآن فى افريقيا وآسيا ، ويشبه لون ذيله الرمال الخضراء ، وتميل مخالبه الى الحمرة فى الغالب ، ويغلب على جسمه اللون الابيض ، تزينه بقع سوداء ،

وقد نعته لي الشيخ « بابا علي » بنمر الوفر على ان هذه التسمية ، لا علاقة لها بالانمر الوفرية اللون ، وهي التي تقطن في تخـوم آسـيا وسيبريا ، وقد استطعت ان ارى اليوم في جبال كردستان نماذج من الانمر القوية ، التي تعيش عادة في آسيا الصغرى ٠

وقد وفقت ، ان ارى الذئب مرة في بطاح العراق ٠ وقد كانت رؤيتي له في وضح من النهار ، فقد كنت ، وانا اتجول في سفرة على ضفاف دجلة قد رأيت ذئبا خطف من أمام السيارة ، وهو سائر في طريقه ، وكأنه آمن على نفسه وقد كان ضعيفا ، طويل السيقان ، ولم يكن له ذلك الصدر ، الذي ينذر بالقوة كما هو منظر الذئاب التي يراها الانسـان في أواسـط أوربا وشمالها ٠

وتكثر الثعالب وبنات آوى في العراق ، كما تكثر عندنا الارانب ، ويعاني منها في بعض الاحيان رعاة الاغنام من الاطفال العرب الويل والثبور ، ان هي تحسست بوجود قطيع الماشية أو لاح لها شبحه ٠

وقد كنا ، ونحن نقضي غدوتنا تحت احد الشلالات في منعطف من منعطفات الطريق المؤدي الى راوندوز ، الذي كان المهنـدس الانكليـزي « هاملتون » قد وضع أسسه ، وكمل تبليطه في سنة ١٩٣٢ ، كنا ، ونحن نقضي غدوتنا تحت احد شلالات الجبال هناك ، قد رأينا حيـوانا في أعالي الجبل ، لم استطع بناظوري المكبر ، ان أتبينه ، وقد كان من الحيوانات الكاسرة الشبيهة بفصيلة القطط ولكنه ليس من القطط الكبيرة الوحشية، التي ترى عادة بين الجبال بل كان أكبر منها حجما ، وأقوى شكيمة ٠ يميل لونه الى الاصفر الفاتح ٠ واعتقد انه من نوع الفهود التي تعيش في آسيا ولو ان بعض الاكراد يظنون ان هذا الحيوان نادر الوجود عندهم ٠

وكنت قد رأيت على بعض قبور الصيادين في مقبرة كردستان ، بعض جماجم شبيهة بجماجم حمر الوحش ، وليس منها ، اذ لم يكن قرنا هـذه الجمجمة مدوران مثل القرون التى يتسلح بها حمر الوحش، فقد كانت منحنية مدببة الرؤوس ، أشبه ما تكون بقرون المعز ، ولعلها من قرون المعز الوحشى فى هذه الربوع .

ومع ذلك ، فان الشيخ « بابا على » قد أبان لى بان كثـيرا من حمر الوحش ، توجد فى جبال كردستان ، ولكنى لم أر لها أثرا ، سواء كانت حية أم ميتة ، ولم تتسع لى امكانياتى ان افحص تلك الجماجم واتحقق منها ، لذلك ليس بوسعى ان أبدى رأيا فيها .

وتندر فى العراق الايائل ، ويبدو ان الايائل فى المناطق الواسعة من آسيا الصغرى وايران ، هى من الايائل الاصيلة . وليس بعيدا ، ان تكون قد عبرت الى آسيا من أوربا ، فهى ترى من الحيوانات القوية ، التى تشبه رؤوسها رؤوس الايائل الاوربية الاصيلة ، ولقد شهدت فى كردستان رأسا من رؤوس الايائل وقد كان شكله يدل على انه من الايائل القوية الاوربية . ومهما يكن من أمر ، فان وجود هذا الحيوان فى شمال العراق نادر جدا .

ومع ان الاكراد يعدون من الرماة المتفوقين ، والمصوبين الماهرين ، وانهم يحملون السلاح ، انى وجدوا ، ويطلقون نيران بنادقهم على كل شىء يتراءى لهم ، فانى اعتقـد ، ان لابد قد بقى أثر لهـذا الحيوان الوحشى فى ربوعهم ، ذلك ، ان الامكنة التى كان يأوى اليها هذا الحيوان فى غابات كردستان ، ضيقة المسالك ، لا يستطيع ان ينفر منها ، وهى فى الوقت ذاته ليست آهلة بالسكان .

ويبدو لى ، ان خطر القضاء على أثر حيوانات الصيد يجثم فى المناطق

العربية من العراق وقد لا يبعد ان يقضي على الغزلان البرية ، التي بدأت تختفي في كثير من أجزاء الاراضي الجنوبية في العراق ، وقد لا يبعد ان يندثر أثرها ، بعد حين •

ولقد رأيت أغلب هذه الغزلان البرية قد لجأت الى سهول الاراضي الشمالية ، ويبدو لي ان السلاح الذي تحتمي به عن أعين بني الانسان هو لونها الذي لا تكاد تراه العين الا لماما ، وكثيرا ما يخطيء الصائد ، فلا يرى قطعانها ، وقد يمر بها ويتجاوزها مئات الامتار من غير ان يراها • ومع كل ذلك ، فللعرب أعين أخرى ، تستطيع في حدتها ان ترى هذا الحيوان ، في أراضي الصحراء المنبسطة ، على بضعة كيلومترات ، بينما أكاد أنا بعد الجهد ، ان أراه بناظوري •

ولقد رأيت ، وانا في طريقي الى محطة البترول التي تقع في الصحراء شمال مدينة « هيت » ، رجلا يحمل بيده غزالة برية ، قد بدا قرناها بارزين ، ورأيت في صحن أحد البيوت في مدينة « زاخو » غزالة تسرح فيه ، من غير ان يكون في جبهتها أثر من القرون • ولذلك ، ارى ان اصناف الغزلان في العراق ، اثنان على أقل تقدير • فالغزلان في جنوب العراق ، وهي الغزلان العربية ، ويمكن أن تكون الغزلان الشمالية قد جاءت من ايران ، أو انها من فصيلتها ، التي لا تنبت القرون في جباهها •

ولقد وجدت هذه الغزلان العربية ، من أجمل الحيوانات ، وأكثرها سحرا ، وتكاد تكون في ركضها ، ومتابعة خيالها لها ، من أروع آيات الطبيعة الخالدة ، لا يمكن ان يدانيها في جمالها حيوان آخر •

وقد كنت أرى ، ان الوعل الذي كنت قد طاردته في جبال الالب في « فينا » لا يمكن ان أرى نظيرا له في جماله وسحر عيونه ، اما وقد رأيت

الغزالة العربية الان وهي في موطنها انقسم قلبي الى شقين ، فعلق أحدهما بذلك الوعل ، والاخر بهذه الغزالة .

ويخال لي ، ان صيد الغزال ، لم يكن من المناظر المغرية ، على ان العربي قد اعتاد على صيده ، وهو يفضل قبل كل شيء الصيد الشاق ، وهو الصيد الذي يستعمل فيه الكلب السلوقي ، الذي يختطف هذا الحيوان بسرعة البرق .

والمترفين من العرب ، يستعملون الصقر الاصيل في صيدهم ، فهو يتابع الصيد ، انى وجده ولا يتركه حتى ينقض عليه ، على ان السيارة اليوم أحدث وسيلة لمطاردة الصيد ، فهي تستطيع ان تلحق باسرع حيوانات الصيد، في لحظات قصار ، وفي طلقة من طلقات بنادق الصيد ، يمكن ان يؤخذ هذا الحيوان ، فيرتمي يائسا .

ومهما يكن من أمر ، فان هذه الطريقة الاخيرة في الصيد ، سوف تقضي على هذا الحيوان الوحشي الاصيل ، وقد تستطيع الحكومة العراقية ان تسدي خدمة عامة تذكر لها بالشكر ، ان هي شددت على اتباع قوانين الصيد ، فحرمت هذه الطريقة المتبعة في الصيد ، وفرضت على من يستعملها عقوبات صارمة ، ولكن انى لها ذلك ؟ ومن يستطيع ، ان يرقب هذا الخلاء الواسع من الاراضي الرملية في صحاري جنوب العراق ووسطه .

لقد اتيح لي بعض المرات ، ان اشهد صيد الطيور الكاسرة ، فرأيت الصائد العربي في هذا الصيد أيضا لا يحترم شيئا من قوانين الصيد ، وهي وان لم تكن من القوانين المكتوبة ، فالصياد الاوربي يراعي العدالة فيها ، ويعمل بمقتضاها .

ويلوح لي ، ان العربي لا يأخذه الصبر ، فيسمح لهذه الحيوانات ان

تطير في الجو ، فيرميها ، فهو يصطادها حيث ما وجدها ، سواء أكانت جاثمة على الارض ، أو كانت تسد رمقها من حشائشها •

والعربي صياد قدير ، وهداف ماهر ، قلما يخطىء الاصابة في صيده ، وهو يحلق في السماء ، وأمهر من رأيت في صيد الطائر في طيرانه هو الشيخ « موحاس » Mohasse وقد رأيت كلاب صيده ، يطاردون الوحش بمهارة فائقة ، كما تطارده كلاب الصيد الالمانية المدربة •

ومن حيوانات الصيد الكاسرة في العراق الخنازير الوحشية ، فهي توجد بكثرة في الاماكن الرطبة ، والمنخفضات من الوديان في جنوب ما بين النهرين ، وقد لا يبعد ان تكون كثرة هذا الحيوان الوحشي في العراق ناتجة من تحريم القرآن أكله على المسلمين ، وخنازير العراق التي تبدو ، وقد غطاها ثوب أسود ، لا تختلف عن خنازير أوربا السوداء ، في كل مظاهرها ، ولعل الفرق بينهما ، ان شعر العراقية منها أدق من تلك •

ولعلنا نستطيع ان نعلق آمالنا على السلطات العراقية ، في ان توفق الى ان يكون لها موقف معين لمحافظة حيوانات الصيد الوحشية ، التي قلما تؤذي أحدا في هذه البلاد • ولم يكن الانكليز ، ليوفقوا ، في الفترة التي حكموا بها العراق ، ان يضعوا أسسا واضحة لحماية الصيد فيه ، في حين كان لهم في كثير من مستعمراتهم قواعد صارمة لمحافظة الحيوان والطبيعة •

ولقد وجدنا ، ان حيوانات الصيد في العراق ، في العصور الاخيرة ، بدأت تهاجر الى المناطق الشمالية البعيدة ، لتحتمي فيها ، ولم يبق منها في مناطق ما بين النهرين ، الا بقايا لا تكاد تذكر ، فقد كانت هذه البلاد غنية بحيوانات الصيد ، وخاصة في الايام الغابرة التي عاشت في ما بين النهرين دول عظمى ، وهي التي طمرتها عوادي الدهر اليوم تحت الرمال لذلك ،

نأمل اليوم ، ان يحافظ على هذه البقية الباقية من هذا الوحش الجميل وان لا يكون مصيره ، كما آلت اليه حالة الاسد ، وها نحن اليوم ، نرى حمر الوحش تظهر بوفرة فى ايران ، وقد كانت الى عهد قريب مظهر من المظاهر الاعتيادية فى هذه الاراضى الجميلة .

« ١٤ »

الحيوانات الاليفة فى العراق

الحمار

ولئن كان الحمار قد خلق فى هذا العالم ليلاقى الذلة والهوان ، فان وجوده فى العراق قد جعله يرزح تحت وطأة كارثة فادحة ، وينوء بحمل أعباء ثقيلة . فالحمار فى العراق يحمل كل ما يخطر على الذهن من مخلوقات هذه الطبيعة ومنتجاتها ، وظهره النحيف معرض لان يحمّل عليه كل شىء ساعات طويلة . فيرى الحمار المسكين فى السوق ، وقد تدلى على ظهره خصفة من التمر من الجهة اليمنى وأخرى مثلها من الجهة اليسرى وفوقهما حزمة من حطب الوقود ، وعلى منحرف منها يجلس عربى ممتلىء الجسم ، قد احتضن بين فخذيه مجموعة من الدجاج ، ربط بعضها ببعض . وقد لا يبعد ان يكون هذا الحمل اسهل حمولة ينهض بها هذا الحمار الصبور . فقد تعلو ظهره مع هذا العربى زوجته وقد يعلوه كذلك أحد أولادها الذين قد اتعبهم الطريق ، فيسومه بالسياط ، ويتسلق على ظهره ، وهو يسير فى طريقه خطوات وئيدة ، ينوء بحمله حتى يصل السوق . واذ ذاك يتخلص من هذا العبء الذى أثقل ظهره .

وآخر ما تصل اليه أمنية هذا الحيوان ان يحظى بلطف صاحبه فى ان يقدم لعلفه حزمة من الحشيش أو حفنة من التبن ، وهو بذلك من الحمير

المحظوظين • فقد يبقى الحمار أحيانا كثيرة صابرا على مضض الجوع ، ينتظر ان يحل المساء ، ليكون مع رفاقه الحمير ، الذين جانبهم التوفيق مثله ، على مائدة من التبن اليابس ، ثم يروح بعد ذلك الى احدى حفر الماء الراكد ليطفيء ظمأه الذي كان يعانيه طيلة نهاره •

وقد يركب الناس فى طرق العراق الترابية عربات تنقلهم من مكان الى آخر بين الاحراش والادغال ، فيتصدر الحمار لجر هذه العربات • ويشد على ظهور الحمير حزم من جريد النخل ، تكاد تخفى أجسامها ، ويسير هذا الحمار المسكين ساعات طويلة يسحب هذه الحزم المشوكة ، فتشكك جسمه بسلائها ، وتبدو هذه الحزم وكأنها جناحان هضيمان قد تدليا فى التراب وهو ينوء بجرهما صابرا محتسبا •

ويحمل الحمار أيضا حزمات من أشواك البادية ، وهو فخور بهذه الحمولة ، اذ لم يستطع احد الاعراب ان يعلو ظهره معها • والحقيقة ، اننى رأيت ان الحمار فى هذا الجزء من العالم مرهق مكدود ، لم استطع ان أجد له بصيصا من الامل فى تحسين حاله • وهو فى كل الاحوال يعكس لنا صورة ، يتمثل فيها الالم والظلم والاضطهاد • ولم أر حمارا استطاع ان يرفع رأسه أو أذنيه •

وأغلب الحمير مبتورة آذانهم ، اذ بين الفلاحين من يرى ان فى بتر أذنيه القضاء على الامراض التى تصيبه • وكل مظاهر حياته تجعل منه آلة تسخره الى اماتة حسه ، وخنوعه الى حياة الذلة والهوان • وهو حتى فى حياته الجنسية لم يستطع ان يستمتع بها كما تتطلبه غرائزه الحيوانية ، فى حين ان جميع المخلوقات تجد فى هذه العملية الطبيعية مجالا من الوقت لاطفاء ثورتها الجنسية • ولكن هذا الحيوان المرهق يقف أمام غرائزه

الجنسية يحمم ويهمهم من غير ان يجد المجال لاشباعها .

ويقول الحمار فى نهيقه « أياه » وهو فخور متواضع فيما يقول . ترى انا الذى اتحمل كل هذا الوزر ؟ انا لست المنقذ الوحيد الذى يجب عليّ ان احمل على ظهرى المسيح الطفل وأمه ، لاخلصهما من غدر ملك اليهود « هيرودس » ! ولست انا الذى يجب أن احمل معى ابن الانسانية الى القدس ! ولم أكن الزعيم المتقلر الذى يحذر النـاس من الاخطـار ! ويستطيع هو بمعرفته ان يركب ملكا من ملائكة الله ! انا لا استطيع وحدى أن اتحمل كل ما يرزح تحته هـذا الحيـوان الضعيف من آلام وظلم واضطهاد .

« ١٥ »

الجمل

يطلق الناس فى أوربا كلمة الجمل على من يشتمونه بينما فى الشرق ، رمز الشرف ، ولا غرو ؟ فالانسان لا يعرف قيمة الجمل الا اذا عرف مزاياه ومنافعه . ويحلو لى الا ألفظ الجمل كما يلفظه الاوربيين اذ يقولون « كاميل Kamel » وأريد أن ألفظه « كيمل Kämel » اذ اجد فى هذه النغمة ما يحببه الي ، ويرفع من قيمته .

ولاول مرة ، أرى فى سوق الديوانية ، قريبا منى ، ذودا من الابل ، كانت تحمل أكياسا من الحبوب ، جاءت بها الى مخازنها . وكان هذا الذود واقفا فى زحام متشابك ، وبينما كان بعضه يتزاحم بين البيوت ، اذ داهم البعض الآخر قطيع من المعز الاسود ، فأحرجه فى أمره . وكان هذا القطيع من المعز يتراقص بين أرجل هذا الذود ، وهو آمن على نفسه ، فى حين كانت الابل ترمقه كالمعلم الذى لم يستطع ان يحزم أمر طلابه ، وقد انتشروا فى الشارع . فاستثارها هذا الاحراج ، وارتطمت بحزم وصناديق ، كانت فى طريقها ، وقفزت قفزات متتالية ، فاجتازتها ، حتى خلصت من مضايقة المعز نجيا . ولكنها لم تلبث ان داهمها ، وهى تسير فى السوق ، زحام جمع من صغار الباعة كانوا يتشاجرون فيما بينهم ، فوقفت حائرة برهة ، ثم ولت وجهها شطر الشارع الذى هو الوحيد فى الديوانية ، لا تلوى على شيء . ولعل بعض النبت الذاوى الذى لحظته فى بعض أقسام المدينة ، قد ذكرها بنباتات باديتها ،

فراحت مندفعة بسرعة البرق ، ورمت بنفسها وسط قطعة من الارض مسيجة ، قد اخضر الزرع فيها ، وهي التي كان متصرف اللواء يحرص عليها ويفخر بها ، لانه أراد بها ان ينظم البلدة ويوفر لسكانها محلا لراحتهم •

وكان من بين هذا الذود من الابل ، جمل كبير قد استهواه النبت في هذه الارض المسيجة ، فلم يثن عن الرعي فيها ، وراح يقضم ما في متناوله من أغصان شجيراتها ، فتتساقط منها الاتربة والرمال • وبدا عليه الانفعال والتأثر ، حينما سقطت من بين شفرتيه بعض أوراقها على الارض • وكان الناس قد تجمهروا ، اذ أثارهم سلوك هذا الجمل ، فراحوا يحاولون ان يصدوه عن تصرفه المشين ، وأخيرا تدخل معهم أفراد الشرطة • واستمرت المعركة زهاء نصف ساعة ، حتى استطاع رئيس الحرس ان يدفعه بعصا في يده ، كان قد تخذها سلاحا لمثل هذه الحالات • واستطاع هذا الجمل ان يتخلص من هذا الجمع الغفير ، ويلحق بذوده آمنا مطمئنا •

والحقيقة ، ان مواقع المدن لا تعكس لنا شيئا من صور البادية • ولذلك لم يبق لانطباعاتي عن سلوك هذا الذود من الابل أي أثر في نفسي ، حينما رأيتها في محيطها الصحراوي الذي ألفته واعتادت عليه • فقد كنت في الصحراء الممتدة بين الزبير والناصرية ، وانا مار بمواقع خرائب الكلدانيين في « أور » ، قد جلست تحت خيمة شيخ من شيوخ عرب البادية ، احدق في زرقة السماء الصافية وحمرة أفقها في مغيب الشمس ، وكانت الرياح هادئة ومنعشة ، يسمع حفيفها ، تهب من الغرب ، فتخفق على ستائر الخيمة ، وهي من وبر الابل • وكانت طيور البادية تحوم في الفضاء ، تغرد بأهازيجها المفرحة ، وهي تريد ان تركن الى اعشاشها ، فتمر من على رؤوسنا متجهة نحو الشرق • وكانت نسمات الريح تنذر بمفاتيل رملية ، ولكنها هدأت

بعد لحظات ، وساد الجو السكون والهدوء ، ثم حلبت المعزات وربطت الخيل في مرابطها .

وبعد قليل لاح في الافق البعيد قافلة كبيرة من الابل ، تتهادى نحونا ، وهي هنيدة من الابل ، قد يربو عددها على المائة . وقد بدا عليها ان قد عافت المرعى ، تبحث عن الاماكن القريبة من الماء ، وكانت في مشيتها تصور منظرا مغريا ، يوحي بالقوة والحيوية . ومرت بنا ، وكأنها تحسب للوقت حسابه ، فلم يبد عليها الملل ولا الارهاق . وقد كانت ، كما قال لي مضيفنا ، تجد في السير في طريقها منذ أيام خلت ، ولعلها قطعت الصحراء في حدود سوريا بل ولعلها ستستمر في سيرها الى أبعد من ذلك . ومن يدري فقد تجوب تخوم الصحراء بين دجلة والفرات ، فتصل الى العمارة أو الى المحي في غدها المبكر .

وتحتلب النياق عادة في المساء حيث تمتليء ضروعها ، فتكون خطرا على اطفالها ، حينما تروى ظمأها منها . ولها بعد احتلابها ان تسد رمقها بشيء من مرعى البادية . اذ ستنهض في الصباح الباكر ، قبل طلوع الشمس لتقطع المسافات البعيدة ، في طريق تقادم الدهر عليه ، وسلكه من قبل مئات الاجيال المتعاقبة ، في الشتاء وفي الربيع . وسيعود هذا الجمل الى الارض حينما تحين ساعته وسيضع رأسه باتجاه مسير القافلة ، وستدق نواقيس الساعة ، تنذر هذا الجمل ، وهي ترتل نغمات ادعية الصلاة ثم تتخافت اصواتها حتى تتلاشى شيئا فشيئا ، فيطبق عليه سكون البادية ، وهو السكون الابدي . وهكذا تتحقق مشيئة الله في خلقه . فقد خلقته في هذه الصحراء يافعا ، ووجهته الى ان يقضي ايام حياته متجولا بين هضاب هذه الصحراء ووديانها ، وستنتهي حياته فيها ، وكلنا رهن مشيئة الله الذي منحنا الحياة والممات .

• ١٦ •

الجاموس

كان يبدو على السيد « توم » انه قد درس تربية الماشـية ، وخبر ترويضها ، في هذه البلاد ، فصاح يناديني ، ان هيا ، فقد جاءت مئات من الجواميس الى النهر ، وكنت مشوقا ، ان أرى هذا الحيـوان الاليف ، فقفزت من السيارة ، وهرولت مع « ابراهيم » بعد ان تركنا السيارة في مكانها ، وصفرنا الى كلبينا ان يتبعانا ، واتجهنا الى الشاطئ الرملي ، حيث وصلت اليه طليعة هذا السرب من الجواميس •

وطفق مترجمنا ، يصيح بأعلى صوته ان قفوا وهو يريد ان يلقي علينا بعض الارشادات في ما يتعلق بهذا الحيوان ، ووقف لنا احد الاعراب ، يدمدم بلهجته العربية ، ما لم نكن نفهمه •

والسيد « توم » وهو الفارس المغوار الذي تلازم فمه على الجهة اليمنى « لفافته » قد اعتاد ان يتحرى الامور بثاقب بصيرته ، ويستقصي غوامضها بأضوية سيارته الكاشفة ، وهو الذي وجه هذه الآلة الكاشفة ، ثانية ليتحقق عن ما وراء الاكمة فرأى ، ان قد فاجأه فحلان من فحول هـذا الصوار من الجواميس ، قد اتجها نحوه ، ولمح شرر اعينهما يتطاير فزعا ، وهما يديران برأسيهما ذات اليمين وذات الشمال ، ويشخران بأنفيهما • وكأنهما يبغيـانه •

فلم يبد على السيد « توم » بعد ان رأى هذا المنظر المخيف شيء من

برودة دمه ، ووقع فى حيرة من أمره ، فلم يجد مخرجا من هذا المأزق ، غير انه ارتمى فى الماء ، وقد كان قريبا منه مجرى من الماء ، يفصله عن النهر مرتفع من الارض ، فاستطاع ان يجد فيه مخبأ فى حفـرة من الارض ، وصلها بلباسه المبتل ، ثم التفت حوله ، وشتم الجاموس وفحله ، ومحله ، وكان خلفه بركة من المياه الراكدة ، عليه ان يخوضها ، بعدئذ • ثم حاول ، ان يهدئ كلابه فيستعين بها لدرء الخطر عنه ، ولكنها انتحت فى جهة من جهات هذين الفحلين وبقيت تنبح وكأنها تريد ان تشير الى السيد « توم » انها غاضبة مثله ، فلم يكن نباحها يجديه نفعا •

وكان منظر السيد « توم » وهو بلباسه المبتل ، وفى محاولته الفاشلة مع كلابه ، قد أثارتنى وأضحكتنى ، فصاح بى ، وقد ملكه الغضب ، وأعياه التعب ، وقال ، هذا ما يفرحك ، ويضحكك ايها الهولندى المضرب ، ولكنه عاد ، فمسك زمامه ، وبدا عليه الارتياح بعد أن رأى ، ان أحد هذين الفحلين ، قد اتجه نحوى ، بدافع غريزته ، فاندفعت اجرى انا الاخر ، وعبرت مجرى الماء ، واتجهت الى العربى العجوز ، الذى كان منتظرا هذا المشـهد من الرواية ، بحكم خبرته ودرايته ، فقبعت وراء ظهره ، ألوذ بحماه ، وأطلب النجدة منه ، وكنت اذ ذاك اشترى كل ذرة من ذرات عرقه وأبخرتـه المتطايرة من لباسه ، بأغلى الاثمان • وأغلى منها سخرية « توم » وشماتته •

وقد بدأت الآن سخرية « توم » وهزئه ، فراح يشمخ بأنفه عاليا ويتحدجنى بكل جوارحه ، ولاحت على وجهه امارات الشماتة بوضوح • وملأ العالم بأصوات الفرح والسرور ، وراح من نشوته ، يردد ما تجيش به نفسه ، فصاح بأعلى صوته هذا منظر ، لا أحلم ان أرى مثله طيلة حياتى ، انه لمنظر لا تمحى صورته من ذهنى اذ تقبع هذه المائة كيلو من شـحوم

الهولندي وعظامه وراء هذا العربى ، وقد التقت يداه برجليه فبدا شبحا لا يكاد يبين . وحضر جماعة من الاعراب تحدوهم شهامتهم للعون والمساعدة واستطعت بعد لأى ، ان اجتاز هذه الصعاب ، وأخلص بنفسى نجيا .

وبقى المترجم يردد ضحكات عالية ارهقت بطنه ، ثم التفت الي وقال ان الجواميس صعبة المراس ، وانها تثور ، ان رأت غريبا ، أو أحست بشىء لم تألفه .

وعاد « توم » الى سخريته ثانية ، وقد ظهر عليه التشفى ، اذ قال انها من فعلتك الهوجاء وسخفك الهولندى .

فقلت له ، أفكان من الضرورى ، ان تستمر فى تدخين لفافتك ، فتثير هذا الحيوان بدخانها ، ثم تدعى انك مختص بأمور تربية ماشية الشرق الاوسط وبمعرفة طباعها ، والحقيقة انك لا تعرف شيئا من اختصاصك .

وبعد حين سمعت من أكبر الاعراب سنا ممن حضروا الحادثة ، ان الدخان ، لم يكن هو الذى أثار هذا الحيوان ، وانما اللباس ، فلو كنا نرتدى العباءة والكوفية لما توجس هذا الحيوان خيفة منا ولتركنا من غير ان يسىء لنا بشىء .

ولم نكن لنعير هذا التعليل أهمية ، اذ بقينا نحدق بهذا الحيوان الجبار ، وقد أخذ العجب منا مأخذه ، ورأيناه يخرج من النهر ، والماء يتساقط من جسمه الضخم ويتجه بخطاه الوئيدة نحو فىء جدران البيوت الطينية فى القرية ، وهو يبدو حيوان أليف ، قد استكان لنفسه وهدأت ثورته ، ولكنه قد كان وهو يعلك بفكيه ، يمثل الغباء ، والاستهانة .

وكنا ، بعد ان حل المساء ، قد حللنا فى بيت عربى فى الرمادى ، وفيه بدا السيد « توم » مضيافا كريما ، فصب لنا أقداح الويسكى ، وشرب

وشربنا على نخب نجاته ، فقال ، وهو يحتسي كأسه ، اتمنى لك ان تشـهد معركة أخرى مع الثيران الشرقية •

ولم يلبث ان غلبه النعاس ، فغاب عن الوجـود في فراشـه • وكان الفراش قد فرش على خشبة معكرة ، يبدو انها باب قديمة ، لم تعد تصلح للاستعمال • وكان نصيبي في هذه المرة فراش وثير أراح لحمي وهدأ نفسي •

« ١٧ »

الخيل

من القصص الشرقية الممتعة ، ما يتناقله الناس فى الشرق عن خلق الخيل ؛ « ان الله حينما أراد ان يخلق هـذا الحيـوان ، قال للريح ، أريد أن أبرىء منك مخلوقا ، ينافسك فى سرعتك ، وهو يحمل عبـادى فى أسفارهم وتنقلاتهم ، وهو سيحتل من عبادى جل احترامهم وحبهم ، وسيهابه ويرهبه كل من لم ينهج على شرعتى، ولم يأخذ بدساتيرى ثم استدعاه، بعد ان خلقه ، وقال له : انى انا الله الذى قد خلقتك فى هيأتك ، ولم أشأ ان يدانيك شىء من خليقتى ، وقد وضعت بين عينيك كنوز الارض جميعها ، فعليك ان ترد بجبروتك كيد اعدائى وتحطم بحوافرك حصونهم ، وتحمل على ظهرك عبادى المخلصين ، وسـيرافقك التوفيق اينما حللت وارتحلت وقد صورتك فأحسنت صورتك ، ورفعت منزلتك فوق جميع الحيوانات وغرزت فى قلوب الناس جميعا حبـك • فسر على بركتى ، وكن طائرا من غير جناح وقاهرا من غير سلاح » •

والحقيقة ان الانسان لا يدرك ما ينطوى تحت هذه القصة من معانى بليغة ، اذا هو لم ير بنفسه الخيل العربية فى بيئتها العربية • وليس بوسع الانسان ان يتصور فى هذه الطبيعة ابداعا فى خلقها مثل هذا الابداع فى شكل الحصان العربى الاصيل وغرائزه وطباعه • فهو أرقى أجناس الخيل المشهورة بلا نزاع • فهو فى خلقه ، آية فى الجمال والتناسق ، وفى سلوكه مثل من

مثل الشهامة والرفعة والعظمة ، وفى مشيته ساحر أخاذ ، كغادة حسناء ، قد زينها الترف ، فشمخت بجمالها واعتزت بعنفوان شبابها . وهو يرى بعد ان يكرّ ويفرّ فى غارات طويلة متعبة يتلاعب بأذنيه القصيرتين الناعمتين ، ويستدير برقبته بحركات تبعث الاغراء والسحر . ويتابع بنظراته الحادة كل جديد حوله بعينين براقتين ، تعبران عن اعتزازه وانفته .

ومن يتاح له ان يرى الخيل العربية ، كما رأيتها وتمثلتها ، يجزم بانها ليست من تلك الخيول التى روضها الانسان ودرب طباعها بل هى أصيلة الطبع والخلق ، قد خصها الله لعباده المؤمنين وجزاهم بها خير الجزاء .

قلت لاحد الفلاحين اسائله ، لو انعم الله عليك فى هذه السنة ، فرزقك عشرين دينارا ما كنت تعمل بها ؟ فقال من غير ان يتردد أو يتلكأ فى الجواب ، سأشترى بها فرسا يا سيدى ! وقلت ليوسف ، وهو طفل احد الفلاحين ، كان قد قدم لى طاسة من لبن المعز ، ساغ لى شرابه ، قلت له ماذا تريد أن أجزيك على حسن جميلك ، فقال أريد منك ، ايها السيد ، مهرا من فرس الشيخ « موحاس » . وقد لاحظت عليه ، انه لا يمنى نفسه بأكثر من هذه الامنية ، وقد بان عليه ان قد خرجت من أعماق قلبه .

وكان فى الشطرة حفلة عرس ، وكنت انا وصحبى واقفين أمام القرية ، نشهد خروج الضيوف وتدافعهم ، وهم على صهوات جيادهم ، قد اطلقوا لها العنان ، فراحت تطلب مضارب خيامهم ، وكان يتقدم القوم أحد الفرسان يبدو انه رئيسهم ، قد شد على صدره حزاما من عتاد سلاحه وتنكب بندقيته ، وكان جواده الذى امتطى صهوته يزينه لونه الاخاذ ، وهو يتلامع بين أشعة الشمس ، فيبدو ذهبى اللون تارة وبرنزيه أخرى . يراقص الريح بخطوات سريعة متجاذبة ، تتصف بها الخيل الاصيلة وحدها . وكان يتبع هذا

الرئيس رهطه من خلفه ، وهم على صهوات جيادهم ، فكان منظرا يأخذ بمجامع القلوب ، لن يمحى خياله من الذاكرة ما بقيت الحياة .

وكانت سيارة « الجيب » قد أخافت هذا الرعيل من الخيل لاول وهلة ، ولكنه لم يلبث ان انثنى الى جهة أخرى من الطريق ، حينما تقدم فارس وسيم الطلعة على حصان اشهب ، فشتت الخوف والقلق اللذين لاحا على أعين الخيل المتلامعة . ومر الموكب يحيينا بابتسامات مشرقة ، وقد بدا على فرسانه انهم لم يتكلفوا في فروسيتهم ولم يتصنعوا فى اغاراتهم ، فقد كانت ابتساماتهم توحى لنا ، بانهم فرسان شجعان تمكنوا من قيادة زمام جيادهم .

والحق ان من يرى مثل هذه المناظر الاخاذة يدرك المعانى التى عبرت عنها القصة الشرقية بان الفرس وفارسها شيء واحد .

وكانت الخيل ، بعد ان اجتازت عقبة الطريق ، بدا عليها نشوة الانتصار والفرح ، فانطلقت تتهادى فى خببها ، وقد امتاز العربى فى مراقصة الخيل فى خببها ثم اندفعت تطارد الريح .

وأراد « عمر » ان ينطلق بسيارتنا خلف الركب ، اذ اهتزت نفسه العربية لهذا المنظر طربا ، فاستمهلته قليلا ريثما يتلاشى شبح الفرسان فى آفاق السماء .

« ١٨ »

المعز والضأن

يلاحظ بون شاسع بين المعز والضأن فى العراق من حيث الذكاء والفطنة ، فالمعز يفوق الضأن فى هذه الحلبة أشواطا بعيدة • وان فوجىء قطيع المعز بخطر صوت سيارة ، هرول مسرعا يطلب النجاة ، وهو فى هذا الهروب يتميز بانه يأخذ اتجاها واحدا ، ويهرب مجتمعا ، من غير ان ينشطر شطرين الى اليمين والى الشمال ، وهو ان تحسس بشىء غريب ، وقف بثلته صامدا يتفحصه ، ثم ينطلق فجأة نحو جهة واحدة يمينا أو شمالا • ولذلك فالمعز لا يسيء التصرف فى مثل هذه الحالات • فتراه حينما يشعر بان خطر السيارة قد داهمه من جهة معينة حام بثلته حول نفسه وأحاط بالسيارة على شكل قوس ، وبقى يلف ويدور ، وهو يتابع السيارة برهة من الزمن ويسير معها اينما اتجهت • وهو اذ يبغى السلامة والنجاة من هذا الخطر الذى احدق به يتروى الامر أولا ، فيحدق بهذا الشىء الغريب الذى أزعجه وأقلق حريته ، حتى يتأكد من سلامة الطريق وصفاء الجو • ويحل المعز مشاكله بنفسه ، فلا يشعر بالحاجة الى كلب يقوده أو راعى يوجهه ، وهو يتبع ارشادات كباره ويأخذ بتعاليمهم وكأنهم يوعزوا الى قطعانهم ، ان اهدأوا وتحشدوا ، ووجهوا اهتمامكم الى صغاركم • ولا تخشوا السيارة ، اذ لا تستطيع ان تصيبكم بمكروه ، فان حدث ما ليس بالحسبان فأنا أول من يفديكم •

اما شياه الاغنام فتختلف عنها كل الاختلاف ، فهى ان أحست بالخطر ،

فقدت توازنها واسقط فى يدها ، فلا تعرف اين تولى وجهها ، وتهرب هائمة على وجهها من غير ان تعمد الى خطة معينة للنجاة ، ويلوذ ذكورها بأناثها • ولولا تلك الكلاب الضخمة التى توجه سير ثلتها فى نباحها وحركاتها ، لكانت الاخطار تترى عليها من كل حدب وصوب •

فشياه الاغنام من العجماوات المتفوقة فى غبائها وبلاهتها ، وليس لديها حاسة الحذر والدفاع ، فهى تمعمع حيث لا خطر يتهددها ، وان أحدق بها الخطر ، وقفت من فزعها خرساء صامتة لا حراك فيها •

وكان المستشار الانكليزى فى الكويت قد ذكر لى ، انه قد شهد مرة فى أحد مضارب خيام البدو حادثة اختطاف الذئب للغنم • فرأى ان الذئب قد بدأ باختطاف فريسته ، بمهمة تنحية الكلب عنها ، فطارده أولا ، حتى اذا ما اختلى به فى البادية بعيدا عن الشياه وخاض معه معركة عنيفة ، وجدت اثناه المجال لاختطاف ما شاءت من الحمول أو امهاتها ، وسحلتها من الخيمة بعيدا عنها • والذئب ، اذ يعمد ان يجر الكلب بعيدا عن محل حراسته ، يحاول ان يشتت أصوات نباحه فى معركته معـه ، فى أرجاء البادية ، فلا يسـمع لنباحه أثر فى الخيمة ، ولا يحس أهله به والذئب يستطيع اختطاف الاغنام من غير ان يجد صعوبة فى أحكام خطته ، ذلك ان الاغنام تخرس ان هى أحست بخطره عليها ، فتستسلم له من غير ان تمعمع أو تتحرك • وقد وجد أهل الخيمة فى صباح غدهم ان قد اختطفت من شياههم اثنتان ، وقد تحروا عنهما ، فوجدوا بعض عظامهما وآثار الذئب فى مكان بعيد عن خيمتهم • اما المعز فيختلف كل الاختلاف فى سلوكه عن الاغنام ، ان هو احس بخطر الذئب يحدق به ، فلا يلبث ان يثيرها عاصفة من الضوضاء ، توقظ كل من فى الخيمة • والذئاب يدركون هذه الظاهرة فى المعز ، فلا يتقربون اليه ، ويقتصرون فى فريستهم على الاغنام وحدها •

المعز ، فلا يتقربون اليه ، ويقتصرون فى فريستهم على الأغنام وحدها •

ولذلك فان عرب البادية يحتفظون باغنامهم وأحمالها ، اثناء الليل ، فى داخل خيامهم ، وتربط الاحمال بعواميد الخيمة ، ويحتفظ بها فى وسطها وتحوم من حولها أمهاتها ، وتحيط بها الابل الباركة ، كما لو كانت تحرسها • وكثيرا ما يتاح للذئاب ان تختطف من هذه الاغنام بالرغم من كل هذه الاحتياطات ، فتندس بين الابل ، وتنقض على ما تشاء من الاحمال وأمهاتها • وخاصة فى الاماكن التى تكثر الذئاب فيها ، حيث تجبن الكلاب وتخشى بأسها • والابل ، فى هذه المعركة ، لم تجد ما يبرر لها التدخل بين الخصمين • ولعلها فى هديرها ، تثير أوار المعركة بينهما • ولم يعلم حتى الان ، من هو الذى تفزع اليه فى هذا الهدير • والجمل ، كما هو ظاهر حاله ، ليس فى طبعه ميل شديد نحو الذئاب ، وهو الى ذلك لا يهمه من أمر الكلاب والشياه شيء ، اما هذه العشرة الموضعية ، فليس لها أى أثر من والميل فى نفسه •

وقد اعتادت الذئاب ، حين تنقض على فريستها ، ان تمسك بها من مخانقها ، وتعضها بأنيابها ، لذلك أخذ الاعراب يلفون رقاب أغنامهم بقطع من أصوافها ، ليحموها من منابت انياب الذئاب •

ويعنى العرب فى تربية الاغنام والمعز ، ويجنون منها الالبان والاصواف ويتزودون من شياه المعز بالشعر ، ومنه يتخذ سكان الشرق الاوسط مادة أولية لسد حاجاتهم الضرورية • فخيام العرب فى البوادى ، السوداء منها والخضراء ، تصنع من شعر شياه المعز ، وتمتاز هذه الخيام بتلطيف الجو تحت ظلالها فى الصيف وحمايتهم من الامطار فى الشتاء ، اذ هى تمنع تسرب مياه الامطار منها • ويصنع الاكراد من هذا الشعر بسطا للفرش ،

يحلونها بالوان زاهية جذابة ، هى فى الحقيقة تستملحها الاعين ، وتهواها النفوس •

ويبدو على المعز مظهر مضحك ، فيه كثير من الرقاعة والسخف ، فالمعزة فى سلوكها ومشيتها تحاول ان تستجلب الانظار اليها ، كمن يريد ان يفرض احترامه على الناس ، وهى فى حركاتها تبدو عجولة ، كمن كان على أهبة السفر • وأجمل ما فيها صغارها ، اذ تمثل فى قفزاتها قفزات الخيل المدربة ، وقد شـهدنا مرة صوارا من المعز ، كان يرعى فى مقبرة احدى ضواحى كردستان ، فرأيت المعزات يتراكضن بين القبور ، وكأنهن كبب من الصوف الاسود تتساقط هنا وهناك على أراضيها المجدبة •

ويتعرض المعز فى كردستان للانمر الكاسرة ، فتستأثر بعدد غير قليل منه ، ويبدو ان هذه الحيوانات الضارية تفضل افتراس هـذا النوع من الحيوان على غيره •

ويلوح لنا ان جميع الاغنام فى الشرق الاوسط تتميز بأليتها ، وهى قطعة من الشحم متدليـة على مؤخرتهـا • وتعنى بعض المدن بتربيـة المعز والضأن ، وهى تبدو فى هذا المحيط مثل ما اتصفت به فى الريف والبوادى ، ففيها يتميز المعز بالحركة وسرعة التأثر ، ويتميز الضأن بالغباء والبلاهة •

« ١٩ »

فى ضيافة العرب

كان الشيخ « م » قد ولد فى أحد مضارب خيام أبيه فى لواء المنتفك ، وهو لا يزال يتذكر الحملة التى شنها أبوه ، وجمع فيها بنى قومه ، ليخوضوا معركة حامية الوطيس يقاتلون فيها احدى العشائر المجاورة لهم فى هذا اللواء الذى عـدم الراحة والاستقرار ، ولا تزال تستعر فيه نيران الفتنـة والتزاحم والخصام . وكان الشيخ « م » يحاول ان يرينا ، بلغته الانكليزية المشوهة ، صورة تمثل رجال عشـيرته المحاربين الذين الفـوا الحـروب وأحبوها ، وراح يصف لنا رجال قومه الاشداء ، بان المحارب يبدو مدججا بأحزمة الرصاص تزين صدره ، يخط بسيفه الارض ، ويتلامع على خصره خنجره المقوس ، وتعلو كتفه بندقيته الانكليزية ، وهو يمتطى صهوة حصانه العربى الذى يسابق الريح فى سرعته .

ولم يتذكر الشيخ « م » الآن الاسباب التى دفعت عشيرته الى خوض تلك المعركة مع العشيرة المجاورة لها . ومهما يكن من أمر ، فان دوافع هذه المعارك بين العشائر، ان لم تكن منازعات عن المياه، فهى حقد دفين لثارات قديمة ، قد تكون اسبابها سرقة بعض الحيوانات أو الماشية ، فآلت الى قتول فيما بينهم ، وبقيت ثاراتها تغلى فى نفوسهم . وثأر الدم عند العرب يمتد الى أجيال بعيدة .

ويعود بعض المحاربين من هذه المعارك، مضرجين بدمائهم، يحملون معهم

قتلاهم وجرحاهم وقد كظموا غيظهم وضمروا الحقد في نفوسهم ، وتركوا لنسائهم النياح والعويل على من قد فجعن بفقده في المعركة من آبائهن أو اخوانهن أو ابنائهن ، فيلطمن اذ ذاك وجوههن ، ويمزقن ثيابهن ، وينشرن شعورهن ، يعبرن بذلك عما ألم بهن من ألم دفين • وقد يحدث ، في بعض الاحيان ، ان يعود الرجال الى مضاربهم ، منتصرين ، وقد حملوا معهم غنائم العدو ، وهي الماشية ، والسلاح ، وقد تكون أشياء ثمينة أخرى ، ويندر ان تكون النساء والقينات مما يغنمونه في معاركهم وقد لا يجرؤ أحد منهم على هذا السبي قط • فالعرف بين العشائر العربية يقضي بأن لا تمس المرأة بسوء • وقد يصطحبون معهم في معاركهم عبيدهم المملوكين ، وهو ما يشاهد في كثير من الاحيان ، وبعض هؤلاء العبيد من النوبيين وهم الذين أميل ما يكونون الى الصفرة في ألوانهم ، وبعضهم من السودانيين المشربين بحمرة غامقة ، والبعض الاخر من أبناء العبيد السود ، الذين ينتمون الى أعرق الاجناس السود ، جاءوا بهم من أقاصي بلادهم ، وتوالدوا عندهم •

وقد يخطيء الظن ، من يذهب الى ان حوادث هذه القصص ، قديمة العهد في لواء المنتفك ، ذلك ان هذا الشيخ الذي يروي لنا قصصه ، لم يتجاوز الاربعين من العمر • وهذا اللواء لم تزل القلاقل والاضطرابات قائمة فيه حتى الآن ، ويبدو ان سكان هذه المنطقة من العراق يفضلون ان يفضوا منازعاتهم فيما بينهم ، ويحلوا مشاكلهم بأنفسهم ، فيتحملون نتائجها ، وينهضون بمسؤلياتها •

وقبل حين من الزمن ، كانت احدى العشائر ، قد استولت في بضعة أيام قليلة ، على مخفر للشرطة في الرميثة ، اذ كانت الحكومة المحلية تتجاهل

حوادث النزاع فتتجنب التدخل فيه ، اذ هو لا يعدو ، كما يتراءى لها ، ان يكون نزاعا بين شيخين شجاعين لا يريدان ان يتدخل بينهما من لا يعنيه أمرهما •

وكان الشيخ « م » قد سألنى ، والحماس يبدو على محياه ، فقال ، « هلا رأيت أفراد الشرطة فى مخافرهم ؟ انهم جميعا من عشيرتنا ، ولم تستطع الحكومة ان تقهرنا الا بعد ان استعملت معدات حربية انكليزية ، وليس بعيدا ، ان يكون الانكليز أنفسهم هم الذين قهرونا ، فاضطررنا أمام هذه القوات ان ننسحب من المخفر ، بعد ان تركنا كثيرا من رجالهم صرعى • وحين عادت العشيرة الى مضاربها ، وجدت فيها كثيرا من الارامل والايتام » •

ولم يعد الشيخ « م » بعد الآن ، يسكن الخيام فى الصحراء ، فقد حسنت حاله ، ونعمت حياته ، فأشاد له قلعة عربية حصينة على حدود الصحراء ، ولم يألف بعد الآن ، ان يقود المعارك ، ويحيا حياته الاولى التى كان أبوه من قبل ، قد غذاه بلبانها ونشأه عليها • وهو اليوم يستقبل ضيوفه فى صالة واسعة مستقلة ، قد فرشت بأثمن السجاد الكاشانى والاصفهانى ، وقد وجدنا القلعة فخمة فى تنظيمها وفرشها ، وطرز بنائها • وهو الآن قد أصبح غنيا ينعم بثراء طائل ، ويسيطر على عشيرته ، فلا تعصى له أمرا • ويملك من الاراضى أكثر من مائة وخمسين ألفا من الدونمات وهو ما يساوى « ٣٧٫٠٠٠ هكتارا » فيزرع فى كل سنة نصف هذه المساحة ، وتحوى مزروعاته الحنطة والشعير والقطن ، وهو يجنى حاصلات هذا الزرع من غير ان يبذل شيئا من الجهد ، أو يتحمل قليلا من الاتعاب • فأفراد عشيرته هم الذين يحرثون ويزرعون ويحصدون ، ويقدمون

له فی آخر الموسم تصفية الحاصل ، فيصرفه على هذا النعيم والرفاه ورغد العيش .

ويبدو لى ، ان هـذا الرئيس ، يحصـل على ما يتراوح بين الثلمـاية والستماية كيلو غرام من الغلة عن كل هكتار من ارضه ، وهى من الارض الطيبة ، التى تسقى سيحا ، وهو ما تساوى قيمته بالعملة الالمانية ستين الى ماية وعشرين ماركا . وبذلك نستطيع ان نقدر ان وارد هذا الرئيس السنوى لا يقل عن ماية وستين ألف مارك المانى . هذا عدا الموارد التى تدرها عليه تجارة الحبوب والغنم والابل ، وعدا الموارد الاخرى التى يحصل عليها من بيع القطن ، وهى مبالغ قيمة . ورؤساء العرب كما لا يخفى ، لبقين فى التجارة بقدر ما هم عاطلين فى الفلاحة .

ترى علام استند الشيخ « م » فى حيازة هـذه الاراضى الواسعة ؟ وكيف استطاع ان يستولى عليها ، فاكتسب حقه القانونى بها ؟ وكيف استطاع الشيوخ الاخرون الذين هم أكثر منه باعا فى سعة أراضيهم ، وهم كثر فى العراق ، ان يكتسبوا هذا الحق فى ملكية أراضيهم ؟

لقد كان هذا الشيخ فى ما مضى رئيسا على بنى قومه أو على فخذ منه ، لا يجرؤ ان ينازعه فى سلطته أحد، وكان العرف قد حمّله مسؤوليات عديدة، وهى مسؤوليات ، تفرضها حياتهم الاجتماعية ، والدفاعية ، والزعامية ، فهو لذلك ، يحصل من عشيرته على مقدار من محاصيل مزروعاتهم . وهو اذ يأخذ هذا القدر من محاصيل الارض ، ينتفع به قومه .

اما اليوم ، فقد تضاءلت مسؤولياته شيئا فشيئا ، فهو الآن ، يعيش فى نطاق حكم دستورى برلمانى ، جرده من سلطته ، وأخذ عنـه مسؤولياته الاولى ، ولم يبق بيده من سلطانه فى أيامه الاولى ، سوى هذه الجزء من

غلة الاراضى الزراعية ، التى يتعاون على حرثها وزرعها جمع من بنى قومه •
ومهما يكن من أمر فان هذا الحق الذى اكتسبه الآن قد عوضه كثيرا عن
حقوقه العشائرية الاولى ، التى افتقدها قبل حين •

ويجدر بنا ، الآن ، ان نتسائل ، ترى ، الى أى مدى كان تضاؤل
سلطانه ؟ وهل هو فى تنازله عن حقوقه الاولى ، انثنى الآن عن ممارستها
فعلا ؟ وهو لا يزال يرى ، ان الحقوق العشائرية ، والقواعد العرفية المتبعة
بين بنى قومه قديمة جدا ، ولعلهـا فى قدمها ، مثل الشريعة النبوية ، بل
ولعلها أقدم من قوانين الدولة ودساتيرها وهى التى لا يمتد تاريخ نشرها
والعمل بها الى أكثر من عشرين سنة •

وقد لا يبعد ان تكون هناك عوامـل أخرى ، حققت لهؤلاء الشيوخ
ملكيـات واسـعة ولعـل هنـاك بعض انواع أخرى من الملكيـات ، غـير
اننا نستطيع القول ، ان ملكية الاراضى لم تعد حقا من حقوق العشيرة ، كما
كانت فى القديم • بل هى الآن ملك للشيخ وحده ، ضمن ملكية الدولة •

واراني الآن ، وقد حملت الى سفرة مثقلة بالطعام ، مضطرا ان اترك
الحديث عن الحقوق الاولية ، التى اكسبت هؤلاء الشيوخ حق ملكية هذه
الاراضى الواسعة ، ولم يكن على هذه السفرة ما كنت أنتظره من قطعة من
اللحوم المكبوسة أو المقلية ، وانما كان عليها ، ما لست استطيع ان اتشكك
فيه ، اذ حـُملت خروفا مقليا بكامله وهو لا يزال يقلق معدتى من أثر الرعب
الذى أثاره فيّ « عبد » ، فقد قص عليّ ما افزعنى وارهبنى ، اذ قال ،
كان من المحتمل ، ان يقدم لى تجلة بشأنى بوصفى ضيف غريب ، عينا
الخروف المقلى ، فهما رمز التقدير والاحترام لمركز الضيف • فكان « عبد »
فى حديثه قد قطع عليّ شهيتى ، ونغص عليّ لذيذ هذه الاكلة • وكانت

الفرصة سانحة اذ ذاك ، لاتابع الحديث مع « عبد » فسررت اليه اسائله عما اذا كان من الممكن ، ان ارفض هذا التقدير والاحترام ، فاعتذر عن قبول هذه الحظوة ، التي فضلوني بها ، اذ لا استطيع بحال ، ان اتجرع أكل عيني الخروف ، والححت عليه بالرجاء ؛ ان يفهم مضيفنا بذلك • ولم يزد « عبد » ان أشار بالرفض ، ولا أدري أكان رفضه ، قد حاز رضى مضيفنا وقبوله ؟ ولعل هو نفسه لم يعرف شيئا عن ذلك !

ومهما يكن من أمر ، فقد أخذ بي الى السفرة ، واعتذر الشيخ العجوز ، من ان يشاركنا على المائدة ، اذ هو يأكل مع النساء ، وكذلك كان شأن الشيخ « م » اذ لم يجلس معنا على مائدة الطعام ، ذلك ان العادة عند العرب ان المضيف لا يجلس مع ضيفه على المائدة • وليس له الا ان يعد نفسه لخدمته ، ويكون منتبها من اكتفاء الضيف من الطعام ، وقد كان أحد عمومة الشيخ قد أخذ نصيبه من الطعام معنا • ومذ قمنا نسير الى مائدة الطعام ، ونحن نمشي في ممر طويل ، كمشية البط ، أفكر في حديث « عبد » عن أعين الخروف فيقززني منظرها كلما تصورتها ، وتخيلت نفسي كمن حكم عليه بالموت ، فاقتيد الى المقصلة ، وخامرتني الهواجس ، والافكار ، ترى هلا فكر القوم بشيء آخر يقدمونه لضيوفهم غير أعين الخروف ، التي يرونها في نظرهم أمتع شيء وأطعمه •

والحقيقة ، ان هذا الخروف المقلي كان قد وضع على المائدة وقد ملأ صحنا كبيرا وربطت يداه ورجلاه ، ولكنني ، لم أر الصحن قط ، انني لم أر غير عينين ، هما عيناه وقد كانتا أشبه بحجرتين من أحجار العقيق المدورة ، يتلامع منهما البياض والسواد ، وقد ترى أعين الخرفان في الحالات الاعتيادية ، انها تحدق تحديقة مرعبة وكثيرا ما ترى مخيفة تتقزز منها النفس ، أما

هاتان العينان الزجاجيتان لهذا الخروف الكبير فقد كانتا تحدقان بهزء مرة وبخبث أخرى ، وقد ساورنى الهم ، وعاودتنى الوساوس ، فلا أدرى ، ترى ، كيف تؤكل هذه الاعين، فهل هى تزلط بين الطعام، أو انها تقضم بين الاسنان .

ومن عادة العربى ، ان يخدم ضيفه بنفسه ، فكان الشيخ « م » يأخذ صحنى بيده ، ويتقدم نحو الخروف ، فأتابع حركاته بنظرات مرتجفة ، وكأنى ضفدعة ، قد سلبت أرادتها حركات حية « الكوبرا » ، فجمد الدم فى عروقها . وكانت يده تمتد الى أبعد ما فى السفرة . وبدأ ينهش باصابعه من فخذ الخروف ، فرأيت ان قد امتلأ الصحن بأكوام من اللحم ، ولكن عينى الخروف لم تزل فى تحديقتها الخبيثة الهازلة . وقدم لى هذا الصحن الملىء باللحوم وكانت ملامح وجهه تدل على طيب نفسه وحبه لضيفه ، فتقبلته منه شاكرا أنعمه ، وعند ذلك ، هدأت نفسى ، وشعرت بانشراح فى قلبى وانفتحت شهيتى ، ولم يقتصر كرم مضيفنا على تقدمة هذه المقادير من اللحوم فى صحنى ، بل تناول دجاجة مقلية ، وهشمها باصابعه ، وكنت ، وهو يتابع عملية تهشيم الدجاجة ، يتسايل لعابى من بين شفتى قبل ان التقف فخذها بفمى . ثم قدمها لى فظننت اذ ذاك والامل يحدونى ، ان عينى الخروف لم تعد من ضمن مراسيم المائدة ، وكنت قد ملكت نفسى ، واسترجعت قواى ، حينما رأيت العم العجوز الذى شاركنا الطعام على المائدة ، قد امتدت يداه الى رأس الخروف ، فاقتلع عينيه من محجريهما ، وازدلطهما بلهفة وشوق .

وما كان أحرى بى ، ان أحمد لله انعمه ؛ بعد ان أذهب عنى السوء وخلصنى من عينى الخروف ، ولكن عاودتنى الافكار الجنونية ثانية ، فعدت أشكك فى نفسى ، ترى ، أيكون القوم قد احتقرونى ، فلم أعد فى نظرهم

ذلك الضيف الذي امتاز برفعة الشأن والمنصب ! •

وقد سر مضيفنا ، اذ رآني ، وقد أقبلت على الطعام بشهية ، استمتع بلذيذ طعمه ورائحته • والحق ، ان هذا الصحن الذي كان قد ملىء بالرز واللحم والخضر ، قد أثار في نفسي الاعجاب ، وجعلني أرى فيه الحب والتقدير • فكانت عيناي مصوبة نحوه ، بينا لم أر في منسف الرز ما يجلب انتباهي ويثير دهشتي • وكانت الفواكه الطرية آخر ما حملت به المائدة ، وهي في الحقيقة ، لذيذة الطعم والنكهة ، اذ كانت تحتوي على رطب جني ، وبرتقال ، وليمون ورمان ، قد وضعت جميعها في صحن كبير تحمله ثلاثة فتيات عاريات وحينما اقتربت منها ، أمعن فيها النظر ، وجدت ، والعجب قد أخذ مني مأخذه ، ان هذه الفتيات الثلاثة اللاتي قد صنعن من الفضة كن عاريات ، لم يرتدين غير ثوب شفاف ، قد أظهر محاسنهن •

والعرب ، كما نعرفهم ، شعب شديد التأثر ، حساس العواطف ، يستثيره جمال المرأة ، ويملك عليه شعوره ، ولذا نرى ، ان النبي قد أمر كل من آمن به ان يغض الطرف عن رؤية النساء ويتمالك شعوره ، ويتحلى بالجد والوقار • وهذا ما يتعارض مع وضع هذه الفتيات العاريات ، ترى ، من استطاع ان يبدع في هذا الصنع ، وهو يسبح باسم الله ؟؟

وكان الشيخ « م » قد اركبني سيارته الضخمة ، عندما حل المساء ، فعاد بي الى الحلة ، وكنا في هذه السفرة ، قد قطعنا مرحلة في الصحراء فلاح لنا من بين تلولها ووديانها سرب من الضباء ، وقد لمحنا ظلها وهي تطرد بين الوديان الرملية، وهم الشيخ ان يطاردها، فرجوته والححت عليه في الرجاء ، ان ينثني عن رأيه ، ومع اني من المغرمين بالصيد ، فلم أشأ ان يطارد

الشيخ هذا السرب من الضباء ، لانى أعرف حماس العرب وتهيجهم فى طرق الصيد ، فهم يلاحقونه حتى تنهار قواه ، ولا يتركون له المجال للنجاة • فتابعنا السير فى متعرجات البادية ، وكانت أسراب الغزلان تتراءى لنـا ، فنتمتع بمنظرها ، وهى تتابع قفزاتها ، فتختفى تارة ، وتظهر أخرى • وقد كنت أراها وهى تجرى فى منعطفات البادية ، وشعور الحرية يملأ قلبى سرورا ، حتى اختفت عن اعيننا ، كما يختفى الظل ، عندما يخيم الظلام •

« ٢٠ »

الامطار بين العمارة والكوت

كانت السيارة ، التي قطعنا بها الطريق ، من العمارة الى الكوت ، من طراز السيارات الفخمة ، من نوع « الشوفروليت » ولم نلبث ، ونحن في بدء الطريق ، ان فوجئنا بغيوم كثيفة من الاتربة والرمال احاطت بنا ، فملأت أجواء السماء ، وحجبت عن اعيننا كل منظر في الطبيعة . وتأخرت عنا لحسن الحظ سيارة الجيب بضعة كيلومترات ، اذ كانت تحمل امتعتنا مع السائق

وامتعض السيد « توم » من هذا الجو الخانق ، وقال ، انه ليس غبارا انها الارض تكاد تميد بنا فانتثرت ذراتها في الهواء . وأغرب ما في هذا الغبار المتطاير انه لزج ، كالصمغ ، فلم يترك محلا الا وتخلل فيه ولصق به ، وكنت قد وضعت عدة الحلاقة في علبة ، وتركتها في محفظة الامتعة ، واتذكر أني قد حلقت وجهي في مساء البارحة وها هو ذا قد غطى اليوم بطبقة من البقع السوداء وقد لصقت عليه ، فلا تكاد تنحسر عنه .

وبدا على عجلات السيارة ، وهي تدور بين هذه الطبقات من الاتربة والاوحال ، انها لم تعد تحتمل الاستمرار في السير ، وانذرتنا بأصوات لم نكن نألفها منها . وكان السائق ينظر الى الغيوم السوداء ، التي لاحت من بين آفاق الشمال ، وهو ينتظر بوجوم ، ما تحمله بين ثناياها من أمطار غزيرة ، وقد تنبأنا ان سنرى لاول مرة الامطار في العراق ، وهي لاشك

ستلطف الجو ، وتبدد هذا الغبار الخانق • وقد بدا على ترجماننا الاستياء ، وراح يجرها حسرات وتأوهات ثم قال ، هو الله وحده ، الذى يعلم ، عن محل مبيتنا فى هذه الليلة ، ولعلنا سنبيت فى العراء • فطلبت منه ان يوضح لى سبب استيائه ، وان يبين لى اسرار هذه التنبآت الخفية ، فقال ، اتظن ان ستخطو السيارة قدما واحدا اذا ما رشقتنا السماء بأمطارها ؟ وسينتظركم ما لا ترغبون به وستشاهدون ، باننا لا نستطيع ان نسير مترا واحدا • وانهملت الامطار فكانت فى بدئها قطرات ، ثم تحولت شيئا فشيئا الى رذيذ ، فغدا الطريق ، بعد فترة ، وكأنه محل للتزحلق ، وقد غطته رغوة من الصابون ، فلم يعد طريقا يصلح للسير ، وكنا نرتمي تارة الى اليمين وأخرى الى الشمال ، وبالعكس • وكان « ابراهيم » وهو السائق الماهر قد أخذ قيادة السيارة ، وحاول ، وهو يخفي بين ملامحه ضحكات الهزء والسخرية ، ان يسوق على مهل ، وقد كان موفقا حقا ، اذ قد استطاع ، بعد لأى ، ان يتوسط بنا الشارع ، تلاحقنا الاطيان ، حيثما اتجهنا ، فتحيط بنا ، من جهاتنا الاربعة •

ووجم جميعنا ، واقتصر الحديث فيما بيننا على عبارات مقتضبة كنا نرددها وهى ، كم قطعنا من الطريق ، كم سنستمر فى السير • ولولاها لما استطعنا ان نملك انفسنا ولما تابعنا السير • وكنا ، ونحن وسط أكوام من الاطيان تتقاذفنا موجات من الرياح الهوجاء ، قد رأينا وجه « عمر » يشرق بالبشرى ، وقد ظهر لنا من بين منعرجات الصحراء يطاردنا بسيارة « الجيب » التى كانت تخوض عباب أكوام الاطيان غير عابئة بها • وعندئذ ابتدأت الطبيعة تلاطفنا بألاعيبها الصاخبة وحوادثها النادرة ، فكان البرق يتطاير شرره من بين آفاق الفضاء ، فترعد السماء وكأنها تنذرنا بالويل والثبور • وثارت أعاصير

العاصفة وتلبد الجو ، فلم نرى شيئا • وقد لاح لنا عن بعد ، ونحن لا نزال مستمرين في السير ، مظهر من مظاهر قضاء الطبيعـة وقدرها يمثل الحزن والاسى ، فقد كانت سيارة « باص » عربية محملة بالركاب ، قد لفت عجلاتها الاطيان فانحرفت عن الطريق ، ووقفت في انحرافها بين اليأس والرجاء • ولم نكن نستطيع ان نميـل ولو قليـلا عن الطريق المحدوب الذى ليس للسيارة مجالا ان تنحرف عنه قيد شعرة ، والا فانها تنقلب لا محالة في احدى جهتيه فتلاقى حتفها تحت طبقات من الاطيان الرخوة •

وكان ركاب هذه السيارة ، قد حشروا فيها ، وعلى سطحها ، وهم ينظرون الينا ، بعيون يتلامح الخوف من بين جفونها ، وكأنهم قد سلموا أمرهم لما عسى ان يصيبهم ، اذا ما اصطدمت سيارتنا بهم في هذا الطريق المحدودب الذى لا خلاص منه • ولم يبق بيننا وبينهم أكثر من مرمى العصا • وكانت سيارة « الباص » محملة بركابها الاعراب الذين لم يبد منهم غير رؤوس سود متلاصقة • ومثلت لنا السيارة ، وكأنها عربة من عربات الارياف ، قد تكدست فيها صناديق حاصلات المزروعات • واستطاع سائقنا ، ان يتمهل في سيره ، فوقفنا على بعد خطوات منها •

وتنفس السائق الصعداء ، ولسان حاله يقول ، ان لابد له ان يحتفل هذا المساء بعيد نجاته من كارثة كفاه الله شرها • وبقينا قابعين في سيارتنا ، الا السيد « توم » فقد قفز منها ، وهو ملتف بمعطفه المطرى ، وبعد عنها بضعة خطوات ، وبقينا في داخلها ، تتقاذفنا الافكار والهواجس ، فماذا عسانا ان نواجه في هذا الطريق الموحش ، الذى لم نر فيه غير هذه السيارة « الباص » وقد سدت علينا مسالكه ، وليس لنا ان تنحرف عنه •

وكنا قد رأينا زهاء عشرين شخصا من ركاب سيارة الباص قد نزلوا منها ووقفوا فى الشارع وقد شلحوا ثيابهم الطويلة ، فبدت عضلات أجسامهم ، بتعرجاتها وتموجاتها وهم يقدمون رجلا ويؤخرون أخرى فى هذه الاطيان المتراكمة حائرين • وارتمى الركاب من على سطح السيارة ، واحدا بعد الاخر ، وكان معهم خروفان ، قد انزلاهما ، ثم عادوا الى محافظ امتعتهم يسحبونها •

فتساءلت مع صحبي ، وقد أخذتنى الدهشة والاستغراب ، وقلت ، ترى كل هذا الحشد من الناس ، كانوا فى هذه السيارة ؟ وهى لا تزيد سعتها عن احدى عربات نقل الخضراوات فى بلادنا ؟ فقال لى المترجم ، هوّن عليك ولا تندهش من هذا الحشر ، فهو عدد ركابها الخارجين وسترى الذين هم فى داخلها بعد ، وقد صدق قوله ، فقد رأيت السيارة ، وهى تفرغ حمولتها من الركاب وهم يتقاطرون واحدا بعد الاخر من غير انقطاع • وفى كل لحظة يظن فيها ان قد خرج الاخير منهم ، اذا بآخر أو طفل أو عجوز ينسل منها حتى الدجاج كان معهم ، وقد ربطت أرجله وعلق على حافة السيارة ، فلم تكد الدجاجة تستطيع ان تحرك رأسها • وآخر ما رأيناه ، ان امرأتين من النساء ظهر انهما قد حاولتا النزول عكسيا فقد ادارتا ظهريهما عند نزولهما من السيارة ، وكل ماكانتا تبغيانه من هذه الحركة المجهدة ، أن تحتميا من نظرات هؤلاء الغربيين الاجانب فلا تتركان لهم فرصة لاختلاسها، وقد اتيح لهما النزول من السيارة بعد الجهد ، فكان منظرهما أكثر شبها بغرابين أسودين ، وانتحيتا تسحبان اذيال عباءتهما ، نحو زاوية بعيدة فى المنخفض الذى يحيط بالطريق العام •

وقد حاولتا ، بعد ان استقر بهما المقام ، ان تزحزحا البرقع عن

وجهيهما ، بمهارة فائقة لتختطفا نظرة من هؤلاء الغربيين الاجانب وتنظرا الى آخر ما بيّنه هذا الحشد من ركاب السيارة الذين كانت الحيرة تبدو عليهم ، وهم يتداولون في أمر متابعة سفرهم .

وكان كل من « عمر وابراهيم » واقعين في تصرفهما ، فقد نزلا وتوجها نحو سيارة « الباص » واستطاعا ، ان يتمكنا منها ، فدخلا في محاورة مع سائقها ، يقترحان عليه ، ان يدفعاها الى جهة من الشارع ، وكان يبدو على سائق « الباص » ان الامل لا يزال يخامره ، في ان يتابع سيره ثانية . ولم يبد عليه الاهتمام بأمر ركابه ، وما سيصيبهم من كوارث القدر وما سيحدق بهم وبنسائهم وأطفالهم من اخطار تنتظرهم . فذلك أمر لا شأن له فيه .

ثم التفت « عمر » وقال له هيا ! وقد أحكم الخبيث صنعه ، فقد حاول سائقها ، وعمر وابراهيم يساعدانه بدفعها ، ان يدير محركها ، وكان بعض الاعراب من ركابها ، الذين ليس لهم فكرة عن كيفية توجيهها ، قد اشتركوا في الدفع تارة والسحب أخرى ، وبعد الجهد ، استدار المحرك ، ولكنها لم تلبث ان خطت خطوات ، حتى انقلبت في هوة من الاطيان في احدى جهتي الشارع .

وكان السيد « توم » واقفا ، طوال هذا الوقت ، ينظر الى هذا الذي نحن فيه ويبتسم له ابتسامة الهازي، ثم انتفض فجأة ، وجلس القرفصاء على كومة من الاطيان ، وقد بدا عليه الخوف فسقطت من فمه اذ ذاك لفافة الدخان ، ثم نهض وقام يحبو على ركبتيه وهو يسب ويلعن الشياطين والابالسة الذين قد غرروا به ، فاوقعوه في هذه المصيبة . ولكنه ، عاد يسلي نفسه ، وهو يقول ، الحمد لله الذي جعل الامر يتناول معطفك ، وكان معطفي في الحقيقة ، هو الذي أصابه الحيف ، اذ كان ، قد وضعه على كتفه .

وتملك الغضب سائق الباص ، وراح يكيل الشتم واللعن « لابراهيم وعمر » ومن ساعده من ركاب سيارته الاعراب ، الذين قد غرر بهم عمر ، فجعلهم يزحفون بالسيارة ويوقعونها في هذه الهوة السحيقة من الاطيان • وكان قد ظهر على احد الاعراب ، ان اندرته معدته ، فراح ، وهو شاحب الوجه يمشي بخطوات وئيدة ، ولكنها واسعة كمن يتعكز على مسندين من الخشب ، فيرفع نفسه بخطوة في الرجل الاولى ، ثم تليها الثانية ، واتجه يطلب الخلوة بنفسه في منعرجات الارض ثم جلس على قدميه بعيدا ، والتف بعباءته ، وأدار ظهره نحونا ، وظل يختلس النظرة بعد الاخرى ، لئلا يراه أحد منا •

وكنا قد اضعنا قيم الامور ، واعتباراتها حقا ، فهذا السيد « توم » وهو المكتشف البارع ، مد يده في جيب معطفي ، بعد ان تحسس ان فيه علبة من السكاير فتناولها بخفة ، وكأنه الجوالة المتجول الوحيد من بين مواطنيه الذي اكتشف ما كان يبتغيه ، وكان اعتذاره لم يعد ان قال : « كان عليك ان تعمل ما بوسعك ، لحل هذه الامور المشتبكة » ، ثم أخذ يوزع علينا بيده الخفيفة من سكايري • وعندها أبدى العرب استعدادهم لمساعدتنا ، وبعد لحظات تحركت عجلات سيارتنا ، وتابعنا السير في هذا الطريق الذي كان يأخذ بالسيارة تارة الى اليمين ، وأخرى الى الشمال ، وبالعكس ، ونحن نتقلب في داخل السيارة ، كما تتقلب الطيور التي تشتوي بلظى اللهيب •

وكان ابناء الصحراء ، وقد تلطخوا بالاطيان من فوقهم الى أخمص قدميهم قد أثاروها ضجة من الغناء والتصفيق ، وهم فرحين عابثين حينما رأونا ، وقد تحركت بنا السيارة ، تتقاذفنا أكوام الاطيان يمنة ويسرة • وقد كنا نحاول ان نصل في سيرنا الى مضخة ، نصبت على النهر للارواء

رأى « عبد » انها لا تبعد كثيرا ، وكنا نأمل ان نجد فيها مأوى يقينا من سوء المصير الذى يلاحقنا ، وضيافة العرب أو الاكراد ، كما نعرفها لا يمكن ان تخيب آمالنا ، وما كدنا نقطع فى مسيرنا نحوا من نصف ساعة ، حتى لاحت لنا أسوار أكواخ الفلاحين المبثة بالقرب من منصب المضخة ، تحت ظلال النخيل ، وكنا نفضل ان تقتصر الضيافة على ما هو أحب لنفوسنا ، وهو أبسط ما يمكن تقديمه ، وأخيرا كان هذا الشىء البسيط ، قد أثار دهشتنا اذ قدم منسف من الرز مع قطع من لحم الضأن وصحن من الرمان فوقعنا على هذه السفرة مبهوتين ، فالتقفنا كل ما كان عليها حتى نوى الرمان وقضيت بقية ساعات المساء بتنظيف معطفى ، وكان « توم » ساكنا فى هذا المساء قد قبع فى مكانه ، وامتد بكامل جسمه على الارض ، وكفانا شر نصائحه وارشاداته .

« ٢١ »

البدوى والفلاح

ان تاريخ بلاد ما بين النهرين يرينا بوضوح ان النسبة بين عدد الاعراب الرحل والمستوطنين منهم الذين سكنوا فى هذه الارض كانت تتفاوت تفاوتا كليا ، فقد كانت المراحل التى قطعتها البلاد فى تمدين سكانها وتحضيرهم متباينة ، وهى وحدها تصلح ان تكون مادة غزيرة للبحث ، تتسع لعدة مؤلفات قيمة فى موضوعها وتاريخها • وتستطيع ان تتلمس من بين ثنايا التاريخ ، وهو يضم مئات الآلاف من السنين ، ان الاعراب الرحل فى هذه البلاد كانوا يتجولون فى طولها وعرضها ، فى كل مرحلة من مراحل التاريخ ، فلم تمر على هذه البلاد فترة من الزمن الا وكان للاعراب الرحل كيانهم فيها • وقد ترينا هذه الفترات الاخيرة من مراحل التاريخ الحديث ، ان عدد المستوطنين من الاعراب أخذ يزداد زيادة محسوسة ، بينما نرى ، ان البدو الذين يتجولون فى البادية ينتجعون الكلأ لماشيتهم ، قد تناقص عددهم كثيرا ، وهو الآن قد لا يعدو ان يتراوح بين خمسماية الف ، وستماية الف نسمة ، من بين مجموع سكان العراق ، الذين تتراوح نفوسهم بين الخمسة ملايين والستة ملايين •

ويتخذ الاعراب الرحل خيام الشعر بيوتا لهم ، ويعتبرون الصحراء وطنهم فى حلهم وترحالهم • فهم يتوالدون فى هذا المكان من العالم الذى

لا يرون له حدودا ينتهى اليه ، اذ لا يحده فى نظرهم غير آفاق السماء من جهة الشمال ومن جهة الجنوب ، فى الليل وفى النهار ، وفى هذا المكان يجدون مستقرهم ومتاعهم الى حين تستقر أرواحهم فيه ، فيتوسدهم تراب الصحراء ، وتذرى الرياح رمالها على قبورهم ، فتندثر آثارها وتندرس معالمها .

انهم يفضلون خشونة العيش وضنكه فى هذه الصحراء ، فليس فى الوجود شيء أحب اليهم من هذه الوحدة فى صحراواتهم ، والعزلة عن هذه البشرية فيها . فلا يجوسون منخفضات الاراضى الا فى هجير الصيف اللافح ، يرحلون اليها ، ينتجعون مواطن الكلأ لماشيتهم ، وهم فى هذا الترحال لا يفارقون صحراءهم كثيرا ، ولا يتركونها جميعهم . وقد لا يتفاوت منظر هذه المنخفضات المنبتة فى أيام الصيف ، عن منظر صحرائهم كثيرا .

ويرى هؤلاء البدو ان حرية البداوة فى صحرائهم هى أغلى ما يملكون فى حياتهم ، فليس فيها مالك يتحكم بحريتهم ، وليس فيها رئيس يستغل منهم كدهم وأتعابهم ويطالب باعشار منتوجاتهم ، وليس فيها مشاكل فى توزيع المياه تسبب لهم نزاعا فيما بينهم ، أو تجرهم الى معارك دموية تثير فى نفوسهم ثارات الحقد والانتقام والاخذ بالثأر .

وهم على شحة منابع المياه فى مناطق صحراواتهم وقلة الآبار فيها ، يكتفون بقدرها . ويجدون فى شحتها راحتهم فى حلهم وكفايتهم فى ترحالهم . وغذاؤهم فى صحرائهم الحليب والتمر ، وهو غذاء يكسبهم النحافة والرشاقة ، ويزيد فى نشاطهم وقوة أجسامهم ، وصفاء نفوسهم . فتعكس أعينهم شررا من نظرتهم الحادة ، وتمتد رؤياها الى ثلاثة أضعاف

ما تمتد اليه عين الاوربي ، ولهم قدرة على مقاومة الجوع والعطش أشبه ما تكون بقدرة الابل فيها • وحياة الرجال والنساء في هذه البادية لا تعدو ان تناول الشياه والابل والحمير ، ومن يمتلك منهم قطيعا من الماشية ، لابد له ان يمتلك معها فرسين من خيل البادية ، أو على الاقل كلبين من كلاب الصيد ، يطارد بهذين أو بذينك ضباء الصحراء • ويتسلح رجالهم بخناجر مقوسة ، وبنادق تبدو انها من الطراز القديم ، وهذا السلاح لا يستعملونه ، الا اذا اضطروا ان يتوصلوا الى حقوقهم • والبدوي يشعر من يراه بمعاني الحرية ، في صفاء نفسه ، وبراءة قلبه ، وعفة لسانه وقوة شخصيته ، ويتحسس من يلقاه من منظره وتصرفاته انه انسان يختلف عن فلاح القرى والارياف •

وتمثل البدوي في نظرته الحادة حريته وانطلاقه وصراحته ، وفي سلوكه وعيه واعتماده على النفس ، وفي حركاته القوة والعزيمة ، من غير ان يبدو عليه خور أو حياء أو انكماش • وكل فرد في العشيرة يشعر انه عضو مهم في كيانها ، فليست هناك فروق بين أي فرد من أفراد العشيرة وبين رئيسها • ولن يتميز الرئيس على عشيرته بشيء من الحقوق في مظاهر الحياة أو في السلوك ، وليس له على عشيرته غير تقدير شخصيته واحترامها •

والبدوي مؤمن في عقيدته ، ولكنه ليس مبالغا في تقاه وورعه ، وهو يرى انه من عباد الله المخلصين الذين هم أقرب الى الايمان به ، وهم في ربوع هذه الصحراء التي لا يحدها مكان ، من أولئك الذين يحيون بين الجدران في المدن والقرى ، فلا تتسع مداركهم لمعرفة كنه آياته في ملكوته • وهو يقري ضيفه بكل ما يجده من زاد وطعام من كل قلبه فلا تهمه الشكليات ، بل يهمه البشر بوجه الضيف ، والترحيب به ، واشعاره انه بين أهله

وعشيرته . وقد قال لى شيخ من شيوخ البادية ، وانا اضيفه ، أرانى الان مسرورا جدا اذ وجدتنى فى هذه الصحراء ، بعد ان كنت تبحث عنى فيها . ومن عرف هؤلاء البدو وفهم مداركهم وتحسس بشعورهم يستطيع ان يستشف من بين هذه الكلمات ، انها قد صدرت من قلبه ، من غير ان ينمق فى التعبير ، ويبالغ فى القول .

وليس للبدو فى حياتهم الاجتماعية قوانين موضوعة ترتسم لهم فى نطاقها مثلهم العليا ، وانما الطبيعة هى التى غرست فى طباعهم أخلاق البادية وفضائلها ، ففطروا على شرف النفس ودماثة الخلق والصدق والايمان بالله . وما وجدت مرة سببا مهما قل ، أو صغر دعانى الى ان اشك فى صراحة هؤلاء الناس الاشراف . ولن أزيد على ان أقول ، اننى الان متألم جدا اذ أرانى غير موفق الى ان أقضى شطرا كبيرا من أيام حياتى مع هؤلاء البدو الاشاوس ، ولا أريد ان ادعى انهم جميعا فضلاء ، فلا يمكن ان تسود الفضيلة فى ارض ، لم تحدد فيها بعد مقاييس الحكم على الناس ، ولا يمكن ان يملأ ربوعها السلام ، وجوع الماشية فى الصحارى المجدبة هو الذى يتحكم فى سلوك الناس ومعاملاتهم .

وليرى الاوربى نفسه الان أهو يستطيع ان يحتمل الحياة ، اذا ما اشتد به الضر ، وهو فى هذه البحبوحة من رغد العيش ! وقد نستطيع ان نلاحظ أثر هذا الضر فى كثير من الاحيان فى هذه الايام المتأخرة .

وكنت أسائل نفسى ، أفتكون بواعث هذه الفضيلة الخلقية عند البدو ، هى الصحراء نفسها ! أفتكون هى التى اضطرتهم الى ان يتخلقوا بهذه الفضائل الانسانية ؟ .

وقد يبدو للباحث في غور هذه النواحي النفسية ، ان يتعمق في البحث ، ليهتدي الى الاسس السايكولوجية ، التي يبني عليها نظرياته العلمية. ولكننا نستطيع بكل سهولة ان نجد بواعثها ظاهرة بوضوح ، اذا ما أردنا ان نقارن بين هذا البدوي الذي يعيش في صحرائه ، وبين الفلاح العربي الذي استوطن في أرضه وقريته .

فنرى هذا الشيخ الذي دبّ في نفسه بذخ المدينة وترف الحضارة ، قد ترك خيمته في الصحراء المجدبة ، وسكن بيوت المدينة ، حيث تظله أبنيتها الشامخة ، وينعشه هواؤها العليل ، واستبدل سرج خيله العربية ، بالمقاعد الوثيرة المغطاة بأفرشة النايلون في سيارته الفخمة ، فبدت عند ذلك معالم التدهور والانحطاط في حياة البداوة ومثلها الخلقية . وهو شيء طبيعي ، لا يمكن ان نتوقع غيره . وقد شهدت أوربا مثل ذلك . فمنذ ان تطلع الناس في مثلهم العليا الى حياة المدن الناعمة وقصورها الشامخة ، لم تعد الفضائل التي كانت تتمثل في خلق الريفيين، وصفاء سريرتهم، موضع احترام وتقدير. وبذلك أفل نجم أوربا ، وفقدت سلطانها الروحي . وهذا ما نراه اليوم في الحياة العربية .

وليس بعيدا ان نرى من بين الرؤساء العرب ، من لا يزال يشعر بالاعتزاز بمسؤولياته القبلية تجاه بني قومه وعشيرته ، ولكن شعوره هذا مستمد مما يحيط به هنا وهناك من مغريات ، توثق ارتباطه بعشيرته ، وهي مغريات لا يمكن ان يطول بها الزمن ، فقد تتغير ، وتتبدل في فرص ومناسبات بسيطة .

ولن يقف الامر عند هذا الحد ، فقد تطور موقف الفلاح من رئيسه وغدا ينظر اليه بعين تختلف عن ذي قبل .

فهو الان لا يرى فى رئيسه ما يمثل له الزعامة القبلية فى النواحى العقلية والعالمية ، ولا ينظر اليه ، بانه الرئيس المغوار فى الحروب والمعارك ، أو انه رئيس القبيلة الاعلى الذى يحمى ممتلكات عشيرته ، ويحكم فى قضاياها ، ويقضى بين أفرادها . والفلاح الآن يشعر ، انه مغلوب على أمره قد استبد به الشيخ ، وسلبه مجهوده ، وهو محق فى شعوره . فقد أصبح الكثير من هؤلاء الشيوخ ، ينعمون بثراء لم يحلموا به ، وهم الآن ، يستطيعون ان يعملوا كل شيء ، حسب المفاهيم العربية .

وقد ظهر الآن اعضاء جدد فى عوائل الشيوخ ، أخذوا يقومون بدور الوساطة بين البيت المالك وبين صغار الفلاحين ، وهؤلاء هم « السراكيل » ، ولا تزال تتسع الشقة بين الفلاح والشيخ يوما بعد يوم ، ولذلك نرى ان الفلاح ، وهو يرزح تحت وطأة هذه الظروف القاهرة ، ويعتقد فى قرارة نفسه انه مغلوب على أمره ، يختلف عن أخيه البدوى ، الذى ينعم بحياة حرة طليقة فى باديته ، اختلافا كبيرا فى الروحية وفى التفكير وفى سبيل العيش فهو يخشى بأس السركال فى كثير من تصرفاته الشخصية ، ذلك لان السركال ، وهو المتنفذ الوحيد ، الذى له حق التصرف فى تقسيم الارض على الفلاحين يستطيع ان يغنى الفلاح ويفقره متى شاء والخوف اذا دب فى نفسية الفرد ساءت حال الجماعة ، وحكم عليها بالتفكك .

والبدوى فى باديته ، غير هذا الفلاح فى أرضه ومزرعته ، فهو ان تحسس بالجوع ، تحسس معه بنو قومه جميعا ، بينما الفلاح المسكين ، وهو عضو فى عشيرته يخضع لنظامها ، ويعتد بسننها وهى تضم آلافا من النفوس ، نراه يقاسى آلام الجوع وحده ، فهو لذلك ، لم يعد يشعر بقدسية هذا

الارتباط القبلي ، وأخذ ينسل منه نفسيا ، في كثير من الاحوال • بينما ترى البدوي متمسكا بتقاليده مرتبطا بعشيرته ، لا ينفك عنها ، مهما لحقه من ضيم ، ومهما قاساه من ضنك في العيش •

وهاهم الفلاحون اليوم في جنوب العراق وفي وسطه ، يتسللون واحدا بعد الاخر هاربين بأنفسهم من وجه الظلم والاستغلال ، تاركين عشيرتهم ، ومواطن عزهم القديم هائمين على أوجههم ، يطلبون لقمة العيش الحر في مهاوي هذه المجتمعات المدنية •

وما أكثر ما تبين نظراتهم الخائفة ، عن ما في نفوسهم من ألم يكابدونه ، وحسرات يثنون لها ، انها لتعبر عن استيائهم وسخطهم ، وسوء نياتهم ، لما عوملوا به من ظلم واستبداد •

وطبيعي ان ينتبه الفلاح العراقي الى حاله ويفكر في أمره ، وهو الذي قضى حياته ، مساهما في الارض كما يعبر عنه الانكليز في قولهم Share Cropper ، وهو يرى الآن ، ان الحكومة العراقية مجدة ، في اسكان الفلاحين الذين لا أرض لهم وتوطينهم ، وقد بدأت فعلا في تنفيذ خطتها بنطاق واسع •

ومهما يكن من أمر ، فالبدوي راض بحياته البدوية ، شاكر لله انعمه ان منحه حريته فيها ، وهو لا يرضى بباديته بديلا ، وهو لا يرى سعادته الا ان يرى السماء تظله ، فلا يفكر في ان يغير من حياته البدوية شيئا ، حتى لو ملك القصور ، وما فيها من رغد العيش ونعومته •

اما الفلاح الذي قضى سنيه الاولى من حياته يلف ويدور مع شيخه ، فلا يمكن ان يستفيد كثيرا من هذا الاسكان ، الذي هو ضمن نطاق ارتباطاته بعشيرته ، ولذلك فان عملية الاسكان هذه ، توصلنا الى نتائج جديرة

بالاهتمام والملاحظة ، ذلك ان العرب الرحل ، الذين يتطلبون الحرية في حلهم وترحالهم ، يتمكن من نفوسهم الشعور بحب الارتباط العشائري ويزداد تعلقهم القبلي ، في حين ان حصرهم في أماكن معينة ، واسكانهم فيها يؤثر في تفكيك شمل العشيرة ، والاعتداد بها .

وعلى ذلك ، فلا البدوي ، الذي ألف الترحال في حياة البادية ، ولا الفلاح الاعتيادي يستطيع ان يحسن حاله ، ويغني بماله ، ولن يظهر على أحد من هؤلاء واولئك أنه قد ارتفع في مستوى معيشته أو انه قد اشبع جوعه .

غير ان البدوي يفكر دوما ان ما يملكه ابن قومه وعشيرته هو ملكه ، فلا يضيره أن يرى أخا له من بني عشيرته ، وقد أضناه التعب ، في رحلة استغرقت بعض أشهر السنة ، قضاها في لهب الشمس وهجير الحر ، بين ادغال المزارع العراقية ، وهو بعد ذلك لا يحلو له ، الا ان يسمر معه في أمسياته ، ويشاركه في احتساء قهوته . ولن يكون موضوع الحديث ، عن الكسب الا نزرا ، اذ هو يفضل هذه الجلسة تحف به كؤوس القهوة وينتظمه موقدها ، ويملأ قلبه الحنين الى ان يكون تحت خيمته ، فتضمه مع شياهه .

ولو اتيح لي ان أخير ، بين هذه الحياة ، او تلك لم اكن اتردد ، في ان اختار الانضمام الى هذه الزمرة من بني الانسان ، الذين هم يغدون ويمسون أحرارا في هذه البادية ، يحطون رحالهم اين ما شاؤوا ، وليس لهم من متاع الدنيا غير هذه الحرية ، ولفضلت ضنك العيش فيها ، على متع المدنية ومغرياتها . ولقنعت بزادهم البسيط ولاستغنيت عن كثير من مقومات وجود تلك الحياة المدنية .

«٢٢»

عقبات التقدم

لم يبق لنا عصرنا الحاضر ، مسافات بعيدة بعد الآن • فقد كان السفر قبلا ، يكلف وقتا ومجهودا ، فالسفرة المريحة من هولندا مثلا الى العراق ، كانت تستغرق عدة أشهر يقطع المسافر فيها المسافات البعيدة على الارض ، فيسافر من هولندا الى المانيا ، ومنها الى فينا ، فهنغاريا ، فالبلقان ، ثم تركيا ، ومنها يصل الى العـراق • فكان العبور من الغـرب الى الشـرق ، يتطلب التمهل في الحركة ، اذ كنا ، نشاهد فروقا ملحوظة ، في كل مكان نصل اليه ، او نقيم فيه •

اما اليوم ، فقد تبدلت الاوضاع ، وتغيرت معالم الاسفار ، اذ يستطيع الانسان اليوم ، ان يحلق بالطائرة في أجواء الفضاء ، فيرى الاعشاب ، ومراتع الضباء ، وتتلامع أمام عينيه زجاجات نوافذ البيوت ، اذ تزاولها أشعة الغروب ، ثم يخيم الظلام ، ويجن الليل ، فينام المسافرون ، على سرر وثيرة ويسمر اطفالهم ، ويصبح الصباح ، فيرى نفسه في بغداد • وماذا ينتظره المسافر ان يرى فيها ؟ انه سيرى النخيل تومىء اليه بالبشر والترحاب ، وسيشاهد الحمير تنوء بأثقالها ، والابل ترغوا بهديرها ، والناس تدأب في أعمالها ، انه سيرى مناظر ساحرة ، تعيد له ذكرى « الف ليلة وليلة » ، ويكاد المسافر ، يرى نفسه انه في هذه السفرة القصيرة التي لم تستغرق أكثر من ثمانية

ساعات ، قد تراجع بضعة عصور من الزمن الى الوراء ، ولو انـه سيشاهد السيارات الفخمة تسير في الشوارع الرئيسية ، وخطوط البرق ، والتلفون ، تتراحم على أعمدتها ، والطريق المريح ، الذي يطالعـه من محطة بغـداد الرئيسية ، فيقوده الى محل اقامته •

ولو انه أراد ان يحط رحله في سهول أربيل ، أو في وديان نمرود ، بدلا من محطة بغداد الرئيسية ، لرأى ان سفرته قد حملته الى عالم آخر ، يعود به الزمن الى قرون خلت •

وقد سبق ، ان قال الشاعر الالماني « كوته » « انه من الصعب على الانسان ، ان يرى ما قد وضع أمام قدميه » وما اصدقه في قوله !

والحقيقة ، ان الانسان يتـأثر أول الامـر ، كمـا تتأثر الزجاجات الحساسة ، بتسليط النور عليها ، وهو قد يبتسم هازئا ، ان هو رأى بعينيه تلك الصور التي تذكره بحكايات ، كانت تقصها عليـه أمـه ، وهي من الحكايات التي صاغها الشرق وسطرها في كتبه ، أو من حكايات الكتب الدينية ، التي تبدو له مظاهرها في الايام الممطرة • وهانحن قد تبدو لنـا صورة الحلاق ، وهو يدور في الشارع ، وصورة الفارس ، وهو يمتطي صهوة جواده ، ملتفا بعباءته ، وصورة عيون المرأة الشرقية الحادة تتلامع من خلال برقعها ، وصورة السائل المستجدي ، وهو واقف امام باب الدار ، قد تبدو لنا هذه الصور جميعها مألوفة ، لا تثير فينا دهشة أو استغرابا • ولكننا نشعر بأثرها في نفوسنا ، حينما نصطدم بها ، ونلتقي واياها على صعيد واحد ، وعند ذلك نتحسس بالحاجة الى ان ندرس اسرار هذه الحياة التي بدت غريبة علينا ونتحفز عندئذ الى بحثها ، وكأن احدنا بحاثة مستشرق يهمه ان يسبر غورها ، ويقف على خفاياها •

ولكننا فى أكثر الاحيان لن نتطرق فى بحوثنا الى النواحى العقليـة والنفسية ، التى قامت عليها مدنية الحياة الشرقية نفسها ، وكثيرا ما نبحثها من حيث المبادىء الاساسية ، التى بنيت عليهـا مدنيتنا الغربيـة التى عرفنـاها وألفناها . لذلك لا ندرك من كنه هذه الحياة الشرقية الا النزر اليسير .

وتبدو لنا مشاكل الحياة الشرقية واضحة فى منعرجات الشـوارع فى المدن والقرى وفى حقول المزارع ، وفى مظاهر الناس وسلوكهم ، فنرى فى العراق ، كثيرا من المواطنين البؤساء الذين يعانون الجوع والمسكنة . ونرى فيه الفلاح لا يزال يحرث ارضه بفدانه الذى تقادم الدهر عليه ، ونقرأ فى عيـون الناس ، جماعات وأفرادا ، ما يكابدونه من أمراض وأوباء قد فتكت بهم ، فشلتهم عن الحركة والعمل ، ونرى كذلك اناسا يجلسون فى الشوارع عاطلين ، فنلحظ من بين أعينهم ، ان قد قاربت نهايتهم .

ونحن حينما نرى هذه المشاكل فى حياة الشرق ، نتساءل مستغربين ، ترى ، لم لا يغير هؤلاء الناس ما بهم ؟ ولم استكانوا لهذه الحياة المريرة ؟

وقد يبدو لنا ، نحن الغربيين ، ان علاج هذه الامور سهل لا يحتاج الى عناء كبير ، فمن الطبيعى ، ان المريض يجب ان يعالج حتى يشفى ، وان الشارع ، يجب ان يبلط ، لكى يتخلص الناس من مياهه الاسنة وقاذوراته ، وان الاطفال ، يجب ان يبعدوا عن فضلات الحيوانات وقاذوراتها لألا تتلوث أجسامهم بأوبئتها ومكروباتها ، ونحن نعتقد ، اننا بهذه الوسـائل نستطيع ان نخلص الناس فى هذا العالم الشرقى من بؤسهم ، ونقودهم الى شاطىء السلامة ، حيث العيش الرغيد ، والمدنية المريحة .

والحقيقة ، ان هذه السبل لا تقوى على ان تغير من جوهر حياتهم ولا تكفل لنا تحسين أحوالهم وانقاذهم من هوة شقائهم ، ونحن لم نزد بهذه

السيل على ان غيّرنا أوجه مظاهر الحياة ، وأخفينا وراءها حقيقتها المرة ، التي يعاني الشعب ويلاتها ولا يبعد ان يكون كثير من شباب العراق المثقف الذين قد درسوا في خارج العراق ، فرأوا العالم واطلعوا على آفاق المدنية الحديثة ، فطمحوا الى ان يصلوا ببلادهم الى مثل المدنية الحديثة ، وقد رأينا ، ان كثيرا من محاولاتهم ، التي كانوا يبذلونها في رفع مستوى شعبهم ، لم يكتب لها النجاح .

ولذلك ، نرى ان بعض الشعوب الاوربية ، كالانكليز والهولنديين ، الذين استطاعوا منذ عصور خلت ، ان يحتكوا بمختلف طبقات الناس ، الذين هم لم يزالوا على بدائيتهم ، ولما يستضيئوا بعد بنور الحضارة والمدنية ، يدركون صعوبة تغيير أحوال هذه الجماعات البدائية ، ومحاولة رفع مستوى حياتهم . وهم لذلك يتحاشون ، ان يمدوهم بأي غذاء روحي يرفع من شأنهم ، ويزيل عنهم كابوس الجهل والشقاء . لانهم لا يستطيعون هضمه .

فهم يعلمون حقيقة نفسية هذه الجماعات أكثر مما يعرفها ابناؤها المتعلمون من رجال ونساء ، ممن درسوا وتثقفوا في انكلترا وفي امريكا ، أو في أي بلد أوربي آخر ، ثم عادوا الى بلادهم ، وهم يحملون آراء حديثة ونظريات قيمة تصلح ان تكون أسسا قويمة للاصلاح والتطور . ولكننا نراهم بعد حين ،ان قد دبّ في نفوسهم اليأس ، اذ لم يستطيعوا ان يحققوا ما كانوا يهدفون اليه ، ولم يروا شيئا من نتائج أعمالهم ، التي كانوا ينتظرونها بفارغ صبرهم فيميت اليأس طموحهم ويتركون الامور تسير كما كانت من قبل وعندئذ يرون ان هذا الدور الذي لعبوه في الاصلاح ، قد أساء كثيرا الى ما كانوا يبتغونه ويهدفون اليه .

ويبدو ، ان الامريكان ، على العكس من ذلك ، فهم يحاولون دوما ، ان يغذوا هذه الشعوب المتأخرة ، وينشروا بين ربوعها الاصلاح بكل ما أوتوا من قوة ، ويرون ، ان لابد ان تحرك فيهم القوى البشرية ، ليستفيئوا بنور العلم والمدنية ، فهم ينظرون الى هذه الجماعات البشرية ، نظرة استخفاف واستهزاء ، فان رأوا ، أمام أعينهم حقولا ، يجهد فلاحوها أنفسهم ، بحرثها بأفدنتهم البالية ، فلا يقلبون من ترابها الا قليلا ، وهم يقاسون حرارة الشمس ، ولهيب هجيرها ، صاح هؤلاء الامريكان ، بغير وعيهم ما هذا السخف والهراء ، لم لا تحرثوا ارضكم « بالتركتورات » الحديثة ! .

وهم اذا ما رأوا طريقة ارواء الفلاحين أراضيهم ، اذ يتقابل شخصان منهم ساعات طويلة ، يدلون بدلوهم الذي كانوا قد حاكوه من سعف النخيل ، فيغرفون به حفنة من الماء ، ثم يسكبونها في حفرة ضحلة ، يبغون ان يسقوا بها خضرتهم ، أو شجيراتهم ، ترى الامريكان يفقدون توازنهم ، فيصبون جام غضبهم على هؤلاء البؤساء ، ويرمونهم بالحماقة والجنون .

وان هم رأوا ذلولا قيما ، يقطع السير في خطواته تمنوا لو ان يقطعوا عنقه في مكانه ، وراحوا يكيلون اللوم لصاحبه ، ترى ، لم لا يستبدله بسيارة حمل ، فهي أنفع له وأسرع من جمله وأرخص ثمنا منه واذا ما أراد أحد ، ان يناقشهم في آرائهم ، ويبين لهم ، بان هذه الاصلاحات الجديدة ، لا يمكن ان يكتب لها النجاح في مثل هذا المحيط الضيق ، سمع منهم ما لا يرضيه ، اذ لا يلبثون ان يصارحوه ، بانه ممن لا يريدون الخير للناس ، وانه ممن يريد ان يعيش الغرباء على حساب المواطنين الضعفاء ، يستغلون كدهم واتعابهم .

والامريكي يقول : يجب ان نبدأ بالاصلاحات التكنيكية أولا ، فهي التي تمهد لكل اصلاح آخر ، ولا أزال اتذكر ما قد سمعته من احد السياسيين

الهولنديين ، كان قد وصف أحوال الجماعات المتأخرة فى الشرق الاوسط ، فشبه أوضاعهم الاجتماعية بثلاثة دوائر ، ترتكز كل منها على الاخرى ، فالاولى ، وهى التى تقع تحت الاثنتين ، كبيرة الحجم ، اشبه بعجلة عربة الحمل ، وعليها تقع الثانية ، وهى أشبه ما تكون بصحن نأكل فيه ، وعليها ترتكز الثالثة ، وهى لا تزيد فى سعتها على كأس من كؤوس القهوة • وكل من هذه الدوائر الثلاثة ، تغطى بعض أقسام الدائرة التى ارتكزت عليها ، فالدائرة الصغيرة العليا تمثل طبقة الملاكين والمتمولين وأصحاب النفوذ وهم الذين على اتصال دائم مع طبقة الحكام فى أكثر الاحيان والدائرة التى تحتها تمثل الطبقات المتوسطة ، وبين هذه الطبقات يكمن الاذكياء من المواطنين ، والموهوبين منهم •

ويتقبل أفراد هاتين الطبقتين كل تغيير أو تجديد ، فأبناء المتنفذين يستطيعون بحكم أحوالهم الاقتصادية ، ان يدرسوا ويتثقفوا فى البلاد الغربية • وهم فى كثير من الاحيان ، يضطرون الى الاتصال بطبقات الشعب الدنيا والمتوسطة •

اما الدائرة الكبيرة ، التى تقع تحت الدائرتين ، فهى تمثل الطبقات العامة من الناس وهم العمال والفلاحين والفقراء والمساكين ، ويكوّن الفلاحون القسم الاعظم منهم وهم الذين لا يملكون أرضا ، ولكنهم يزرعون اراضى أسيادهم من الملاكين والشيوخ وليس لهم من كدهم وأتعابهم غير جزء يسير من محاصيل الارض ، وقد يكون بين هذه الطبقات من الناس اتصال مع الجماعات المتنفذة ، والطبقات المتوسطة ، فيتاح لهؤلاء فى مراكز مدنهم ان يثيروا كوامن الحقد والاستياء فى نفوس هؤلاء الدهماء من الناس ، بما لديهم من وسائل الدعاية والاغراء •

وقبلا كان بين الشيوخ وفلاحيهم الذين هم من عشيرتهم ، روابط قوية

كالروابط القبلية بين الاعراب الرحل في باديتهم ، وقد لا يبعد ان لم يزل شيء من بقاياها الآن • غير ان هذه الروابط بين الرئيس ومرؤوسه قد ضعفت كثيرا منذ ان بدأ الشيوخ يستقلون بانفسهم في قلاعهم أو في بيوتهم ، ويركنون الى الترف والبذخ ، ويتركون أمور عشيرتهم الى تصرف الوسطاء ، وهم السراكيل الذين لهم حصة في المنتوج الزراعي فلم يعد هؤلاء الفلاحون يشعرون بقيم تلك الروابط القبلية ، وأخذ أثرها يتضاءل في نفوسهم شيئا فشيئا ، ولهم في ذلك أسباب وجيهة •

ان الاراضي الزراعية الخصبة في العراق قليلة جدا ، وليس مرد هذه القلة في الاراضي الخصبة ، الى طرق الارواء في مشاريع الري التي تزيد في ملوحة الارض وسبخها فحسب ، بل هناك أغلاط كبيرة في طرق الزراعة من الناحية الطبيعية التكنيكية ، وهي أغلاط كلما تكررت ، أزادت في سوء استغلال الارض ، وهذه الاغلاط هي انعدام البزول في العراق فهي في رأينا أهم الاسباب التي اضعفت الاراضي ، وهي وحدها تستطيع ان تسيطر على انتاج الارض ، وتحسين حاصلاتها •

وتكاد تكون ملوحة الاراضي ، هي التي أفقدت الاراضي الخصبة قابلياتها الانتاجية • فعافها الفلاح وبقي عاطلا ، وراح يبحث عن وسيلة أخرى للرزق ، فحدا به الامر الى ان يرحل عنها ، وبذلك انفصمت عرى الارتباط بينه وبين عشيرته ، فلم يعد يهمه الانتساب الى بني قومه كما كان قبلا • فهاجر عدد كبير من الفلاحين تاركين أراضيهم ، وقد ولّوا وجههم نحو المدن الكبيرة ، وتبدو لنا هجرة هؤلاء الفلاحين ، بوضوح ، في جنوب العراق ، وخاصة في العمارة على ضفاف دجلة ، وفي الفرات كذلك ، في القطاع الذي يبدأ من سامراء الى الرميثة ، ويمثل هذا العدد الكبير من المهاجرين

ظاهرة من ظواهر التردى فى الاوضاع الاقتصادية والزراعية فهم لم يتركوا ارضهم ، الا بعد ان يئسوا من العيش فيها . فالتجأوا الى المدن الكبيرة ، يطلبون الحياة .

وها نحن نرى اليوم هذه الاكداس من البشر ، قد حطوا رحالهم فى الاراضى المحيطة بمدينة بغداد ، والبصرة ، وهم آلاف مؤلفة من عائلات الفلاحين ، قد تخذوا لهم فيها أكواخا من الطين ، يأوون اليها ويحاولون ان يعيشوا فيها بأى شكل من الاشكال ، وانتشروا فى أحياء المدينة يبحثون عن الرزق فكان اتصالهم بالمدينة ، واحتكاكهم بالناس فيها ، ورؤية مظاهر المدنية بين شوارعها ومنعرجاتها ، قد غير كثيرا من تفكيرهم فى معانى الحياة ، وجعلهم ينظرون الى قيم الحياة ومثلها ، نظرة تختلف عن نظرتهم الاولى .

ويرى الواحد منهم نفسه ، انه من أسعد خلق الله ، ان استطاع ان يحظى ببقرتين أو جاموستين ، يستغل حليبهما وزبدتهما ، فيبيعه فى المدينة ، ويجمع فضلاتهما ويضعها على سقف كوخه ، لتصهرها أشعة الشمس ، ثم ينزلها الى أسواق المدينة .

وتقع أكواخهم فى أراضى منخفضة ، تكاد تكون مجمعا لمجارى المدينة القذرة قد تشبعت بالعفونة ، حتى لكأنها ترى وسط جيف ، تعبث بها الميكروبات وتنبعث منها الروائح الكريهة .

والحقيقة ، ان الانسان ليحار فى قابلية هؤلاء المعدمين ، وتحملهم العيش وسط هذه المناطق الموبوءة ، وقد لا يبعد ان تكون هذه القابلية البشرية لغزا من ألغاز الطبيعة . ويرمى سكان هذه الاكواخ فضلاتهم فى المياه الآسنة التى تحيط بهم ، وترى وجوههم ، تعلوها صفرة ، تنبىء عمّا ينتاب أجسامهم من أمراض الملاريا ، والتراخوما والبلهارزيا ، وغيرها .

ويعيش هؤلاء الاكداس من الناس فى هذه المستنقعات ، ولا يعلم عن عددهم أحد ، وقد يسمع من الافواه بأن عددهم يتراوح بين الستين والثمانين الفا من النسمات . ولو أتيح لهؤلاء المساكين ان يملكوا جهازا من « الراديو » أو لو هيىء لهم من أخيار الناس من يسدى اليهم النصح الارشاد ، فيرفع من مستوى عقليتهم ، ويدلهم على نواحى ضرهم ونفعهم ، لانتفعوا به ولغيروا من احوالهم ، غير انهم يسيرون فى حياتهم الى الحضيض ، كلما سار بهم الزمن .

واذا كان فى العراق جماعة من الناس يظنون ، أن المبادىء الشيوعية لا يمكن ان تجد لها مرتعا فى هذه البلاد الاسلامية ، أو يكتب لها النجاح فيها فانني استطيع ان أقول ، وانا حر الرأى ، بانى أشك فى هذا التفاؤل كثيرا ، واعتقد بان فى العراق رهط من الناس ، يشعرون بالعواقب المؤلمة ، التى سيتحمل وزرها الجيل القادم فى اتجاهاته السياسية .

ونرى من ناحية أخرى ، ان الفلاحين قد بدأوا ، هنا وهناك ، يثيرون المعارك مع شيوخهم ، وملاكيهم ، حتى اتسعت شقة الخلاف فيما بينهم ، فتطورت الحالة الى ان اصبح بعض اصحاب الاراضى لا يستطيعون الحصول على حقوقهم من محاصيل الزرع ، بل وقد بدأوا يخشون بطشهم ، وقد يكون من الصعب جدا ، ان يعرف مكمن هذا الخلاف الدفين أو تفهم اسبابه ودواعيه ، وهو لا شك ، يحتاج الى زمن طويل حتى ينفذ صبر الفقراء فيشتد حقدهم على الاغنياء .

ونظرة العراقيين من عرب وأكراد الى معانى الشرف والعزة ، غير نظرتنا اليها فهناك بون شاسع بين نظرتينا الى المثل العليا للشرف والكرامة . فطلب الثأر تمتد جذوره فى نفوسهم الى أبعد حدود الماضى ، وهو يبقى فى

كثير من الاحيان يغلي في قلوبهم ، وقد يكون هو الدافع الرئيسي الذي يحرك عواطفهم واحساساتهم ، وهذا ما لا نفهمه نحن الاوربيين ، ولا ندرك معناه ، بينما يعتبره العربي أمرا تتوقف عليه حياته وكرامته ، وهو يحفزه دوما الى ان يطفيء ما يتأجج في نفسه من نيران الحقد والانتقام .

وقد يلتجيء العربي في بعض الاحيان ، الى السلاح لاسباب تافهة ، فيندفع الى ان يهاجم به صاحبه ، اذا ما أحسّ منه أن قد مس كرامته ، وقد يرى كرامته قد مسّت ، اذا حجزت عنه المياه ، أو اذا أهينت أخته أو لحقها الضرر ، والمرأة هي على الدوام ضحية المعركة ، وقد يكون سبب هجومه أحيانا نزاع طفيف حول سرقة اعتيادية ، فهي وحدها تكفي ، ان تثير في نفسه حب الانتقام ، فيندفع الى هجوم أعمى ، لا بصيرة فيه ، وخصوصا اذا كانت الاشياء المسروقة يعتز بها ويحبها .

وقد لا يكون بعيد النظر من يذهب به الظن الى ان الاقطاعية في تقسيم الاراضي ، هي وحدها السبب المباشر ، في تردي حالة الفلاح وتدهور أوضاعه . ذلك ، اننا لو حاولنا ان نغير من نظم هذا الاقطاع في تقسيم الارض وأجهدنا أنفسنا في ان نعمل به في أقصر زمن ممكن ، فهل سيجني الفلاح من هذا التغيير ما يغير حاله ويرفع من شأن حياته ؟ وهل ترى سيكون أحسن حالا مما هو فيه الآن ؟ وهل ستتحقق الاصلاحات التي ننتظرها ؟ فترفع من مستواه ، وتنقذه من بؤسه ومسكنته في أمد قصير ! هذا هو موضوع البحث والنقاش .

ولقد رأينا ، في حالات كثيرة ان الترفيه عن الفلاح ، وتحسين أحواله الاقتصادية لا يقطعان دابر هذا النظام الاقطاعي ، فكثيرا ما أصاب بعض المعدمين من الفلاحين شيء من الاراضي ، ليساهموا في هذا الاصلاح الاجتماعي

السريع ، بل وكثيرا ما حاولت بعض الحكومات اعمار مناطق من الاراضى البور ، وهيأت لها جميع وسائل الرى ، وجعلتها صالحة للزراعة ، واستطاع هذا الفلاح المعدم ان يحصل على ما يساوى خمسين هكتارا منها ، ولكنه ما ان شعر بالرفاه ، وحسن المقام ورأى انه مالك نتاج أرضه من الحاصلات ، حتى ركبه الغرور ، وبدا جمع من أقاربه وبنى عمومته الفقراء يلتفون حوله ، يباركون له فى زرعه وثروته الجديدة فكانت النتيجة ، ان استعاد التاريخ نفسه ، اذ اصبح هذا الفلاح المالك رئيسا على من التف حوله من فقراء قومه ، وترفع عن مزاولة الحرث والزرع وأخذ هذا الجمع من بنى عشيرته دور الفلاحين يشتغلون لحسابه ، مقابل حصة لهم فى الناتج .

والذى يتبين لنا من النظام الاجتماعى السائد فى الشرق الاوسط ، على العموم ، ان الفرد لا يفكر الا بنفسه ، ولا يهمه فى حياته سوى ان يجد من متاع الدنيا ما يكفيه ، ويريحه ما امكن ولا يمتد أمله الى أكثر من أن يحصل على وارد يسدّ به أوده ، وسيبقى هذا النوع من التفكير سائدا فى روحية الافراد ، زمنا آخر .

والفرد يرى ، ان الله هو الذى سيسبغ عليه ما شاء من نعمه ، وهو الذى يوسع عليه رزقه ، فتجد أحيانا ان صغار الفلاحين ، المساهمين فى حاصل الارض ، يتركون حراثة الارض ودياسة الزرع بل وحصاده احيانا الى أشخاص آخرين بأجرة زهيدة ، وهم لا يندفعون للعمل ، الا اذا جدت لهم حاجات جديدة وضرورات ملحة ، ولا يثيرهم شىء الا اذا حدثت أمور هامة لا ينفع معها جهد العامل والاجير ، وهم مع كل ذلك يركنون دائما الى حياة سهلة تتوفر لهم فيها راحتهم ، كيفما واتتها الظروف والصدف ، فقد يقضى العربى بعض الساعات فى مقهى بسيط يدفع فيه بضعة افلاس ،

طيلة مدة مكثه فيه ينتظر ان يرى أحدا من معارفه ، أو اصدقائه ، وهو لا يبغى من وراء هذا اللقاء ، الا ان يجد الفرصة ليدخن معه سيجارة من التنباك الرديء الذى لا طعم فيه غير مرارة الفم ، ولكنه يستطيع بها ان يبدد بعض الوقت وقد يشغل فراغه ببعض اللعبات المتعارفة فى هذا المقهى •

وتلعب المرأة العربية دورا مهما فى حياة الفلاح ، فهى تمثل شرفه وعزته ، ورفعته ، بل وهى عنده أغلى ما فى حياته ، وقضية فقدانها أو ضياعها تتوقف عليها الحياة أو الممات ولكننا نجد كذلك ، مع كل هذا الحرص الشديد على المرأة ، ما نسمعه على ألسنة الفلاحين أنفسهم ، ما يسمونه بنات الهوى ، على حد تعبيرهم ، وهن فى الحقيقة خبيرات بأحوال الناس ، يستطعن ان يقتنصن فرص القوة الشرائية جيدا •

وكان قد سألنى مرة احد الملاكين من الشيوخ ، وهو ممن زار الغرب وتثقف فى مدارسه ، ومعاهده ، ماذا تنتظر من التقدم العمرانى فى هذه الاراضى الحلوة التى لا يشتغل فيها الفلاح غير ثلاثة أشهر من السنة فقط ؟ وهل تستطيع أن تدلنى على نظام اقتصادى يوفر الحياة للناس ، وهم عاطلون عن العمل ثلاثة أرباع السنة ؟ واستمر يقول ، وها هو الفلاح ، يحرث ارضه ، وينثر بذوره ثم يسقى زرعه ، ويبقى ينتظر مشيئة الله ، حتى ينبت الزرع وينمو ، حتى اذا تكامل نموه ، عاد اليه ثانية يحصده ويدوسه وينظفه • ثم تجرى قسمة المحاصيل ، فيدفع نصيفته ، ويأخذالبقية الباقية منه، هذا هو كل عمل الفلاح ، فتراه يركن طيلة أيام السنة المتبقية الى الراحة والكسل ، ويترك لزوجه وأولاده رعى الاغنام وحلب المعز • ترى ، كيف يمكن ان نتغلب على هذا الفقر المدقع فى هذه القرى والارياف ؟ والفلاح هو الذى يسعى اليه بنفسه ، وكيف يمكن ان تحيى هذه الاراضى ، ويشملها

العمران ، وليس فيها من يساهم في انعاشها غير هذا الفلاح الذي لا يشتغل الا ربع ايام السنة ، انه الكسل والبطالة ، هما اللذان قد ساعدا في تدهور حال الفلاح وانحطاط مستواه .

وقال لي الفلاح ، وهو يرد على أقوال الشيخ وادعاءاته ، ماذا تنتظر من الفلاح ؟ ها انني املك عشرين دونما من الارض أحرثها وأزرعها شلبا وشعيرا ، فلو تركت لي حاصلاتها ، لجنيت منها « ٦٠٠٠ » كيلو من الحبوب ولاستطعت ان اعيش بها عيشة فيها الرفاه والرخاء ، ولوفرت منها للبيع ، ما استطيع ان ازود به نفسي وعائلتي من اللباس ومقتضيات الحياة الضرورية الاخرى ، ولكنني الآن ، ارى نفسي ، انني يجب ان ادفع نصيفة هذا الحاصل ، الى صاحب المضخة ، لانه هو الذي يروي الارض بالمياه التي ترفعها مضخته من النهر ، والمضخة ملكه ، ويتحتم عليّ كذلك ، ان ادفع خمس هذه النصيفة المتبقية أو ربعها أحيانا الى الشيخ ، وان هو زودني بالبذور في موسم الزرع يقتطع مني نصيفة حصتي المتبقية . وبذلك أكون قد دفعت الى غيري من حاصلات هذه الارض التي انعم الله بها على ثلاثة ارباعها ، وهي لا شك نتيجة جهودي واتعابي ولو اتيح لي ان اشتغل طيلة أيام السنة ، فانا ملزم كذلك ان اقدم ثلاثة أرباع نتاج مجهودي الى غيري ، لا لا ، كفاني هذا الجهد وتلك الاتعاب مؤونة العيش في الحياة ، وليشتغل في بقية أيام السنة صاحب المضخة والشيخ انفسهما ، اذا ارادا الربح الكثير . فسكت ، ولم استطع ، ان اعترض على شيء مما قال .

ولقد رأيت ، من حسن الحظ ، ان بين الفلاحين والملاكين من يشذ عن هذا النظام اذ قد ادرك جماعات من المزارعين ، من عرب وأكراد ،

ممن يمتلكون الاراضى الواسعة انهم يجب ان يسايروا العصر الحديث ، ويراعوا حقوق فلاحيهم ، لئلا يشعروهم بالغبن • فوجدتهم يهتمون بأمور فلاحيهم الذين هم من ابناء شعبهم ، ويحاولون ان يستغلوا كل ما جاءت به المدنية من المخترعات ، لتصنيع مزارعهم وتخفيف الاتعاب وتوفير الوقت والجهد لهم ولفلاحيهم ، فاشتروا المكائن للحرث والحصد والدياسة ، واهتموا بحصة الفلاح ، اذ جعلوها تتناسب مع اتعابه وكرامته ، وتضمن له حياة ، يتوفر فيها الشعور بالراحة والطمأنينة •

وقد لاحظت ان ارتباط الفلاح برئيسه ، عند الاكراد ، أقوى منه عند العرب بكثير ، فهذا الشيخ حازم بك فى كردستان ، يمثل المزارع النموذجي الحديث اذ رأيته ، يتحرى عن أماكن الحبوب الجيدة ، فى استراليا وكندا ، وشاهدت حقول مزارعه ، فوجدتها مثالا للتنظيم والاتقان ، وهى لا شك ، تدل على فكر جوال وعقلية راجحة ، ويشاركه فى نتاج هذا الزرع أفراد عشيرته ، ولذلك فهو يعيش معهم ، من غير ان يكدر صفو حياته شيء يتعبه ، وهم يشعرون برضا وارتياح ، وهو يشتغل معهم كأحدهم ، ويرى فخورا بما يملكه من المكائن الحديثة التى أقامت له هذه الحقول النموذجية •

وهو ، الى ذلك ، متصل بالعالم ، يتابع التقدم فى البلاد الزراعية ، ويتعقب تطوراتها ، فيعرف كل ما جد فى العالم ، ويدرك جيدا ، قوى المحركات الاندفاعية فيقضى عليها فى مهدها •

والحق ، انه الرجل الذى قل أمثاله مع الاسف الشديد • فهؤلاء هم الذين سيشقون الطريق لنهضة زراعية حديثة ، ترفع مكانة العراق ،

وهم الذين سيعبدونها للاجيال القادمة ، وما أشد حاجة العراق الى أمثال هؤلاء البناة •

ومهما تطورت الاوضاع في الشرق الاوسط ومهما كان أثر الاحداث العالمية في تقدمه ، فالذي لابد منه ، ان يشتدّ التسابق بين عاملين اثنين في قطع المسافات الزمنية للاخذ به نحو التقدم ، أولهما تغيير عقلية الناس وثانيهما طرق الاصلاح العملية •

فكل عراقي مثقف ، يرى متأكدا ، من غير ان يداخله الشك ، ان لا يمكن ان تستمر الاوضاع في سيرها على هذه الوتيرة ، وهو ، وان لم يقو على ان يعمل في تغيير هذه الاوضاع القائمة ، أو ان يبعث فيها اصلاحات جذرية ، فانه يميل على الاقل الى ان يشترك في تغييرها ، ويساهم في بعثها ، وتخليصها من هذا التسيب الفكري والاجتماعي • وقد يكون ممكنا ، ان تنبعث هذه النهضة الاصلاحية ، من غير ان تتعرض البلاد الى رجات ثورية ، وحوادث دامية ، كما كان الحال في بعض البلاد الشرقية ، فقد كانت الحركات الاصلاحية في « سيام » قد مرت فيها بسلام من غير ان تتعرض لاي حادث دموي • ولكن العربي يميل في أخلاقه الى الاندفاع والهجوم ، ويغلب عليه الطمع ، فهو لا يتساهل في أمر يراه من حقه ، ويدافع عنه دفاع المستميت ، ولذلك لا يمكن ان يعرف ، فيما اذا كان سيمر هذا الدور من غير ان تتعرض البلاد الى رجات واصطدامات دامية •

ويكاد يكون معدل الفرد العراقي لا يؤمن بمساعدة الغير ، ولا يثق بصراحته ، وهو ينفر منها ، خاصة ، اذا ما قدمها اليه من يشك بنواياه ،

وتدل على ذلك تعابيره التى تسمع بين الفينــة والفينــة ، مثل « لقد جربنا الاستعمار ، الذى ينشد السلام ، وخبرنا غاياته » و « السياسة المغرية ، التى تنشد الحرية » و « الاموال الاجنبية التى تتقاطر من الخارج » وهو اذ تطفح على لسانه مثل هذه التعابير ، يكشر لها عن انيابه .

والحقيقة انهم واثقون بضرورة هذه المساعدات ويشعرون بحاجتهم اليها من صميم قلوبهم ، ويرون ان لابد لهذه التشكيلات الجـديدة فى دولتهم الفنية ، من مساعدات أجنبية ، فى النواحى الاقتصادية والاجتماعية ، والتبادل التجارى فى الاشياء التكنيكية ، ووسائل الرى الحديثة ، وغيرها من الامور التى لها اتصال بنهضة بلادهم ، لكنهم يتطلبون هذه المساعدات الخارجية ان تكون عن طريق البلاد المستقلة التى ليس لها فى بلادهم ميول سياسية ، ولا يريدونها عن طريق الامبراطوريات الكبيرة ، التى لها مطامع سياسية تهدف الى توسيع امبراطورياتهم على حسابهم . وقد لا يبعد ان تكون بعض الدول العظمى شاعرة بذلك .

وها هى مصر ينظر اليها كافة الشعوب فى بلاد آسيا الصغرى نظرة اكبار واعجاب . فهم يرونها بلد النهضة والتقدم فى الشرق الاوسط ، ففيها العلماء ، والمعاهد العلمية ، وفيها الشعراء والفنانون ، وفيها النهضة السينمائية والموسيقى الحديثة ، وفيها الحركة القومية والشعور الوطنى ، وفيها الوعى والتحسس بالعزة .

وحينما كنت فى الناصرية ، وانا منطرح على سريرى ، على سطح بناية البلدية ، أشاهد فلما مصريا ، مغربيا ، تعرض مشاهده فى الهواء الطلق فى

حديقة مجاورة ، اذ ذاك تحسس الترجمان « عبد » فقال لى : ما ابدع هذه المناظر ؟ الا تشاركنى باعجابك بها ، فقلت له ، نعم انه لفلم جميل ، وجذاب • فرد علي ، اليس كذلك ، وقد كان فى الحقيقة ، هو الاخر ، يمثل فلما مصريا •

« ٢٣ »

الفلاح جعفر

يزرع الفلاح العراقي ارضه موسما ويتركها بائرة في الموسم الآخر . وأهم ما يلاحظ في زراعته انه لم يستبدل محراثه القديم الذي عفى الدهر عليه . فهو لا يختلف عن محاريث القرون الاولى التي ترى بقاياها في المتحف العراقي اليوم ، بأكثر من اختلاف قطرات الندى . ومثل هذه المحاريث البدائية لا تقوى على قلب الارض وحرثها ، ولا تصيب من طبقاتها غير ما ظهر منها . ويلاحظ على هذا المحراث ، انه لا يعدو ان يكون سنا من الاسنان الحادة يشخط في الارض ولا يعمل فيها شيئا . ويرى الفلاح في فدانه يحوم حول أرضه من غير ان يتعمق في غورها . ويطفح البشر على محياه ان رأى السماء تسقي أرضه بمزنة من أمطارها ، وهي في شمال العراق أكثر منها في جنوبه .

كان « جعفر » في صباح هذا اليوم الباكر قد خرج الى حقله مع حماريه الابيضين وفدانه ، وكانت السماء قد جادت في الليل بأمطار غزيرة ، فارتوت ارضه . وبدا عليه انه يريد ان يحتفظ لزرعه بما أمكن جمعه من مياه السماء ، فشق له بعض الفجوات لتتجمع فيها المياه . وكانت ارضه التي حرثها بكرا ، لم يزرعها الا في الخريف بشيء قليل من الشعير ، وقد هلكت غلته لشحة الامطار ، ولم يبق في بيته الآن من ذخيرة زاده شيء ،

ويخشى ان تضطره الحاجة الى ان تمتد يداه الى الحبوب التى ادخرها للبذر فى هذا الموسم ، فهو يريد ، اذا شاء الله ، ان يغالب الحياة ما امكنه ، ليستبقى هذه البذور لزرعه ، والا فان مالك الارض سيضطره حينئذ الى ان يستلف منه البذور ، وبذلك تتضاءل حصته من ناتج الارض ، فلم يبق له منها غير جزء يسير ، كما هو حال السنين الماضية •

ويكاد ينتهي ما ادخره جعفر من التمر لبقية أيام السنة ، وهذا ما آلمه وفت فى عضده • اذ كان يظن ان يقتات هو وعائلته بهذا التمر مع الحليب الذى تدرّه بقرتاه الهزيلتان وبعض معزاته مدة طويلة من الزمن • ولابد ان تعيش زوجتاه وأولاده الاربعة مهما كلفه الامر ، فقد أقضهم الجوع وذوت نضارة أوجههم •

وقد يظن الانسان ان زوجتيه تتمتعان بحياة منعمة ، ولكن جعفر يرى فيهما شيئا آخر ، فالزوجتان دؤوبتان على العمل ليلا ونهارا ، كفرسى رهان ، وهو لذلك لا يحتاج الى من يساعده فى أعماله الرئيسية • ومهما يكن من أمر ، فان جعفر يبدو ان قد اكتفى بهذه الخمسين دونما من الارض فلا يشعر بعسر فى عيشه من غلتها ، لو كانت الظروف تواتيه فى كل مواسم الزرع ، فسنة قحط واحـدة تكفى ان تقضى عليـه وتدمر حيـاته ، وهو الان يرى ان موسم الامطار قد قاربت نهايته ، وها هو زرعه يبشر بالخير ، فقد بذل جهده فى زرع الخمسة والعشرين دونما بالشـعير وبقليـل من الحنطة ، ولكنه بدا قلقا ، فمياه النهر منخفضة ، ومضخة الماء بعيدة عن زرعه ، فلابد لمياهها ان تقطع مسافة حتى تصل الى حقله • واذا لم تسعفه السماء بمدرارها ، فلن ينتظر حاصلا جيـدا • ويأمل جعفر ان يحصـد زرعه فى مايس ، وبينه وبين موسم الحصاد لم تزل بعد عشرة أسابيع ، وهو يعرف

جيدا ان حليب حيواناته سيأخذ بالجفاف ، اذا ما شحت الارض بعشبها وليس له ان يعيش الا من التمر ، ولم يبق منه الا القليل • وهو يعرف كذلك ، انه فى أسوأ الاحوال ، يستطيع ان يلتجيء الى لحوم الارض من الفطر والكمأة اللتين سبق له ان رآهما هو وبعض رفاقه فى قسم من الارض • ولكنه مع ذلك قد علق رجاءه على ان تشمله رحمة الله ، فتكفيه شر هذا الاملاق • ولو كان سركاله ، قد اقتطعه فى العام الماضى جزءا من الارض التى استغلها لزراعة القطن ، لكان قد ادخر من واردات حصته بعض المبالغ ، ولكنه لم يفعل •

وبدا جعفر ، يحوم حول فدانه ، وهو يعلق عليه آمالا جساما ، وكانت الافكار تنتابه ترى ماذا سيفعله ، اذا ما جنى من حاصلات زرعه عشرين أو ثلاثين دينارا هذه السنة ؟ قد يكون هذا المبلغ يكفيه ان يقتنى حصانا ، وهو آخر منيته فى حياته ، ولابد له ان يصلح بندقيته أيضا • وقد يبقى بعد ذلك ان يمتع نفسه بملذات الحياة ومسراتها ، وأحلى ما فيها ان يجلس فى مقهى القرية ، ويدخن النرجيلة بين رفاقه ، ويلعب معهم بعض اللعبات المحببة اليهم ، وهو يفكر فى أمر خلخال زوجته « نورية » ، الذى هو زينتها الوحيدة، فقد كان قبل سنين مضت اضطر الى ان يبيعه فى السوق أثر لعبة جرّه اليها غباءه ، ويرى ان لابد له ان يستعيد شراءه لها •

وقد كانت « نورية » غضبانة آسفة ، لانها فقدت هذا الخلخال الذى جاءت به معها من كوخ ابويها ، وجعفر يتذكر هذا الخلخال ويرى ان لابد له ان يدفع بدله مبلغا جسيما ، فكانت هذه الافكار جميعها تردد فى مخيلته ، وكلها أمور تخصه • وترى نورية ان لا مفر له من ان يبيع بعض شياهه ، ولكن جعفر ، وهو الفلاح الريفى القديم ، يعتز بأمواله التى هى عنوان مجد

الفلاح وشرفه • فهو يتجنب كل ما من شأنه ان ينقص ثروته ويسيء الى كرامته ، الا انه من جهة أخرى ، يرى نفسه انه الوحيد من بين الفلاحين الذى ترك زوجه عاطلة من الزينة ، فأغلب الفلاحين لا يهمهم أمر ما يمتلكونه من الثروة زادت أو نقصت بقدر ما يهمهم ان تفاخر نساؤهم بزينتهن وحليهن ، وليس من بينهم من يخطر بباله أن يترك زوجه من غير أن يكون لها حلية تتزين بها أمام الناس فى غدوها ورواحها ، اذ ان ذلك يدل على الفقر والبخل •

ولكن جعفر يعود الى فكره ثانية ، فلا يرى معنى لهذه الزينة التى تتطلبها النساء من الحجول والاساور ، اذا هو أراد حقا ان يسلم بان الالعاب التى يقامر بها لا فائدة منها أيضا • ويعود جعفر الى نفسه مرة أخرى ، فيرى ان كل ما جال به فكره يكلفه ثمنا غاليا ويرهق حاله • واولى به ان لا يأبه بذلك ، فانه ليسره ان يرى الحبوب فى مزرعته قد اينعت وبشرت بالخير ، ويرى حماريه الابيضين فى صحن داره ، وهو الى ذلك ، تساوره الاخيلة والاحلام ان يرى نفسه حرا طليقا ، قد تخلص من سيطرة شيخه وسركاله عليه ، وان يكون ممن قد واتاهم الحظ ، فظفروا بقطعة من الاراضى التى توزعها الحكومة على الفلاحين ، فتهبها لهم ، ويعود جعفر فيتذكر بأن مثل هذه الارض لا يمكن ان تباع •

وبقيت هذه الافكار تساور جعفر ، من غير ان ينتهى بها الى شيء • وكان أخوه قد رافقه التوفيق فاستطاع ان يحصل على قطعة ارض من الحكومة، فكانت هذه الحظوة التى نالها أخوه ، قد أثارت فى نفسه الحسد ، بل وكأنها قذى أصاب عينيه ، أيملك أخوه مائة دونم من الارض الزراعية ، بمياهها السيحية وفيها أشجار من الفواكه أيضا ؟

وكان جعفر ، وهو يزاول سقي مزرعته قد انقطعت سلسلة أفكاره ، اذ قد رأى فجأة حركة جديدة ، فقد وقفت سيارة في أرضه ، وخرج منها ثلاثة أشخاص احدهما عراقي ، واثنان أوربيان فجلسوا على حافة ساقيته وتناولوه باسئلة لم ينضب معينها ، فهم يريدون ان يعرفوا كل شيء ، كم يمتلك من الارض ، وكم هي حيواناته ، وكم عدد أفراد عائلته ، وكم كان سقم من أرضه ، وماذا ينتظر ان يجني من حاصلها ، وكم يدفع الى شيخه والى سركاله وكيف يفكر في انفاق ما يدخله من المال .

وبدا لجعفر ان هذه الاسئلة الكثيرة لا يمكن ان تكون عديمة المغزى ، وهي لا يمكن ان تعدو أحد امرين ، فاما ان تعني رفع بدل الماء ، أو تقليل حصته من الحاصل ! فرأى أولى به ان يدعي الفقر ، ويظهر بمظهر المسكنة ما امكنه ، ولا يضيره وهو الرجل العربي الشريف اذا تجنب الصدق في هذه المرة ، وتعمد الكذب ، فهو لذلك كذب في كل أجوبته وتفنن في كذبه ، فقد ادعى ، ان ليس له امرأة في هذا الوقت ، اذ هي قد ماتت وخلفت وراءها اطفالا صغارا ، وهو الان يعاني الامرين مع أطفاله ، وليس له من متاع الدنيا غير حمار واحد ، فلا يملك شيئا من الشياه أو المعز ، اما الدراهم فلم يرها بعينه ، ولم يمسكها بيده ولو مرة واحدة . كذلك هي غلته ، فلم تكفه مؤونة عيشه . وانكر كل شيء ، وبالغ في ديونه المتراكمة عليه ، واشترك أخوه في الحديث عن مبالغ الديون التي عليه قبل ان تهبه الحكومة قطعة الارض ، فقال ، ان الفلاح المدين لا يرغب فيه ، فكانت كلمته كالصاعقة ، نزلت على رأس جعفر .

ولكنه عاد ، يفكر في أمر هذه الاحاديث مليا ، ترى ماذا تعني زيارة هؤلاء الاشخاص الغرباء ؟ ألا يمكن ان يكون لها علاقة بمشاريع الاسكان

الحكومية ، فكان موضوع الاسكان قد لقي هوى في نفسه ، واخيرا جعله حذرا في كل حديثه . وقد حاول المترجم ، كثيرا ، أن يوضح له غرض هؤلاء الاجانب من حديثهم معه ، فكان من الصعب جدا ان يفهم شيئا من كلام المترجم ، وكل ما أدركه من حديثه ، انه لا يعدو ان يكون كذبا وتلفيقا . فقد كذب هو في كل ما قال ، ولم لم يكذبوا عليه ، وقد كانوا قد سجلوا في مذكراتهم كل شيء سألوه عنه ، ثم تركوه وارتحلوا .

ولم يكن جعفر قد رأى في حياته ، ان قد حطّ في أرضه جماعة من الاجانب ومكثوا لحظات قصار ، ثم ارتحلوا عنه ، وأكثر ما حير فكره هذه الاسئلة الكثيرة ، التي تدل على شوق ورغبة ، في ان يعرفوا كل شيء من أفراحه واتراحه .

وكان السركال قد حضر بعد ذلك ، وعلى وجهه امارات الانزعاج ، فعمد جعفر ان يضرب صفحا عن موضوع الاسكان ، اذ لم يرد ان يستمع اليه السركال ، فيصيبه منه ما لا يرضيه . ذلك ان الشيوخ والسراكيل لم يرتضوا عمل هذه الحكومات العراقية ،فهم يرون في مشاريع توزيع الاراضي على الفلاحين حرمانهم من كد هؤلاء الدهماء من القوم الذين سيجدون في هذا التوزيع محلا يأويهم وحياة يرتضونها .

ورغم كل ما كان ينتظره جعفر في هذا الموسم من جودة الحاصل ووفرته كان الامل يداعب أحلامه في ان يستزيد من غلته ، ويدفعه الى ان يضاعف مجهوده في حقله .

« ٢٤ »

بين الفقرات

كيف انت يا يوسف ، وكيف حال الزرع فى هذه السنة ؟ عساه يبشر بالخير !

ليس بالكثير يا سيدى ، انه لا يكاد يسد أودنا ، وانحس منه سيكون الموسم القادم !

وكم عليك ان تدفع من حاصل الزرع الى صاحب المضخة ؟

انه ليأخذ منه أكثره !

أفلا تدر عليك الدجاج والحليب ، يا يوسف ، شيئا من المال يعينك فى حياتك ؟

ان البيض تستأثر به زوجى ، واما الحليب فلا تكاد تدر الشياه منه شيئا فى هذه الارض الجدباء .

هل انت فقير معدم ، أم انك قادر على تمشية أحوالك ؟

فتحسر يوسف وقال ، اننى فقير معدم ايها السيد الرضى ! وسأبقى كذلك ، وبدا على ملامحه الاستياء والالم .

أفلا تطمح يا يوسف ، ان تحسن حالك ولو قليلا ؟

ان الامر لا يتعلق بارادتى ، انها لمشيئة الله . فهى التى تدبر الحال !

* * *

وكنا ، ونحن فى سيارتنا ، قد التقينا بقافلة لا تبين نهايتها ، وكانت هذه القافلة خليطا من الابل والدجاج والحمير والكلاب والاطفـــال قد جاءت من قلب الصحراء واتجهت نحو سامراء وسلكت الطريق العام ، فانتشرت فيه وحجزت على المارة كل مسالكه ، فلم تتزحزح عن الطريق ، خصوصا الكلاب التى اعتادت ان تطارد الصيد فى الصحراء ، ولذلك لم تعبأ بنا ولا بسيارتنا . واشتد غضب السائق وراح يشتم ويسب ، واضطر اخيرا الى ان يوقف سيارته . حتى هدى الله من بين أشخاص القافلة بدوية أزاحت عن طريقنا حمارا ، كان محملا بالدجاج وكلبين من كلاب القافلة ، فاستطاع السائق ان يجد له طريقا فى هذا الشارع العام ، ولم يقو السائق « حسن » على ان يكتم غضبه ، فصاح بها قائلا ، الا كان عليكم ان تتركوا الشارع للمارة ؟ ماذا تعملون بهذه الكلاب الكثيرة ؟ وقد ردت عليه البدوية الجميلة بنغمات هادئة جذابة ، اذ قالت له ، لعلنا نريد ان نزود بها العالم .

* * *

كان اصلاح الاراضى فى الباكستان ، من الاسباب التى أثارت بين زعماء العالم الاسلامى كثيرا من النقاش والحوار فى هذا الموضوع . وكان المحافظون هم الذين يعارضون الخطوات السريعة فى هذا الاصلاح ، وقد أثير نقاش حاد بين أحد الموظفين المصريين ، وبين أحد الذين يمثلون وجهة نظر باكستان ، وكان كل من الطرفين يتحمس كثيرا لتدعيم وجهة نظره ، ويتخذ من آيات القرآن براهين وأدلة تؤيد رأيه .

* * *

وكان قد أحاط بنا نفر من الفلاحين ونحن جالسين على مقربة من

قرية الرميثة ، على قارعة الطريق الموصل اليها ، يبدو عليهم ضنك العيش وضيق ذات اليد ، ومكثوا حولنا يندبون حظهم ويشكون لنا من أمور كثيرة ، قد خالجت نفوسهم ، وكان أحدهم قد أفاد فى شكواه ، انه لا يملك غير ثلاثة من الاغنام فقط ، وحينما هممنا بالرحيل قام هذا الفلاح الذى لا يملك الا ثلاثة من الاغنام ، ووقف أمامنا ورجانا ان نزوره فى كوخه المتواضع ، وقال ، انه يريد أن يذبح لنا أحد خرفانه الثلاث ، اذا ما تنازلنا لقبول دعوته فى زيارة كوخه • وكنا قد ظننا ان مثل هذه الدعوة يجب ان ترفض ، فرأينا على ملامح وجهه الشحوب والالم بعد اعتذارنا عن قبولها • وبعد برهة سألنا « عبد » عما اذا كان هذا الاعرابى مجدا فى دعوته ! فقال ، نعم لقد كان مجدا حقا ، فقد أسر الي ، قبل ان يدعوكم ، ان سيشوى لنا قطعا من لحم الضأن ، يكاد يسيل من رائحته اللعاب •

* * *

وفى زاوية ضيقة رطبة من سوق بغداد كانت قد علقت قطع ممتازة من فرو الفهود ، وكان يحرس هذا الفرو المغرى قزم من الرجال بدت عيناه تتحركان ذات اليمين وذات الشمال ، كحركات أعين الجردان ، ولقد وددت ان أحصل على هذا الفرو وبدت للبائع رغبتى الملحة فى شرائه • ولمح منى اعجابى به فكان فى كل مرة أزوره فيها ، ينشر أمامى هذا الفرو الجميل ، ليحرك رغبتى • ومهما يكن من أمر جماله واغرائه فانه غالى الثمن بالنسبة لى ، فقد طلب منى سبعة عشر دينارا عن ثمنه • وهو لا يريد ان ينقص منه فلسا واحدا ، وأخيرا استطعت ، بعد لأى طال أمده من يوم الاثنين الى يوم الجمعة ، (وهو يوم راحة المسلمين) ان انقص الثمن ، فكان اثنى عشر دينارا • ثم حاولت ثانية فى يوم السبت ، ان العب دورا آخر فى

تنزيل السعر ، ولكنه في هذه المرة عاد فرفع السعر الى سبعة عشر دينارا ، وقد أردت أن أجبهه على مثل هذه المعاملة التى مثلت فيها الالتواءات والتقلبات الا انه عاد فلوح لى ، بان عسى ان ينخفض الثمن الى اثنى عشر دينارا ، فى نهاية الاسبوع .

* * *

وكان أحد الفلاحين المسافرين ، وقد بدا عليه انه من منطقة الديوانية ، يتشكى « لعبد » من وضعه ، اذ لم يحظ حتى الآن بزوجة تكمل حياته ، وهو الآن فى السابعة عشرة من عمره ، ويسكن مع أبويه ويعيلهما . فقال له « عبد » ان النساء لكثيرات ، فقال له الفلاح ، نعم انهن لكثيرات ، ولكنهن غاليات الثمن ، فقد كان قبلا يستطيع الانسان ان يحصل على امرأة جميلة بعشرة دنانير يجد الراحة والمسرة الى جنبها ، وها هو اليوم يجب ان يدفع الرجل خمسين دينارا ، وعليه ان يضعها امام أعين أهل المرأة قبل ان يعلم عن شكلها شيئا .

« ٢٥ »

صور عن حياة الجعلان

كنا ، ونحن نتجول فى مزارع اللطيفية ، قد بعد بعضنا عن الآخر ، فاضاع كل منا صاحبه مرات عديدة ، وكنت قد سمعت عن بعد وأنا أسير بين الزرع ، دويا أشبه بدوى الطاحونة ، وحيثما أجيل النظر تتبين لى أشباح ، وكأنها رؤوس نفر من الناس ، قد أحاطوا بهذا الزرع ، ثم بدا لى ان تموجات الهواء قد تجعل الاشياء البعيدة عرضة للتغير والتبديل ، ولا يبعد أن تكون هذه الاشباح التى تراءت لى أشياء أخرى ، ومهما يكن من أمر فقد أردت أن اتبينها بنفسى ، فلعلها تعقبنى من حيث لا أدرى ، وسرت متباطئا ، وانا على حذر ، متجها الى آخر اطراف المزرعة ، حتى وصلت الى منخفضات مساقيها . فرأيت امامى حقلا من القطن ، قد اينعت اغصانه ، حتى بدت تتضارب بعضها ببعض . وقد رأيت فى احدى حفر السواقى حركة نشيطة ، تكاد تحيط قدمى ، فاجتذبتنى اليها ، وتبينتها فاذا هى أكوام من حشرات الجعلان ، كانت قد تجمعت على قطعة روث من السرجين ، وهى تعمل بجد وحماس ، فتقطع منها برجليها الاماميتين وانحناءة رأسها قطعا ، فتجعلها مدورة كحبة الحمصة ، ثم تدحرجها على الارض الرملية المسطحة . وكانت هذه القطعان من الجعلان ، يشتغل كل زوجين اثنين منها بروثة واحدة ، ولم يبد اختلاف فى الشكل أو الحجم بين كل من

هذين الزوجين الا قليلا • ولكنني رأيت ان لابد أن يكونا زوجين اثنين ذكرا وأنثى ، قد اشتركا فى العمل سوية ، وكانت تتلامع جباههما فى أشعة الشمس فتبدوان ، وكأن العرق قد تصبب منهما لعملهما المضنى •

ويمثل هذا القطيع من الجعلان جمعية تستهدف غاية موحدة • واذا كان ثمة حقا ان كل حركة من حركات الحيوانات مقصودة ، ولها معناها وغايتها ، فلابد ان يكون لعملية هذه الجمعية ما لم استطع ان ادرك مغزاه ، والا فما معنى جريان هذه الجملة الكبيرة مثلا وراء هذه الحبة الكروية ، وانتقالها من واحدة الى أخرى ، يدفعها الحماس والصبر والمثابرة ، حتى اذا ما ركنت الى الراحة برهة ، انقطعت الاخرى عن العمل • انه والحق لغز ، لم اهتد الى حل رموزه • ومن يدرى فلعله عرض تكنيكى لمشاكل التصدير ، أو دروس عن ضبط الكيفيات ومقاييسها • فقد ترى بعض أزواج من الجعلان تلاعب قطعة كبيرة من الروث ، من غير ان تكون لها غاية تستهدفها ، وليس ما يدل على انها تقصد شيئا من دحرجة الحبة الكروية كذلك •

غير أننى أرى من ناحية أخرى أن الغالب من هذه الجعلان تنساق الى هذا العمل بدافع الرغبة والشوق • وقد جلب انتباهى بصورة خصوصية زوجان منها كانا قد اتما كروية روثتهما ، فظهرت وكأنها قد خرجت من معمل ، صاغ كروية شكلها ونعومتها • ولقد بدا لى ان الجعل الممتلىء هو الذكر ، فقد دلت رجلاه على انه الاقوى من الاخرى ، كما هو شأن الذكور •

وكان عمل هذين الزوجين مما تسر له النفس ، اذ يدور هذا الذكر حول الكرة عدة مرات ، كالخادم النمساوى الذى يدور فى البدء حول الحقيبة الواحدة ، وهو يبغى ان يجد الثانية ليحملهما معا • ثم ينتهى الامر بهذا

الذكر الى ان يندفع بجسمه تحت الكرة ، فيقذفها بكلتا رجليه ثم يقف برهة فيحادث زوجته وشريكة حياته ، فيقول لها : آه ، « فاطمة » ، أرأيت كيف استطعنا سحب هذه الكرة ؟ وسنستطيع بعد حين ان نجلوها ، وعلينا ان نفكر الآن كيف نستطيع ان نخلصها من هذا الزحام الذى يعرقل تدحرجها ، فتحنى « فاطمة » رجليها الاماميتين على الكرة ، فتدحرجها ثم ترى أن عمل فحلها أكثر احكاما منها ، فهى كلما بذلت جهدا وحركة فى دفعها تعود فتجرى وراء كرة فحلها ، ولم تكد تدور كرتها بعض الدورات ، فتقطع بضع سانتيمترات ، حتى تقف فى طريقها حصوة أو نبتة فتعيقها عن التدحرج .

ويبدو ان هذه الحشرات لا تعرف غير اتجاه واحد فقط ، اذ ان مجال تدحرج الكرة واسع لامرارها واجتيازها كل ما يقف فى طريقها ، ولكن هذه الحشرات لا ترى الا اتجاها واحدا ، فهى كلما حاولت دفع الكرة أو زحزحتها عن موقفها ، لن تبلغ ما تريد .

وهنا تنادى « فاطمة » زوجها « احمد » ، وقد انحنت على الكرة برجليها الخلفيتين وضغطت عليها ، فيلبى نداءها مسرعا يحدوه الحماس ويدفع الحصوة التى اعاقت تدحرج الكرة ، فتنزاح عنها بعيدا ، ويدفعها بجسمه فتصيح به غاضبة ان انتبه ، ايها الغبى ! لانها مرت من على بطنها واستمرت فى تدحرجها . فيقول « احمد » ما اسهل عبور الكرة من هنا ، الا ترين ، أنها سهلة التدحرج فلم هذا الانزعاج ، ونحن لم نصب بشىء من الاذى . انظرى الى هذا التوفيق الذى رافقنا . انا من الاعضاء الاتقياء الاخيار فى مجموعة هذا الجنس الذى يدعى بمدحرجى الكرة ، ألم يكن أسلافنا قد أقاموا زمنا طويلا فى قبور ملوك الفراعنة القدماء ؟ فتقول له « فاطمة » اننى لم أجن شيئا من صرف هذا الجهد ، وأرى اننا نستطيع أن

نصل الى ما نهدفه في حياتنا المستقبلة ، من غير هذا العبث الذى تلهون به ، انتم ايها الرجال ، وهو ما لا معنى له •

وأخيرا يتوصلان الى دفع كرتهما ، فتبدو تتدحرج ، وتتحسر عن أفكارهما ما اشغلهما من أمر هذا المصاب الطارىء • ويأتى الفحل ثانية يرقب الكرة ، وهو لا يفتأ فى حركة مستمرة هنا وهناك ، وقد كان يتهادى ، وعلى محياه ملامح العجب والخيلاء ، فكأن العمل لا يمكن أن يسير بانتظام ، اذا هو تخلى عنه لحظة • فيحيى زوجه التى قد سحرته وخلبت لبه ، ثم يلتفت اليها ويقول : ما أجمل هذه الكرة ، انها روثة حمار طرية ! فتحمر « فاطمة » خجلا ، اذ أدركت مغزى ما يريده الذكر ، عندما يظهر أمام الانثى بمظهر القدير على اتقان عمله ، ثم يتنحى عنها يدفع كرته وكان يفضل ان لا يرى غيره من الذكور قريبا منه •

ولم يبد عليهما ان قد قررا ما سيبدأن به من عمل جديد ، ولعل « فاطمة » أرادت ان تخفى بيضها ، بل ولعلهما ارادا ان يجعلا منه غدوتهما •

وبدت كرة جعل آخر يجاورهما ، قد تدحرجت فاختفت عنه ، فتبجح « احمد » وقال لزوجته ، ألا ترين كيف استطعنا ان نتقن عملنا ! ولكنه أخذته الشكوك والريب ، اذ قد رأى هذا الجعل المتطفل يحدج زوجته ، وقد كان لا يزال فى عنفوان شبابه ، وجاء اليها يتبختر فى مشيته ، وعلى شفتيه ابتسامة هازئة ، فقالت « فاطمة » ، آه « احمد » ها هو الشاب الذى تبعنا منذ الصباح ، وعند ذلك تكف عن سحب كرتها ، وتنظر الى ظهر « احمد » اللماع ، لترى مدى غيرته عليها وشغفه بها ، وتبتعد بعض خطوات عن كرتها ، فيأخذ الحماس « أحمد » ويحدج شيطانته المغرية من بين ثنايا كرته ، وتقابله « فاطمة » ببرودة ، وتنحنى على كرتها تشمها وتتذوقها •

ويرى « احمد » ان هذا الحال سيطول به الزمن ، فيرمي بنفسه عليها من غير ان يبالي بالحفر والمنعرجات التي لا تسلم من الاخطار ، فيكون الى جنبها ، فلم تحرك « فاطمة » ساكنا ، وتتظاهر بانها مشغولة بأمور كرتها ٠

ويرى « أحمد » ان لم يستطع بعد الآن ان يحظى بحب زوجته ، فيندفع برجليه الامامتين ويرفس بها جسم شيطانه حتى سمع صريرها ، ورأت « فاطمة » ان تبقى محافظة على كرتها بصبر وأناة ، اذ أرادت ان تنتظر النتيجة بنفس هادئة لا يبدو عليها التأثر ، فلم تغير من موقفها شيئا ، فلابد ان سيدخل زوجها بعد لحظات قصار في معركة فيها الحيـاة أو الممـات ، وعندها سيكون في وسعها ، ان تدفع الكرة حسب رغبتها ، فتجعلها تتدحرج نحو جماعة هذا الجعل الذي أغراها وتعلقت به ٠ فقد جانبه التوفيق ، وخاب في حبه واغرائه عدة مرات منذ صباح هذا اليوم ، وخاض « أحمد » المعركة بعد قليل ، وهو لا يدري بما قد بيته القدر لزوجه « فاطمة » وكرتها ، فكانت النتيجة ان واجه المصير ٠ فسلب هذا الجعل الشاب سعادته الزوجية ، وهرب بزوجته ٠ وبهت « أحمد » لما رآه ووقف برهة يستجم مما أصابه من الالم والهياج ، ولكنه رأى ان قد بعدت عنه « فاطمة » فلم تكد تبين ، ووقف ، يجرها حسرات وتنهدات ، وانتفخت أوداجه ، وحركت الغيرة نيران وجده وغرامه ، فاندفع يجري نحو كومة من روث الحمير ، ورأى فيها ، انها أكوام تكفي ان تشغل مجاميع كبيرة من الجعلان ، وبقي يدور بينها هنا وهناك ، وكان ، وهو يروح عن نفسه ويشتت غضبه ، أن حظي بزيارة جملة لم تزل بعد في عنفوان شبابها ، فأنسته آلامه ، وجددت نشاطه ٠

ولاحت « فاطمة » مع عشيقها الشاب ، بعد ان خلصا من بين زحـام الجعلان ، فتبادلت النظرات مع زوجها الاول وبدا زوجها الجديد شامخا

بانفه ، وراح هو وعشيقته يسرعان الخطى ، فحفرا لهما ثقبا فى الارض ، واختفيا فيـه • وقد أسفت ، اذ لم استطع ان ارى ما قـد حدث لهمـا فى خلوتهما •

ولم تكد تمر هذه الفترة من الزمن ، حتى شخص امامى الرفاق فبدا « توم » وهو يلهو بنكاته المستملحة ، ويتلامع بثوبه النايلون ، وكأنه جعل كبير بألوانه الزاهية • وكان « جون » يتهادى من ورائه ، وهو يحمل بيده حزمة من ادغال البادية ، فابتدرنى كل منهما بسؤاله المحبب وهو ، اين قضيت كل هذا الوقت ؟ فقصصت عليهما ما شهدته من حياة جماعات الجعلان ، فتصدى لى « توم » وقطع عليّ كلامى ، وقال ، تتمنى أن قد تعلمت شيئا كثيرا من هذه الجعلان ، فقلت له ، ان من بين الحيوانات المقدسة ما لا نعرف عن سلوكها شيئا ، فقال ، قد يبدو لك ذلك ، والحقيقة انهـا تتبع فى هـذا السلوك الشاذ نظاما معينا •

« ٢٦ »

بين سهول العرب وجبال كردستان

بين تلك التلول المنتشرة وبطاحها الملتوية حيث تبين ارض الاكراد ، يبدو الربيع بأجمل حلله ، ينشر في الفضاء عبير نسماته ، فترى الارض مخضرة ، تكشف عن زينتها ومفاتنها على امتداد آفاقها وأبعادها ، يسودها الهدوء والسكينة ، فيشعر الانسان في أعماق نفسه بالراحة والهناء والامن والسلام ، ويتحسس بعظمة الله في خلقه ، ويشاهد جماله في سحر الطبيعة واغرائها . واذ ذاك يدرك الانسان مدى امعانه في مهاوي المدنية وضلالها ، وابتعاده عن آيات الله وابداعه في صنعه .

والحقيقة ان هذه الحياة التي تسود مجتمعاتنا البشرية اليوم ليس فيها غير الضجيج والصخب ، والتنافر والبغضاء ، والمعارك والحروب . أما كان أجدر بنا ان نعود الى هذه الطبيعة الصافية نرتمي بين أحضانها ، نستلهم منها العطف والحنان ونستوحي منها السحر والخيال ، فقد تهربنا منها كما يتهرب الطفل من بيته ، وقد ركب رأسه الغرور والعناد .

انه الانسان ، ليرى أشقى مخلوقات هذا الكون ، رغم سيطرته على قوى الطبيعة وما فيها من نبات وحيوان وجماد . ولعل شقاءه منبعث عن شعوره بابتعاده عن مسايرة ركب هذه الطبيعة ومخلوقاتها ، فرأى نفسه وحيدا ، وقد ضل الطريق ، فأضاع دولته وتاه في مهاوي البؤس والشقاء .

كانت سيارة الجيب قد وقفت في أحد السهول فاجتذبتني مغريات الطبيعة ، ورحت مندفعا نحو التلول المنبثة اتجول بينها فأصعد على هذا وانزل من ذلك ، وكنت في هذه المتعة يلذ لي دائما ان أرى ما خفي عليَّ وراء التل الآخر . ولاح لي ، وأنا في هذه الوحدة الممتعة غرابان أبيضان ، قد مرا من فوق رأسي ، ولعلهما كانا في خلوتهما يتبادلان الحب والهيام ، ويستنشقان نسيم الربيع . وبقيت عيناي تشيعهما حتى غابا بأجنحتهما وراء تل بعيد ، فاتجهت في تجوالي نحوه ، لارى ما سيقضيان هناك من فترات العمر ، وكنت أمشي على أربع ، بكل حذر ويقظة ، وأرفع رأسي مصوبا بصري نحو قمة هذا التل ، حتى أدركتهما ، وقد وقف كل منهما أمام الاخر ، وكأنهما شخصان من بني الانسان ، قد التقيا بعد فسحة تريضا فيها ، وهما الآن يتبادلان أحاديث ممتعة . ولم أعرف بعد هذا التجوال أين هي سيارة الجيب ، وقد تبينتها بناظوري ، فرأيتها واقفة في نفس الاتجاه الذي كنت أسير نحوه ، وبدا لي خداع الصحراء والسهول واضحا ، اذ كثيرا ما يتصور الانسان نفسه ان قد ضل طريقه ، وهو لما يزل غير منحرف عنه !

وكان « عبد » قد بدا كدرويش جلس القرفصاء ، ووقف الى جنبه كما قد تراءى لي شخصان ، وهو أمر أثار دهشتي ، اذ لم يكن معنا غير السائق عمر ، فأسرعت الخطى نحو اولئك الاشخاص الثلاثة . فتبين لي ، أن « عبد » كان يسمر مع زائر ، بدا عليه أنه احد الصيادين الاعراب .

وكان السائق « عمر » قد اقترح علينا ان نوصل هذا الاعرابي بسيارتنا « الجيب » الى خيمته ، وقد سررنا بهذا الاقتراح ، وبدا لنا انه لم يكن قدسبق له ان ركب السيارة بعد ، فتسلقها وجلس في حوضها الاخير بسرور وشوق وهو يحمل بيده بندقيته حذرا ، فرجوت « عبد » ان يستأذنه لارى

بندقيته ، فهى كما تبدو من البنادق التركية القديمة التى لا يأتمنها الانسان ولكنه لم يعجبه منى هذا القول ، وقال لنا انه لا ينزع هذا السلاح عن كتفه الا قليلا ، وكانت ترى على ملامح وجهه علائم الجد والامتعاض ، وبقيت سيارة الجيب تجد فى السير ، فتصعد على تل ، وتنزل من آخر متجهة الى الافق البعيد ، ولاحت لنا خيمة صديقنا العربى الطويلة السوداء بعد مسيرة ربع ساعة تقريبا ، وقد شهدنا ، ونحن نقترب منها ، صبيا ولى وجهه شطر الخيمة حين رأى السيارة قد أقبلت نحوه ، حتى اختفى فيها •

ولم تثر الكلاب ضجيجها ، فقد رأت صاحبها معنا ، واختلس الاعرابى لحظات قصار غاب فيها فى خيمته ، ثم جاء بعد ذلك يحمل بيده دلة القهوة فصب لنا من مصبها الدقيق المشوق حسوة فى كأس كان قد غسله بيده ، وكان يحرك القهوة فى الكأس ذات اليمين وذات الشمال ، لتخفت حرارتها • والحق ان طعمها كان لذيذا ، يغرى المرء ان يستزيد منها ، فاحتسيت منها ثلاثة حسوات متتاليات ، ويبدو ان من الواجب ان يشكر الساقى فى المرة الرابعة ، ولابد ان يكون الشكر بصوت مرضى •

كانت لحظات من العمر مرت سراعا ، ولكنها تركت فى النفس أثرا لا يمكن ان ينسى ، لقد كانت جلسة هادئة وسط هذه السهول المخضرة ، قدم لنا فيها المشروب العربى ، وبدا ذلك الطفل العربى ، يرمقنا بعينيه الحادتين ، وبان عن بعد ان فتيات هذا المخيم كن يحاولن وهن لما يزلن فى خدورهن ، ان يختلسن نظرة ، يتبين فيها شكل هؤلاء الزوار الغرباء ، وكنا قد تحدثنا مع هذا الاعرابى عن زرعه وأغنامه ، فكانت علائم السرور والارتياح بادية على وجهه • ولا غرو ، فقد كان الربيع ضاحكا ، تتفتح بسماته فتنتشر فى أرجاء الفضاء البشر والخير والسلام والطمأنينة ، وكانت

شياهه ترتع من أعشاب هذا الربيع فيتزايد شحمها ولحمها ، وبانت مؤخرة الشياه ممتلئة ، وهو ما يدل على نمائها ، وارتفاع قيمتها • وانتهت هذه الجلسة الممتعة ، فاستأذنا من صاحبنا ، وارتحلنا عنه من غير ان نعرف شيئا عن أصله وعشيرته •

ويعيش هنا على الحدود الفاصلة بين الشمال والجنوب العرب والاكراد بسلام ووئام متجاورين ، ومثل هذا الجوار نجده فى أوربا أيضا ، فالافرنسيون والالمان يعيشون متقاربين فى السهول الممتدة بين الالزاس واللورين ، ويسود بينهم السلام ، بينما يشتد النزاع بينهم فى باريس وبرلين •

وسرنا مسافة قصيرة فى السهل ، فلاحت لنا سيارة « توم » فجأة ، والتقينا معا ، وكأننا وعلان من وعول البادية قد تلاقيا بعد غياب طويل ، وصاح قائلا : انه يريد أن يتابع السير فى هذا الوادى ليرى الشياه وقطعانها • فسرنا معا حتى قاربنا خيمة يسكنها الاعراب وكانوا يحتلبون شياههم • وكان من الضرورى ، ان نمكث فى هذا الربع لحظات قصار لنشهد ما تدره الشياه من الحليب ، ولكننا رأينا أن المكث صعب ، اذ لم نشاهد غير امرأتين عجوزين كانتا تحلبان الشياه ، ولم تكونا محجبتين ، وقد زعم السائق انهما سوف لا يعبسان فى أوجهنا ان نحن استضفناهما ، وصوب « توم » آلة التصوير نحوهما ، بدون استيحاء أو وجل ، ولحظه عربي يافع فصاح بـه ، وقد تقطبت أسارير وجهه ، فقال بلهجته العربية : لا ، لا • وهو يريد أن يمنعه من تصوير النساء ، وبدا لنا متحمسا ، ترتعد فرائصه وألقى علينا ما أثار حماسه ، اذ قال ، انه لا يريد ان تكون جدته عرضة يراها الناس ، ويعرضون صورتها على من شاءوا ، ومن يدرى ، فقد تعرض على اليهود الذين هم فى فلسطين الآن ، وذلك عار علينا • وما انتهى من حديثه حتى اشتركت فيه

جدته فقالت ، انها ترغب فى أن تؤخذ صورتها فى هذه الآلة العجيبة اذا ما عاهدنى هؤلاء السادة ان لا يوجعونى بها • وبدا على هذا الشاب ، حفيد العجوز ، أنه قد ضرب على طبعه ، فهجم عليّ ، وهو مضطرب الاعصاب ، حينما رفعت ناظورى ووضعته على عينى ، لاتطلع على مناظر هذا الربيع ، اذ قد ظنه آلة التصوير •

وكان قد سمع أصوات الضجيج والصخب رجل من الاعراب يبدو عليه الوقار ، فجاء مسرعا بخطاه ، وتدخل بيننا ، وعرف من المترجم « عبد » محور هذا النزاع الذى أثار تلك الضوضاء ، فما كان من هذا الرجل الوقور ، الا ان اذن لنا بتصوير حلب الشياه • وساء الشاب تصرف هذا الشيخ ، وأسرها فى نفسه ، اما جدته ، فقد كانت ترغب ان تشاهد عملية التصوير ، وكيفية الضغط على الزر ، وهى لا تريد ان تؤخذ صورتها ، فيرى الناس وجهها المجعد على الصورة ، فذلك ما لا يمكن ان تسمح به • وقد حصلت على ما تريد • وبدت غضبانة آسفة اذ لم تشاهد العملية ، ولا شعرت بضغط الزر •

اما الشاب ، فقد استمر فى ثورته العصبية ، يشتم ويسب ويتوعد ، وهو يدور حولنا • وزاد هياجه ، حين لحظ منى ان قد عدت الى ناظورى ، ولكننى بادرته بوضع الناظور أمام عينيه فجأة وقد لحظت منه ان أخذه الرعب ، واستولى عليه الفزع • ثم بدا عليه الهدوء والارتياح حينما شاهد فى هذا الناظور مناظر ربعه ، فهش وبش بحركات صبيانية ، وهو لا يدرى كيف يعبر عن اعجابه وفرحه ، فقد رأى فيه جميع الشياه والمعز التى كانت ترتع فى العشب بعيدة عن خيمته ، ورأى الحصان الابيض كذلك • وكلها بدت له قريبة منه ، فلم يستطع ان يكتم شعوره فصاح متهلل الوجه ، لينبىء عن فرحه وسروره ، وأخذ يشرح لمن كان من عائلته ، هذا الذى أثار دهشته •

وبدا الشاب سعيدا ، يملأ الفرح قلبه ، اذ عرف شيئا لم يكن قد خطر له قبلا ، فلم يبرح مصاحبتى ، وراح يحدثنى بواسطة المترجم ، ان له خروفين سمينين وهو يود ان يقدمهما لى ، ان أنا أعطيته هذا الناظور المكبر • وطلبت من « عبد » ان يرد عليه ، بان فى مزرعتى كثيرا من الاغنام ، ولى زوجة واحدة تحتلبها جميعا بكلتا يديها ، وكان يبدو عليه التأثر ويرى ان لابد ان يثار هذا الموضوع ثانية • غير اننى هدأت روعه ، اذ سمحت له ان يتطلع فى الناظور مرة أخرى •

وأرادت جدته العجوز وصاحبتها ، ان تعرفا كيف بدت صورتهما ، فاريتهما صورة زوجتى وأولادى ، فقد كنت احتفظ بها فى محفظتى ، فهزئت بى ورمتنى بالكذب والخداع ، ذلك ان صورة هذه المرأة لا يمكن ان تكون قد أخذت الآن ، وقد ضحك الرجل على جريان هذا الحديث ثم قدم الينا الحليب ، وكان الاناء الذى حلبت فيه الشياه والايدى التى حلبتها ، ملوثة بفضلات الشياه •

« ٢٧ »

مستجدي كركوك

تختفي امام ناظري الانسان ، وهو قادم من الجنوب ، الاراضي السهلة المنبسطة شيئا فشيئا ، وهو كلما اندفع نحو الشمال بدت له التلول والتواءات الاراضي المرتفعة ، حتى تصل به الى مرتفعات الجبال وهضابها المغطاة بالثلج ، وهي الحدود الفاصلة بين ايران والعـراق • وتكـاد منعرجات الجبـال والتواءات طرقها تفاجيء الانسان ، فيرى نفسه بين ثناياها ، بعد ان يقطع ثلاثين كيلومترا من سهول الصحراء وراء كركوك • وهي اذ تقـوده الى الشرق ، تضطره ان يتمهل في مسيره ، اذ تستوقفه مناظرها ، فتوحي اليه الاعجاب بعظمتها ، وتشعره بالحرية والحب والجمال •

كان سحر هذه الطبيعة قد ملك عليّ كل عواطفي ، فأنساني الحياة ومشاكلها ، وكنت ، وانا غارق بخيالي أتمثل هذا الجمال السـاحر ، قد فوجئت بيد مفتوحة قد لوثتها الاوساخ تمتد أمام أنفي ، فلا تكاد تبتعد عن وجهي • ونظرت فاذا برجل عجوز ، طرزت السنون تجاعيد وجهه بآثارها وحوادثها • ولم تبد على وجهه أية حركة أو انتفاضة ، سوى أن يده كانت تتلوى بانقباضة وانبساطة ، كما لو كانت تريد ان تقول لي ، هات ما عندك وعجل به ، فلن استطيع اصطبارا • فوضعت فيها من غير اختياري قطعة من فئة العشرين فلسا بحركة ميكانيكية لا شعورية ، فانقبضت اليد عليها وانحسرت عن وجهي ، ثم اتجهت بعد ذلك الى غيري من الجالسين ،

فوضع كل منهم فيها ما تيسر له ، حتى السائق ابراهيم وضع فيها هو الآخر شيئا من النقود . فقلت « لعبد » أهي ضريبة تجبى ؟ فقال لا ، يا سيدى انه متسول . والحق اننى لم أر فى حياتى سائلا يقظا يجيد فنه ، وقد مرنت يداه على التقاف النقود والانقباض عليها مثل هذا المستجدى العجوز ، فهو اذ تنقبض يداه على ما التقفته من النقود ، سرعان ما تخفيها بين طيات ملابسه البالية بخفة ومهارة ، ثم يولى وجهه نحو الجهة الاخرى من الشارع ، يسند ظهره على حائط كوخه ، وهو يتحفز لضحية أخرى .

وقد ذكر لى عبد ، ان هذا المتسول استطاع ان يجمع من هذا الاستجداء مبالغ كثيرة ، بنى بها عدة بيوت فى كركوك ، وكان فى أيامه الاولى يفترش الارض ويلتحف السماء ، ولكنه الان بعد ان كبرت سنه بنى هذا الكوخ المتواضع ، يقضى فيه ساعات استراحته بعد غدوته ، فقلت له ، ولم يتصدق الناس عليه اذا كان حقا ما تقول ؟ فتحسر طويلا وأجاب بكلمة واحدة لها مغزاها ، اذ قال ولعلهم يتصدقون عليه لهذا السبب نفسه ! وقد فهمت ما يعنيه فى هذه الكلمة الموجزة .

وقد أحسن الرجل العجوز فى اختيار هذا المكان لمزاولته مهنته ، اذ هو يبدو موقفا عسكريا لحرفة الاستجداء ، ففيه يجد الانسان منظرا ساحرا من الطبيعة ، يستوقفه ويغريه الى ان يستزيد من متعته ، فينسى نفسه ويتمثل صنع الله وعظمته فى خلقه ، فيستهين بكل ما يطلب منه ويضحى به عن طيبة خاطر ، يضاف الى ذلك ان هذا الشارع ضيق المسالك تعترضه التــواءات متعرجة ، تضطر سائق العربة الى ان يتمهل فى سـيره أو قد يلتجىء الى الوقوف أحيانا كثيرة . ويبدو ان هذا السائل قد لاحظ كل هذه الامور ، فى اختيار هذا المكان لمزاولة حرفته فيه .

وبعد لحظات ، بدت سيارة الشيخ « بابا على » وهى من السيارات التى تجلب الانتباه وكنا نعرف هذا الصديق العزيز ، وقد التقينا به مرات عديدة فى بغداد ، ولذلك أوقف سيارته ونزل منها يحيينا ، وقد طلب منا ان نرافقه الى السليمانية • والغريب ان هذا السائل المتفنن ، انتصب واقفا بيننا ، وقد مد للشيخ يده ، يطلب منه ان ينقده ، وقد سمح لنفسه بذلك ، قبل ان ينتهى الشيخ من مصافحته لنا ، وقبل ان يفرغ من كلامه ، فاستطاع ان يستقل به ويحجبنا عنه • واستطعت ان ارى كوخ هذا العجوز ، واتطلع فى حجراته ، فوجدت فيه غلاما صغيرا ، كان يتدفأ على جمر من الفحم ، ويشوى عليه قطعا من اللحم • ويبدو انه لحم طرى ، شهى الرائحة ، وكان يجلس على قطعة من السجاد ، قد فرشت على الارض وعليها بعض المخاديد والى جنبها كانت النارجيلة ، مما يدل على ان هذا الرجل ينعم بعيش رغيد • واستطاع ان يدرب ابنه منذ بضع سنين على مزاولة هذه الحرفة جيدا فينوب عنه ، اذا ما أخذته الاغفاءة ، أو كانت الدنيا ممطرة ، ومع ان الشارع تكثر فيه المارة اليوم ، فقد استطاع ان يجيد عمله ، ويبدو انه ولوع فى مزاولة هذه الحرفة فلا يمكن ان يحيد عنها •

وهنا تثاءب « توم » وقال ، انه لمن المؤسف انكم لم تستطيعوا أن تكوّنوا جمعية استجداء ، ولو اتيح لكم ذلك لملكتم أحسن ما تشتهون • ثم تابعنا السفر ، بعد هذه الفترة القصيرة ، فرأينا ذلك الغلام الصغير يحتسى القهوة من دلة فى يده • وحينما عدنا من جولتنا فى هذا الطريق ، كان مرورنا فى ليل مظلم وجو مرطب غائم ، فأردت ان أزور ذلك العجوز الذى حاز قصب السبق على جميع المتسولين ولكنى وجدت باب كوخه مقفلا بقفل انكليزى حديث ، وفى داخل الكوخ كلب يحرس السجادة والمخاديد ، وهو اذ لمحنى كشر أنيابه بوجهى ، فوليت هاربا •

« ٢٨ »

الاكراد فى ضيافتهم

كردستان بلاد السحر والجمال ، تستهوى النفوس فتلهمها الشعر والخيال ، وتنتشر فيها التلول والوديان ، فتزيل مناظرها السأم والملل عن اعين العراقيين الذين اتعبتهم رؤى السهول وامتدادات الصحارى فيما بين النهرين ، وتحيط بها الجبال الشاهقة ، فتغطى قممها الثلوج وتتراكم عليهـا ، حتى لكأنها تناطح آفاق السماء ، وتنبث بين ربوعها البرك والانهر والنهيرات ، تندفع اليها المياه فيسمع فى خريرها حوار ونجوى تستهوى الافئدة ، فتثير فيها لواعج الحب والهيام ، وتتكاثف على جوانب الانهر أشجار اللوز والعفص والجوز ، تكلكل عليها من مجراها الى مصبها ، فتمثل فى منظرها تلك الخفايا التى تناجيها القيثارة فى تأوهاتها ، اذ تسمع أنغامها فى أعالى الجبال وبين الوديان ، حيث يصدح بها الرعيـان ، فتتجاوب اصداؤها فى مرتفعاتهـا ومنخفضاتها ، وترى فيها آلاف القطعان من الاغنام والمعز يسمع وقع اقدامها على الاحجار الصغيرة التى سويت بها الطرق الجبلية ، وتتجاوب أصوات الغربان والصقور فى أجواء الفضاء ، ويسمع عواء الفهود والذئاب فى ظلمة الليل الحالكة .

فى هذه المنطقة الساحرة يعيش الاكراد حياة ملؤها الحيوية والنشاط ، تمثل فيها الحركة كمـا تمثـل فى انصباب الميـاه من أعالى الجبـال الى المنحدرات ، وهم شعراء بفطرتهم ، يتعشقون الحرية والسلام ، ويحيون

بتقاليد أجدادهم ويتغنون بأحاديثهم وأعمالهم • وهم فرسان شجعان ، يرتدون السروال الفضفاض الطويل ، الملون بأجمل الالوان المختلفة المتناسقة •

وهم حتى فى تاريخهم الحديث وهبوا حياتهم للكفاح فى سبيل حريتهم واستقلالهم ، واستطاعوا بعد كفاح مرير ان ينهضوا مع عرب الجنوب ، وينظمّوا اليهم تحت راية حكومة ملكية ، سميت آخر الامر بالحكومة العراقية • ولم تشهد هذه البلاد الهدوء والسكينة ، حتى فى هذه الايام • فقد عم السلب والنهب والسرقة جميع المناطق الجبلية التى تبدأ من حدود ايران الغربية الى جنوب القوقاز ، وقد كانت أعمالا مألوفة لا يؤاخذ عليها العرف ، وكثرت أعمال السطو على قطعان الماشية بين العشائر المتجاورة ، الى زمن ليس بالبعيد • وقد ذكر لى أحد شيوخ الاكراد ، ان الحصان كان يحافظ عليه صاحبه قبلا أكثر من محافظته على امرأة جميلة • وليس ذلك مما يتصف به الاكراد وحدهم ، فتاريخ الحياة البشرية فى جميع أدوارها قد تمشى مع تفنن الانسان بسرقة الخيل •

وحينما يقطع المسافر بعض الاميال فى طريقه من كركوك الى السليمانية، فيجتاز القرية الصغيرة « جمجمال » ويتركها فى الوادى ، ينحرف به الطريق الى المرتفعات من التلول ، فيصل به الى مقربة من « بازيان » ، حيث يجد فى مرتفع من الارض سهلا تحده سفوح الجبال من جوانبه ، وهى جبال تبان جرداء ، قلما يرى فيها أثر من النبات • ويبدو ان سكانها لا يتركون فيها شجرة يتجاوز عمرها بضعة سنوات • وقد ترى بعض أكوام من النباتات الجبلية منتشرة على ضفاف البرك ، أو على قمم الجبال أو منعرجات التلول ، وهى التى يتعذر الوصول اليها لوعورة مسالكها ، وترى فى سفوح هذه الجبال الجرداء الواسعة كلما تتطلبه الغابة من امكانيات النمو فى التربة والمياه

والجو . وبدت لنا أعشاب الربيع وأدغاله في هذه الاراضي الخصبة ، وقد زانها اخضرارها واندفعت في نموها .

وكنا ، ونحن نجد في السير ، قد التقينا بنفر من الفرسان الاكراد يستطون خيولهم الجبلية على مقربة من بعض القرى الريفية ، فرأيناهم يجيدون ركوبها كالعرب ، ولحق بنا خمسة من هؤلاء الفرسان ، بعد ان بعدنا عنهم ، وكانت السماء تجود برذاذ من المطر رطبت به الارض ، وأزاحت الغبار عن جادة المرور ، فاندفعت بجسمي الى شباك السيارة لارى منظر هؤلاء الفرسان ، وكنت حريصا على ان اغتنم كل دقيقة تمر لاتمتع بهذا المنظر من الخيالة الاكراد ، اذ هو منظر لا يتاح لنا ان نراه في كل حين .

وبدا « عبد » متخوفا ، اذ زعم انه لم يعد يطمئن على نفسه ، وقص علينا قصصا كثيرة عن تعطش الاكراد الى السلب والنهب ، ولعله أراد بها ان يلقي الرعب في قلبي ، فقلت له ، ان كان حقا ما تقول ، فسألحق بهم حالما يقتربون منا ، شريطة ان أحصل على حصان وخنجر مقوس جميل ، مثل ذلك الخنجر الذي كان يحمله أول فارس منهم ، ذو الشارب الاسود الطويل ، الذي تتلامع اسنانه . وكان عبد يشك في صحة مبتغاي ، ويرى ان حصانا من خيل الاكراد لا يقوى على ان يحملني ، ولا يمكن ان يساير السيارة هذه المسافة الطويلة .

وبعد مسيرة قصيرة ، ونحن نعبر قنطرة صغيرة بالقرب من « باكريجو » ، استوقفنا ثلاثة من نساء الاكراد ، وطلبن منا ان نحملهن معنا في السيارة في طريقنا الى المدينة . وقد كن جميلات الطلعة ، قد ابتلت البستهن برذيذ المطر ، وهن في الطريق . وقد رأى « عبد » ان لم يكن من اللياقة ان ندخل « باكريجو » أو السليمانية ومعنا الغادات الثلاثة . ومهما يكن من

أمر ، فقد كانت هذه المرة الوحيدة ، ان طلب منا بعض نساء الحى ان يرافقننا فى سفرتنا .

واضطرنا الليل ان نقضى ليلتنا فى « باكريجو » . وكان الطريق الذى قادنا اليها يسير بمحاذات نهر صغير ، ينتهى بحديقة ، يبدو انهـا مشـتل للتجارب النباتية ، وقد انتثرت على مقربة منه بعض البيوت ، وبناية عامرة تبدو حكومية . فرأينا انها أحسن محط لرحالنا ، اذ فيها يمكن ان تتوفر راحتنا فى هذه الليلة ، وكان من حسن حظى ان أكون ، فى منعطف هذا الطريق ، فى سيارة الجيب التى يسوقها عمر . وكان هذا السائق يلذ له كثيرا ان يتحدث معى ، ويرى فى محادثتى سلوة له ، على انى كنت قلما أفهم شيئا مما يقول . وكان هذا المنعرج من الطريق الذى قادنا الى حديقة المشتل متربا مغبرا ، فكان ان غطت طبقة من أتربته وجهى ، وعلق كثير منها فى اجفان عينى ، فلم استطع ان ارى مناظر هذا المحيط ، واتمتع بها .

ومهما يكن من أمر فقد كان كل ما احاط بى يوحى بالراحة وحسن المقام ، وأحسن منه معاملة الاكراد وجميلهم . فكان نفر منهم يحومون حول حقائبى كالحارس الامين ، ولم يلبثوا ان اصطحبونى الى بيت ، بدا انه قد أعد لى ، وكانت ملامح أوجههم تشعرنى بالبشر والسلام ، فى كل ما يقومون لى من خدمات . وقد وجدت فى هذا البيت غرفة مريحة ، قد فرشت وأعد فيها سرير وثير الفراش ومنضدة للغسيل . ومذ شعر هذا النفر من الاكراد برغبتى فى غسل وجهى ، اسرعوا باحضار الماء ، وقد كانوا رهن أوامر رجل طويل القامة يرتدى لباسا أشبه بلباس السجانين ، وبيده عصا أكسبته هيبة ووقارا . فسألنى بلطف ورقة عما اذا كانت الامور طوع رغبتى . وكانت رقة اخلاقه أوضح لى من لغته الانكليزية ، ولم تمر لحظات قصار

حتى خرج كل من كان فى الغرفة ، فشعرت بحسن صنيعه ، اذ لم أجد فى غرفتى الا كل ما يريحنى ويسرنى ، فقد هيء لى فيها كل وسائل الراحة • وكنت ، وأنا أخلع آخر قطعة من ثيابى ، قد أحضر لى الماء والصابون وكأس من القهوة ، فارتديت مكرها ما سترت به جسمى وانتظرت صابرا برهة قصيرة ، وكان الحراس يقظين لا يهمهم الا ان يلبوا طلبا يؤمرون به • وكان أحدهم ، وهو بلباسه الكردى قد اتكأ على الحائط وأعد نفسه ، كما ظهر على ملامح وجهه ، لكل ما يمكن ان يؤمر به • وقد حاولت بعصاى ان أوضح له ما كنت اريـده فرأيت ان قد قربت ايضاحاتى من آفاق وعيـه وادراكه • وبقينا فترة من الزمن نسمر فى مزاح متبادل ، وأخيرا أردت ان أبدأ بعد هذه الفترة بغسل وجهى ، اذ لم ارد ان أزحم هؤلاء الناس الابرار ، ولكنهم أصروا الا ان يشملونى بلطفهم ويساعدونى بكل ما أمكنهم ، فصبوا الماء على يدى وأذرعى ونشفوها بالمنشفة ، وحينما بدأت بحلاقة ذقنى التفوا حولى ، وكأنهم يريدون ان يقولوا ، ها هو ذا قد انتهى من حلاقته • وكان بينهم صبى يافع قد أعجبه منظر هذا الاوربى ، وهو يغسل وجهه ويديه فلم يتزحزح الا بعد ان كلّف ان يأتى لنا بكأس من القهـوة • ثم أخذت الى بيت مضيفى باحتفال مهيب ، وكانت سفرة الطعام اذ ذاك قد حملت بأطيب الاطعمة الشهية •

انني لاحتفظ للاكراد بأحسن الذكريات وأطيبها وستبقى عالقة فى ذاكرتى صور هذه البلاد التى هى موطن الاغراء والسحر وصور شعبها الابى الذى أعجبنى بكرم الضيافة وحسن الوفادة •

« ٢٩ »

على جبال عليه

تقدم سركال الشيخ « أنور » ، وعرض عليّ بوساطة « عبد » ان سيكون له الشرف ، ان أنا أردت أن اركب فرسه ، فكان هذا العرض قد حفزني الى أن أتمثل هذه الفرس البيضاء وألاحظ فيها ميزاتها وجمالها . والحق انها حيوان لا شك في جماله سوى أن أذنيها كانتا جانبيتين ، وهذا ما يعيب الخيل وخصوصا الفرس الاصيلة . وقد أحرجني السركال بتقدمة هذه الفرس فاضطررت الى ركوبها ، بعد ان مسك لي بركابها بيديه . وكان الشيخ « أنور » نفسه قد اشفق على هذا الحيوان ، فقال أنه يرى أن وزني الثقيل سيقصف ظهره النحيف . والشيخ « أنور » ، كما هو معروف عنه حاضر البديهة بارع النكتة ، وهو الى ذلك ميال الى المبالغة كثيرا . وكان على هذه الفرس ، قبل ان يجد بها السير ، ان ترضع صغيرها وأنا على ظهرها ، فكانت هذه الصورة تمثل الحنو الطبيعي الذي يندفع اليه الحيوان بغريزته .

وكنت أعرف أن الفرس المرضع تبدو سريعة العدو في سيرها وتظهر عليها العجلة وعدم الاستقرار في غدوها ورواحها ، اذ هي تريد أن تعود الى محلها ساعة أقرب . وقد رأيت قبل ان نسير في هذه المنعرجات الجبلية ، ان الافضل ان أعود مترجلا ، اذ لم أكن أشعر بارتياح كثير في هذه الجولة التي سنخترق فيها الجبال والوديان في كردستان ، فقد بدت لي غامضة .

وقد تزودت من الشيخ « أنور » ببعض التعليمات حول سياسة هذه الفرس ، فقد وجدتها تنفر كثيرا من اللجام ، فكأنه يقيد حركاتها ، وبدا لى أنها قد تعودت على أن تشد مناخيرها بحلقة بسيطة من غير ان يوضع فى فمها اللجام • ذلك اننى لم أكد أمسك رسنها بيدى حتى رأيتها قد تراجعت الى الوراء ووقفت بجوار شجرة البرتقال ، ثم انتفضت ثائرة واندفعت الى الامام بسرعة فائقة ، وعادت فتراجعت الى شجرة البرتقال ثانية •

وكانت هذه الفرس تحمل اسما كرديا جميلا ، يعنى فى ترجمته « الصابرة » أو « القوية » • وقد رأيت بعد ذلك انهم قد بالغوا كثيرا فى هذه التسمية ، اذ لم اكتشف فيها أثرا يدل على أنها صابرة أو قوية ، وقد مثلت لى بعكس ما سميت به • وقد أراد السركال ان يجعل منى فارسا مغوارا ، فزودنى ببندقيته وحزام رصاصه ، ولعل الامر بدا للسركال ان حمل البارود والبندقية والاشياء المتفجرة الاخرى تؤمن له كل شيء ، وتوصله الى كل ما يريده بسهولة • وقد استطعت بعد جهد كثير ووقت طويل ان أمسك زمام هذه الفرس التى نعتوها بالصبورة ، وكانت فى بعض الاحوال تضغط على اللجام فتتعب ذراعى حين أريد ان أردها الى سيرتها الاولى ، وكانت تحرن احيانا كثيرة عدا بعض خطوات وئيدة ، ولعلها أرادت بذلك ان تتيح لى الفرصة لاتمتع بمناظر الاراضى التى ازدانت بخضرتها ، فبدا جمالها أخاذا • وعرفت بعد حين السبب الذى دعى هذه الفرس الى ان تكثر فى صهيلها وتزبيدها وتأففها ، فقد كان لسان حالها يقول ، ماذا يريد منى هذا الكلب المسيحى الملتحم وهو على ظهرى ؟

كان الطريق الجبلى فى بادىء الامر مريحا ، اذ كنا نقطع واديا تضلل بركه وجريان مياهها اشجار اللوز والعفص والجوز ، ثم سار بنا شيئا فشيئا

نحو المرتفعات ، فكان صعب المسالك ، تكثر وعورته كلما تقدمنا فيه • فوجدت ان لم يعد ركوب هذه الفرس نافعا بعد ، وفكرت ان ارتجل لانني رأيت ان هذه الفرس الصبورة غدت في كل خطوة تخطوها تقف برهة ، تستريح من عناء وعورة الطريق • ولعلها أرادت ان توضح لي ما تقاسيه من الصعوبات اذا استمرت في السير وانا على ظهرها • وأردت ان اركز قدمي في الركاب فرفعت رجلي اليمنى من على ظهرها بينما بقيت رجلي اليسرى عالقة في الركاب فاختل التوازن بين نقطة ارتكازي ومركز ثقلي ، وضغط الركاب الذي تعلقت به رجلي اليسرى على بطنها فما كان منها الا ان رمتني على الارض بسرعة فائقة ، فلم أشعر الا وانقطع نفسي • وعندها خف حملها فشعرت بارتياح ، اذ قد خلصت مني نجيا ، فأخذت تنفض عنها غبار التعب فتمسح بذيلها ساقيها وبطنها ، وتمد برأسها نحو الوادي تصهل جذلة ، ولعلها أرادت بذلك ان تخبر صغيرها بانها قد تحررت من هذا الحمل الذي أثقل ظهرها وهي تتطلع الآن الى مستقبل وضاح •

وكان في واجهة الجبل في الجهة الاخرى من الوادي حفرة عميقة واسعة ، وقف على مدخلها زوجان من الغربان الضخمة ، وقد بدا عليهما أنهما كانا يتمتعان بأشعة الشمس ، ويتفرسان بهيأة هذه الفرس وبهيأتي ، ولعلهما كانا يحسبان امكانية القضاء علينا ، فمثل هذه الطيور الكاسرة العارية الرقبة تعرف جيدا استغلال مثل هذه الحوادث وتدرك قيمتها • ولم تمر لحظات قصار حتى ظهر السركل ، وبدا عليه انه قد افتقدني ، وشعر بوحي فطرته ان لابدّ قد حدث ما ليس بالحسبان • وكانت حركات يديه تشير الى انه يجد في طلبي ، فناديته باشارات صامتة ، عبرت عنها همهمتي بالزحف على رجلي • ثم تابعنا السير ، وكانت وعورة الطريق تنذر بالويل والثبور ،

وفاجأنا السركال الكردى ، يشير علينا بالوقوف فى محل محكم ، قد نقش على واجهته بعض الحروف • وقد عرفت بعدئذ بانه المكان الذى تراجع فيه الاكراد فى ثورتهم ضد الاتراك ، فاعظمت فى هذا الشعب الصغير روحه الوثابة • ولاحظت فى هذا المحل المحكم ثقوب الرمى تحيط بها آثار طعنات العدو ، كعلامة على سوء التسلح فى الايام الاولى •

وبعد مسيرة قصيرة بدا الطريق مريحا ، فصممت ان امتطى صهوة فرسى ثانية ، وقد حازت هذه الفكرة قبولا من رفيقى الكردى ذى اللباس الازرق ، ولو لم تحز قبولا من فرسى الصبورة ، فراحت تدلل على استيائها بصهيل متقطع الانفاس ، وهى لا شك تريد ان تقول ، لقد تخلصت من هذا العذاب المرهق وها هو يعاودنى ثانية ، هلا انثنى عن عزمه فيمشى على رجليه ! وسار السركال الكردى يخطو امامنا ونحن نتبعه على عجل •

وقد طالعنا ، ونحن نجد فى سيرنا ، حيّ يحوى بيوتات قد بنيت من أحجار الجبال وصخورها ، وكنا أحيانا نضطر ان نسير بمحاذاة سطوح هذه البيوت • وكانت تلاحقنا نظرات خاطفات من شقوق حيطان تلك البيوت ، ثم طلع علينا بعضهم وقد تزيوا بألبسة فيها الفن والابداع • وكان معهم بعض النساء أردن ان يتطلعن الى هؤلاء الفرسان الغرباء بدون خجل أو استيحاء • ولقد تمثل لى ما قرأته فى أعينهن من امارات الحيرة والاستغراب الممزوجين بالهزء والسخرية ، انهن يقارنّ بين خلقة جسمى الضخم وظهر فرسى الاهيف • ووقفنا ننتظر اصحابنا ، فظهروا لنا حالا ، يتقدمهم الشيخ « انور » وهو يمشى على قدميه ، وهى مشية يراها « جون » أنها رياضة ممتعة • وحيانى « جون » بنظرة فاحصة ، اذ كان يبدو عليّ وكأنى حصان برأس انسان ، وهو يصور أقبح أشكال المخلوقات •

وكان الشيخ « بابا على » بعيدا عنا ، فأسرع نحونا ليتبين أمرنا . وكان من رأيه ان نتابع السير حتى نجد بركة أو مجرى من المياه ، فنحط فيه رحلنا ونستريح ، ولعل الحظ يسعفنا فنصطاد شيئا ونحن في طريقنا ، فقر الرأى على ذلك . ثم قال علينا الا نطيل المكث هنا ، فضوضاؤنا وجلبة أصواتنا تخيف حيوانات الصيد الوحشية فتهرب من هذه المنطقة . وسرنا مسافة فى الجبال على ارجلنا علنا نصطاد شيئا ، وبعد مسيرة نصف ساعة فى طريق ضيق وعر سمعنا خرير المياه تنصب فى منحدرات من الوادى ، وسرنا نقترب منه حتى كنا فى غابة غناء سمينة الظل ، فسرنا فيها الى مصب المياه التى كانت تندفع الى منخفضات الوادى ، وربطنا خيلنا فى مكان مرتفع من السهل تحت ظلال الاشجار ، وخضنا فى هذه المياه المتدفقة ، فاندفعنا بتيارها فى لحظات قصار الى مصبها ، وقد وجدنا فى هذا الوادى محل راحتنا .

وكان « جون » قد استهواه جمال هذا الوادى فراح يتفقد الاشجار والنبات ويتعرف على أنواعه وفصائله ، بينما كان الشيخ « انور » والشيخ « بابا على » يعدان بأنفسهما الفطور الذى جاءا به معهما ، وقد احتوى على كمية من الزبدة الطرية والجبن والدجاج البارد ورغفان من الخبز وهو فطور تشتهيه الأنفس فى كل حين ، وكنا نطفىء ظمأنا بتلك المياه المتدفقة .

انها والحق ساعات ذهبية من العمر قضيناها هناك فى قلب الجبال الكردية وفى وسط الصخور المنيعة ، حيث يسمع لخرير المياه دوى ينسجم مع حفيف الاشجار فى نغمات متناسقة موحدة .

هناك تبدو الطبيعة عارية ، لم تعبث بها يد الانسان بعد ، تعرض جمالها كما خلقها الله فى ريعان شبابها .

وكنت أصعّد بصري الى هذه الجبال المرتفعة ، كما تصعد فيها أعين الاكراد ، حين يتعقب الصيادون فيها ظلال الصيد ، بين صخورها وادغالها ، حيث تحتمي حمر الوحش بين آصالها ، وتفترس من اعشابها ، ولكن لم يبد لى شيء فيها ، فتسلقت مع شاب كردى ناحية من تلك المنعرجات الجبلية ، ومشينا قدما تظللنا اشجار الغابات الى ان وصلنا الى مسقط المياه ، وكان دويّ خريرها يطغى على كل صوت وحركة تنبعث من أعالى الجبال أو وديانها . ويكمن الوحش الجبلى بين الاحجار المتساقطة ، ولكننا لم نلمح منه شيئا قط غير ثلاثة من الغربان الكاسرة كانت تحدق النظر فينا ، وتتمثل رؤوسنا مدة لحظات ، ولقد تبينتها بناظورى ، فرأيتها تتفرس فينا ، وتتلفت هنا وهناك ، فتحدق بأعينها ، لترى ما هذا الذى أقلقها بحركاته فى منخفض من هذا الجبل ، وقد رافقنى السعد ، اذ رأيت هذه الغربان تطير محلقة فى الفضاء وكأنها طيور جبال الالب المندثرة ، التى تتردد على السنة قصاص سويسرا . وكنت منذ سنوات عديدة ، وأنا أعانى اشتياقا لرؤية هذا الطير الكاسر وهو يطير محلقا بأجنحته فى فضاء وطنه ومسقط رأسه ، وها انـا ذا اطمن رغبتى وأطفىء نار اشتياقى .

وكانت الشمس قد مالت عن سمتها بعد الظهيرة ، فصوبت ذبالتها نحو قمم الجبال المغطاة بالثلوج ، وحين هممنا بالرجوع بدا لى الطريق وعرا ، وفضلت ان اسلم قياد فرسى لصاحبها ، وأسير فى هذه الطرق الجبلية مترجلا . وكان الشيخ « أنور » قد أصيب بوعكة خفيفة ، سببتها له أشـعة الشمس الحارة ، فرأى ان ينطرح تحت ظلال الاشجار ، ليستجم ويستعيد نشاطه ، ثم لحق بنا ، بعد ان شعر بتحسن فى حاله ، وكان سركاله المخلص قد بقى فى خدمته ، وترك فرسه للاقدار والظروف . فأسرعت تريد اللحاق بموطنها

لترى صغيرها ، وقادها السير الى تلك القرية الجبلية ، التى بنيت بيوتها من الاحجار والصخور • وطمع بها أحد سكان القرية ، فاحتجزها عنده • ورأت انها فى ربع غريب لم تألفه ، فبقيت تصهل متألمة طول الوقت لتشعر من حواليها انها تريد صغيرها •

ولم يكن مصير هذه الفرس ، ليثير اهتمام صاحبها السركال ، حتى استعاد الشيخ «أنور» نشاطه ولحق بنا ، وعندئذ انشغل السركال بفرسه • وقد التقطت صورته وهو على فرسه بألبسته الملونة الجميلة ، وآلمنى ، ان لم يكن لدى اذ ذاك فلما ملونا •

ولم يمض كثير من الوقت ، حتى عادت الى مخيلتى غباوتى بسرعة لم اكن انتظرها ، فسولت لى ان امتطى صهوة فرسى ثانية ، ولم يكن الدافع الى هذه الرغبة غير تلك الصورة الجميلة التى تراءت لناظرى ، وأنا أرى هذا الفارس الكردى وهو على صهوة جواده يملأ الجو عظمة واعتزازا •

وغمزنى السركال بنظرة فيها شىء من الهزء ، حين امتدت يدى نحو سرج الفرس ، واستطعت ان اتصور شعور الكردى المضياف اذ يتحسس برغبة ضيفه • وقد شعرت ، وانا أضغط على ظهر فرسى الصبورة بركبتى ، ان غريزتها تدفعها الى ان تسلك سلوكا مغايرا لسلوكها فى صباح هذا اليوم ، فقد اهتزت أعطافها طربا ، ولم تعد تستطيع اصطبارا ، فراحت تجد فى سيرها فى هذا الطريق الجبلى ، وكأنها تتراقص من فرحتها • وهى تريد ان تلحق بصغيرها قبل ان يرتد طرفها ، لتخفف عن اضرعها • ولست أدرى ، حتى الان كيف استطعت ان اتصبر على ظهرها وهى تعدو فى الوادى غائرة بتلك السرعة الخاطفة • وكانت كل شعرة فى جسمى قد ابتلت عرقا ، حتى وصلت الى منتهيات الجبل ، وهناك انحازت قليلا عن الطريق ، لتتقى أرضا

غمرتها الاوحال ، فارتمت في حالة لا شعورية في مقبرة كردية • ووقفت ساكنة تحت الاشجار حتى جاء شابان كرديان يقودان اليها رضيعها من مربطه ، فلم يكن ليقر له قرار من فرحته • ولست أدرى أي الثلاثة منا كان أسعد حظا من صاحبه •

وبقيت هذه الصبورة تعلف من حشائش الارض مدة طويلة ، الى ان اتيح لي ان أجزيها اجرا ، فقدمت لها ما استطعت ان اشتريه من الشعير ، اذ لم يكن موجودا الا في محل واحد ، ولكنها زهدت في هذا الشعير ، واستدارت بوجهها عنه • ويبدو انها كانت ترغب في ان لا تدع مجالا لدوام صداقتنا ، فقد كفاها شرها •

ولذلك وددت ان يتوسطني لديها شاب قروي كردي ، فيعبر لها عن شكري وامتناني لحسن صنيعها ، وقد كان شهما حقيقة في ما قدمه لها من الشعير ، ولو لم يكن قدم منه الا أقله • ولكنني لم أرها قد أقبلت عليه بنهم وشهية ، وهو الاكلة المحببة عند هذا الحيوان • وما يدريني ، فلعلها شمت منه رائحتي فأزعجتها ، وعافته نفسها •

« ٣٠ »

الطريق المعبد عبر راوندوز

لم يكن يعد ما يدفعنا للتجوال في الجهة الشمالية الغربية من كردستان ، سوى ان نرى الطريق الذي يبتدىء من « اربيل » ، فيخترق السلاسل الجبلية ، فيصل الى « ايران » حتى يتصل بالطريق العام الذي يمر « بتبريز » في مقاطعة « اذربيجان » وهو الطريق الذي يشير الى أثر المهندس « هاملتون » ونشاطه وحيويته ، وبعد نظره ، فهو الذي خطط هذا الطريق وفتحه ، وهو طريق يخترق سفوح سلاسل جبلية عديدة ، ثم يجتاز وديان « راوندوز » العميقة ، فيتغلب على صعوباتها ، ويقهرها • وكان هذا المهندس قد سجل ملاحظاته عن كل ما صادفه في مهمته في كتاب اسماه « طريق بين كردستان » • وهو كتاب قيم ، يستحق كل تقدير واعجاب فلا يكاد ينتهي الانسان من قراءة آخر صفحة منه ، الا واشتاق ان يستعيده ثانية •

وكان « هاملتون » قد بدأ عمله في سنة ١٩٢٨ ، في منطقة من الارض ، تكتنفها الاخطار من كل حدب وصوب ، ويوسم سكانها بالغلظة والشراسة والعداء • فكان يجوب هذه المنطقة عصابات من اللصوص وقطاع الطرق ، من غير ان يجدوا ما يخيفهم أو يحد من نشاطهم •

وكانوا يعقدون الاتفاقات مع رئيس العشيرة في الغالب ، وذلك يعني

ان يضحوا بأنفسهم ضد كل عدو يهاجمهم • وكانت جهود « هاملتون » لم تقتصر على كونه مهندسا ، بل كان عليه ، في الوقت نفسه ، ان يكون سياسيا محنكا ، وعالما اجتماعيا ومحللا نفسيا ، خبر أحوال الشعوب وعرف عاداتهم وطبائعها ،وكان هذا الطريق هو الواسطة الوحيدة ، التى جعلت هذه المنطقة المعزولة تستطيع ان تتصل بالعالم ، ومعلوم ان فتح هذا الطريق قد جعل سكان هذه المنطقة المعزولة ينشقون الى شقين ، فكان الشق الاول منهما يعارض هذا المشروع لانه يرى فيه انه استحكام عسكرى ، ويرى الشق الآخر ، ان فتح هذا الطريق ولو أريد به أغراض عسكرية الا انـه قد فتح امامهـم العالم ومهد لهم الاتصال به ، ولذلك فهو يقدر قيمة هذا المشروع ويأمل فيه الخير •

وكانت ايران ، ترى فى هذا المشروع الحيوى أهمية كبيرة لحياتها الاقتصادية ، فهو يفتح أمامها أبواب آسيا الصغرى والبحر الابيض المتوسط بصورة مباشرة ، وينعش حياتها الاقتصادية ، ذلك لان التجارة فى المناطق الشمالية الايرانية ، معرضة لمراقبة الروس وتعسفهم •

وكان الخط الحديدى الذى اقترح بناؤه منذ زمن بعيد على نفس اتجاه هذا الطريق ، قد بدا غير قابل للتنفيذ ، اذ ان الطريق التمهيدى لمد هـذا الخط الحديدى ، قد أبان ، بانه لابد ان يخترق ما لا يقل عن خمسة سلاسل جبلية ويتغلب عليها ، قبل ان يصل الى الحدود الايرانيـة التى تزيد فى ارتفاعها عن الفين مترا •

وكانت العقبات والصعاب فى اجتياز هذا الطريق تتمثـل فى وادى « برزين » العميق فى « راوندوز » وهو الوادى الذى وصفه « هاملتون » بانه أقسى وأمر منطقة آسيوية اعترضته في مشروعه • ولست أستطيع ان

أدعى ، بانني قد شاهدت جميع الوديان والجبال في آسيا ، ولكنني بعد ان تجولت في هذه المنطقة ، رأيت ان لابد لي ان اسلم بانه لا يمكن ان يفكر الانسان بأجمل منها . ويضيق هذا الطريق خلف « أربيل » بعشرين ميلا ، وجنوب جبال « بيرموم داغ » التي تعلو حوالى الف متر ، فيمر من مبتدىء سفوح هذه الجبال ، ويستمر في هذا الاتجاه الى ان يصل الى « شقلاوة » ثم ينعرج الى الشمال ، وبعد ما يقرب من ثلاثين كيلومترا ، يعبر وادى سيليك .

لقد كان « هاملتون » يبذل جهده لبناء هذا الطريق ، عندما كانت عصابات قطاع الطرق واللصوص تجوب هذه المنطقة وهي على أشد ما تكون من القسوة والغلظة فتخرب ما بناه . ويذكر في كتابه في فصل قصصي ، الصعاب التي جابهته ، والمتاعب التي أنهكته ، فيقول ، ان حراس الاكراد ، دخلوا في نزاع طويل فيما بينهم ، فتركوا حراسة الطريق ، وكانت القبائل الرحل التي تنحدر من مسافات بعيدة من الشمال تترك قطعان اغنامها ترعى في الجبال هنا وهناك فتعبث في كل عمل انجز من هذا الطريق ، ولم يهتم رعيانها بهذا العبث والتخريب فيضطر الى اعادة بنائه ثانية .

وقد وصف لنا « هاملتون » في كتابه ، ان قد وقع اربعة من النساء قتلى في احدى المعارك التي نشبت هناك ، اذ ان النساء الكرديات يشاركن الرجال في المعارك ، ويلذ لهن القتال مع رجالهن وعشيرتهن . ويذكر في كتابه كذلك ، اسماء كثير من رؤساء العشائر ، الذين كانوا قد تهيأوا لخوض المعارك ضد الاتحاد مع العراق الجنوبي ، وكان وضع العراق اذ ذاك يسير على طريق الوحدة مع الاكراد ، ويسعى ضد انفصالهم عنه ، ولكن هؤلاء

الاكراد الجبليين سرعان ما وضعوا ايديهم على خناجرهم الكردية المنحنية ، وكان هاملتون ، اذ ذاك ، قد مرت عليه ساعات رهيبة ومخيفة • وأريد الآن ، ان أذكر أحد زعماء هذه الحركة الانفصالية وهو الزعيم الذى امتاز بشجاعته وحبه لبلاده واخلاصه من بين جميع رؤساء العشائر الكردية وشيوخها ، ذلك هو الشيخ محمود من السليمانية ، والحق انه رجل شريف ، من رأسه الى أخمص قدميه ، وهو أب الشيخ « بابا على » ، الذى حظيت بضيافته ، وصداقته •

لقد كان الشيخ محمود ، بعد ان وضعت الحرب العالمية الاولى أوزارها ، ووضح له ، ان بلاده ستحكمها بغداد ، عقد النية اذ ذاك بان يقاوم كل قوة تخضع بلاده لهذا الحكم ، وانه سوف يحارب ضد كل من يريد ان ينازعه أمر استقلال الاكراد ، واذا ما دعت الضرورة فهو يحارب حتى الانكليز •

وقد تولى قيادة عشيرته مرات عديدة فى معارك طاحنة ، ووجهه يطفح بشرا ، وكأنه الواثق من أمر الغلبة ، اذ كان يعتقد بان القوى الجنوبية ، لو لا مساعدة القوى الانكليزية وأعوانهم الآثوريين لن يطمعوا بالنصر ، ولن يفكروا بالغلبة • وكانوا فى المناوشات الحربية البسيطة التى انتشر فيها رجالهم فى مناطق بعيدة واسعة ، هم المتمكنون وهم أسياد الموقف • فهم يختفون فى المرتفعات الجبلية ومنعرجاتها التى يتعذر على العدو ان يصل اليها ، ويمطرونه بوابل من رصاصهم ويطاردونه كما يطاردون الارانب فى الصيد ، حتى أسرعت القوة الجوية الانكليزية بسلاحها ، فضربت مدينة السليمانية التى كانت اذ ذاك معقل الشيخ وحصنه المنيع ، ومع ذلك استطاع الشيخ محمود ان يلم شعثه ويستجمع قواه ويقاوم الانكليز مقاومة عنيفة •

وكان اثنان من الطيارين قد أصيبت طائرتهما ، فبالغ الشيخ محمود ، بالعناية بهما ، وعاملهما معاملة طيبة ، وحين علم بأن أحـدهما تمكن منه المرض اتصل بالعدو حالا وفاوضه ، على امداده باسعافات طبية لاسيره المريض •

وكان الشيخ محمود قد احتفظ بجميع ممتلكات الموظف الانكليزى الذى كان فى السليمانية وهو المستر « كلارك Clarke واستبقاها حتى أعادها اليه كاملة بعد ان منى الاكراد بالهزيمة • واضطر الشيخ محمود بالاخير ان يذعن للامر الواقع ، ككل زعماء الحرية ، بعد ان حاول خمس مرات ان يجمع شمل الاكراد فى حكومة كردية ، وأخيرا اقتيد الى السجن • وهو الان يعيش فى ريف قريب من السليمانية • ويعيش أحد ابنائه رهينة فى جنوب العراق •

وما كان أشوقنى ، ان أرى هذا الرجل الكبير ، واتعرف عليه ، ولكن الشيخ « بابا على » أخبرنى بان أباه قد كبرت سنه ، فلم يعد يستطيع استقبال الضيوف وقد أرانى الان ، وقد حدث عن مشروع راوندوز قليلا ، فهذه الطبيعة الساحرة فى كل ما تتجلى به فى هذه المنطقة ، تغرر بالانسان كثيرا ، فتستيله الى ان يمعن فى التفكير بحرية الاكراد ، ولابد للانسان ان يجهـد نفسه ، ويستجمع قواه ، ليصمد امام هذا التغرير والاغراء ، لئلا ينساق اليه فى كل لحظة تستدعيه فيها خواطره •

وخطرت لنا اشباح اللصوص وقطاع الطرق ، عندما رفع يده عاليا ، شيخ طويل القامة مدجج بالسلاح ، وطلب منا ان نقف ولا نتحرك ، وتبينته ، فاذا به رجل من رؤساء العشائر الكردية ، كان يتبع أخبارنا ، ومذ عرف بوصولنا ، جاء لاستقبالنا وهو اذ اندفع الينا بهذا الحماس ، لانه يهمه أمر تنمية الغابات والعناية باشجارها ، ومعرفة ما يتعلق بها ، وكان أحد الانكليز

الاخصائيين بالغابات يرافقنا • لقد كانوا يعدون ستة من الاكراد ، وكلهم مدججون بالسلاح ، قد حطوا رحالهم هناك وفرشوا سجادهم الملون على الارض • وكانت القهوة قد هيئت فجلسنا معهم بعض سويعات قصـــار ، واحتسينا من تلك القهوة المزة حسوات ، وتجاذبنا أطراف الحديث في ما بدا لنا من الموضوعات •

وكان بينهم رجلان وخط الشيب رأسيهما قد لعبا دورا مهما في حوادث اللصوصية في تخوم كردستان ، كما أخبرنا أحد مرافقينا وهو يعد من ثقات المطلعين على ما جرى من الحوادث في هذه المنطقة من كردستان •

ويبدو ان هذه الاراضي ، لم تخل بعد ، من عصابات الشـــقاة حتى اليوم • وماذا ينفع هذا العدد الضئيل من مخافر الشرطة ، وهي مقامة على الطريق العام في مثل هذه الآلاف من الكيلومترات المربعة ، التي تتيح لكل واحد ، ان يختفي بين منعرجاتها ، فيهدد الامن ، ويعيث في الارض فسادا ؟

وكان من بين الاحاديث التي تطرقنا اليها ، حديث الصيد والحيوانات الوحشية ، ومذ سمع هذا الرئيس المهاب الجانب ، انه يعجبني حديث الصيد والوحش ، ويسرني ان اتحدث مع من يهواه ، وبهره مني معرفتي بأنواع الصيد في جبال كردستان وغاباتها ووديانها ، طلب مني بكل قلبه ان أرافقه في جولة صيد ، مدة اسبوعين في منطقة غنية بالوحش تقع في أراضيه • وما كان أحب لي ، ان استجيب الى دعوته ، لو لم يكن الوقت قد أحرجني •

وكان « توم » قد وجد ، انها فرصة طيبة ، قد اتيحت لي ، وهو لا يريد ان يكون أنانيا ، فيقف في طريقي ، ليحرمني لذة هذه المتعة الفريدة ولذلك ، طلب ان يرحل الان ، ويعود بعد اربعة عشر يوما ، ليعد لي لوحة ، نقش عليها

اسمي ، فيضعها على قبري .

وحين لحظ مني الانكليزي الاخصائي بالغابات ، تخوفي من أذى الشقاة وتهيبي من عصابات قطاع الطرق ، وخشيتي من وقوعي في هوة أحد الوديان ، راح يدلي للرئيس الكردي بهذه الاسباب التي تمنعني من اجابة طلبه ، ، فبدا الجد على وجه الرئيس وقال ، لا يمكن ان يصيبه أي مكروه وهو بمعيتي وبين عشيرتي . ثم استمر يتحدث بلهجة تفيض رقة وحيوية ، فقال لي ، انه سيقف الى جنبي وسيحميني بظل أكتافه ، وبدخان نيران ربعه ، فكانت هذه التحفظات ، التي تبعث الامن والطمأنينة في قلب الانسان قد شتت الخوف عني وهونت الامر عليّ ، ومع كل ذلك ، فان الاخطار ، التي يحتملها الانسان في تخوم كردستان لا يمكن ان يستهين بأمرها ، وبدا لاحد رفاقنا اذ ذاك ان يفيدنا بما معناه ، بانه لو اتيح له ان يعرف ، كيف يتحمل هؤلاء المضيفين الستة بأجمعهم وزر حياة كثير من الناس !

وقد وادعنا مضيفينا ، ونحن في هذا الجو الممتع ، والتقطنا صورهم ، بأسرع من لمح البصر ، وتابعنا سفرنا ونحن نسير في الشارع العام ، نصعد جبلا وننزل من آخر ، وكنا في كل لحظة نرى مناظر خلابة ، من سحر تلك الغابات التي تبدو لنا في كل مرة بحلة قشيبة أخرى ، حتى حللنا في منخفض أحد الوديان العميقة ، وكان ينحدر في وسطه نهر صغير ، هو نهر راوندوز ، وكان الطريق يسير بنا من بين صخور ضخمة مخيفة ، قد شكلت قبابا عالية على ضفتيه ، مثلت لي ، ما وصفه « هاملتون » من عمله الجبار ، اذ قال ، لا يستطيع الانسان ان يتصور شيئا أعظم واروع من الذي لاقيته في قهر هذه الطبيعة .

وفي وسط هذا الوادي العميق جلسنا نأكل غداءنا ، الى مصب شلالات

من المياه ، كانت تتساقط الى أعماق سحيقة من الوادى • وقد تركت صحبى جالسين هناك وسرت على قدمي فى منعطفات الوادي ، لاشاهد مكنونات هذا الجمال الالهى ، وقد بعدت عن صحبى كثيرا ، حتى جاءوا الى بسيارتهم بعد سويعات ، وأخذوني معهم • ولم يكن الطقس اذ ذاك حارا ، رغم ان الشمس كانت تنشر أشعتها على الوادي ، ثم تابعنا السير حتى قادنا الطريق الى الصعود الى المرتفعات • وكنت قد رأيت حيوانا كاسرا قد خطف على مقربة منا ، لا يبعد ان يكون ذئبا • وكلما سرنا فى هذا الطريق الحيوى ، أكبرنا « هاملتون » وزدناه احترامنا فقد قضى اربع سنين فى وحدته ، يقاسى الامرين ، ليتم بناء هذا الطريق ، واحتمل اربعة فصول من الشتاء فى حياة بدائية قاسية ، وهو الاوربى الوحيد الذى عاش بين جماعة من الناس ، لم يكن مطمئنا منهم ، ولو انه ذكر الكثير عن شريف محمد رؤساء الاكراد ، الذين آزروه وساعدوه على انجاز عمله •

والحقيقة ، ان ليس من السهل على الانسان ان يعيش فى أرض ، تختلف فيها معانى الحياة وتصورات مثلها العليا فى الحرب والسلم والشرف والواجب والحق والباطل والظلم عن ما ألفه ودرج عليه ، اذ هو لا يلبث ان يقع ضحية عمل من أعماله ، ارتأى فيه الخير والاحسان ، ورأى فيه الاخرون ، سكان الارض غير ذلك •

ويقص « هاملتون » علينا ، من قصصه الرائعة فى هذا الباب ، اذ يقول ، كان قد استأجر مرة حصانا ادهم اللون كبير السن ، من أحد الاكراد ، وأراد فى معرض الحساب ان يدفع له الاجر المقرر ، وهو ما سيطلب منه حتما ، ولكنه رأى العجب ، رأى عينى الكردى العجوز تقدح شررا وقد وضع يده على مقبض خنجره حينما قدم اليه مبلغ الاجر • فما كان منه الا

ان يبصق على الارض ، « وهى حركة تشير الى التحقير والاهانة » ثم ترك المبلغ وولى وجهه حتى توارى عن الانظار .

وكان « هاملتون » قد لاحظ ، ان هذا الحصان ، ولو لم يكن فى ريعان سنيه الاولى من شبابه ، فهو فى هذه السن من حياته حيوان قوى ، استطاع ان يقطع مسافة خمسين ميلا من غير ان يلحظ فيه أثرا للتعب أو الكلل . ثم كانت هذه الظاهرة الغريبة فى سلوك هذا الرجل الكردى العجوز قد جعلته يعتقد بان لابد ان يكون هذا الرجل من الشخصيات الكردية المعروفة ولابد انه من اولئك الشيوخ الاقوياء فى منطقته وبين عشيرته ، وان حصانه كان فى الايام الاولى مشهورا بندرته وقوته ، وانه من الخيل ، التى لا يجمل ان يمتطى صهوتها الا الرؤساء وأصحاب الجاه . فهو حصان يندر وجوده كصاحبه .

وعرف « هاملتون » ان الاجر الذى دفعه لمثل هذا الحصان القيم ، اهانة له ولصاحبه ، ورأى ان عليه ، ان يسارع فى الاعتذار ليصحح خطأه ، فاستطاع بذلك ان يربح من هذا الرجل الكردى السارق القديم ، ومن ابنه صديقين ، بذلا جهدهما فى مساعدته وتمهيد الطريق له ، وازالة كل عقبة تعترضه .

وسرت ، يجتذبنى سحر هذه الطبيعة ، فضعت فى هذا الطريق الذى دكت أرضه بالصخور ، فبدا كالنفق قد غطى أعلاه بصخور ضخمة ، يراها المار فوق رأسه ، وكنت كلما اتابع السير فيه ، يأخذنى العجب ، وتستوقفنى الدهشة من التواءات هذا الطريق ومنحنياته ، وترتفع من جهته اليمنى جبال « كورك داغ » الشامخة التى تصل فى ارتفاعها الى « ٢٤٠٠ » مترا ، وتحفه من الجهة اليسرى سلسلة جبال « باردوز » التى تمتد الى مسافات بعيدة من

الاميال .

ولم أكن ارى مخلوقا أو دابة فى هذه المسافات الشاسعة ، غير زوج من الغربان ، يحومان هنا وهناك ، وينتقلان من قمة الى أخرى وبينا كنت اسير فى هذا الشارع ، وانا كالتائه بين منعرجاته اذ فاجأتنى سيارة « باص » وقد كانت من السيارات التى تحمل الركاب بين راوندوز الى اربيل .

ترى ماذا ينتظر ان يفكر ركاب سيارة « الباص » فى أمر هذا الرجل الذى يسير وحيدا ، ويبدو أجنبيا ؟ وقد كانوا فى كثرتهم كالذباب حط على قطعة خبز غمست بالعسل . وهم لا شك قد حلوا هذا اللغز ، عندما وقفوا على مصب شلالات المياه ، وقد استطعت أن اتصور الحديث الذى دار فيما بينهم عن هذا المخلوق الغريب ، الذى يمثل فى هيأته دورا من أدوار قصة ممتعة .

وبعد مضي ثلاثة أرباع الساعة ، سمعت دوى سيارة الجيب التى يقودها « عمر » فتابعنا السير بها الى منتهيات الوادى ، وهناك انكشفت لنا مناظر سلاسل الجبال البعيدة ، التى كانت ترى قممها مغطاة بالثلوج بكميات هائلة ، وكان بعضها يبلغ فى ارتفاعه اربعة آلاف متر ، وقد نسيت اسم هذه المنطقة التى كان فيها ، بعض الخرائب القديمة ، وبيوت مبثوثة هنا وهناك .

وتقع « راوندوز » الى الجنوب منها يوصلها طريق فرعى ، ينبثق من هذا الطريق العام . ولاول مرة أشاهد غابة كثيفة تبنت فى مرتفعات الجبال ، اذ انها تعد ظاهرة غريبة فى كردستان ، ذلك ان عددا كبيرا من سكان هذه المناطق يجتثون الاشجار هناك .

وقد وضعت الحكومة العراقية خطة ، لمعاقبة من يقتلع الاشجار ويعبث فى نمو الغابات ، وقد ابتدأت بتنفيذها .

ولا شك ، ان الاكراد ، تضطرهم برودة الشتاء القارصة ان يتخذوا من الطبيعة أمهم الحنون ، حماية لهم ، فيقتطعون أخشابها ، ليتقوا بها زمهريرها • وبعد ان حل المساء ، عرجنا في سيرنا نحو « أربيل » وقد رأينا ، ونحن في طريقنا ان نغتنم الفرصة ، فنزور قرية من أرياف هذه المنطقـة ، يسـكنها الآثوريون الذين امتحنتهم الحياة ، فشددت عليهم • انهم الان يعيشون مع الاكراد بسلام في حلهم وترحالهم • وقد استطعنا ان نتحدث مع رئيس القرية ، وهو رجل تبدو على ملامحه الشجاعة والمعرفة ، فتطرقنا في الحديث عن زراعة التنباك ومحاصيله • ثم أخذنا لنشاهد القرية ، فرأينا مشروعه الذي أراد أن يرفع به المستوى الصحي في بلدته ، وفي مقدمته اسالة الماء بالطرق الصحية • وقد أعجبنا بهذه الايدي البشرية التي استطاعت ان تقاوم وتتغلب على كل عقبة في طريقها ، وقد رأينا مشروعات هذا الرجل ، بالرغـم من مجانبة التوفيق لها لا تزال في طريقها تنبض فيها الحيوية والقابلية في ان تقدم ثمارها يانعة •

وأكبرت هذا الرجل ايما اكبار فقد رأيت فيـه التواضع والصبـر والاخلاص والشرف في كل ما يهدف اليه • وكان يشرح لنا حالة بني قومه بصراحة تامة وبكل بساطة ومن غير ان يزوق في الكلام • ولم نلمح عليه آثار الضجر أو التذمر • وقد كان يأمل في هذا الحديث ان يوقظ فينا الضمير الحي وعدالة الانسانية •

وكنا نرى احيانا ، ونحن نسير في هذا الطريق العام في كردستان ، أكواما من الاحجار وقد غرس في وسطها غصن من أغصان الاشجار ، ترفرف فوقه أعلام بيض تخفق بها الرياح من غير أن يسمع أثر لخفقانها • وقـد ظننت ، بان لابد ان يكون قد دفن تحتها أحد الاخيار من الناس ، أو ان فيها

شيئا له أهميته ، وقد أجاب « عبد » حينما استفسرت منه عن أهمية هذه التماثيل الصغيرة البسيطة ، اذ قال ، انها قبور لرجال كانوا أخيارا وعقلاء ، أو انها قبور من كان يخطب في بني قومه •

وعندما وجهت هذا السؤال الى الشيخ « بابا علي » أجابني بمثل ما أفاد « عبد » فهم يرون ، في شخصية هؤلاء الموتى مثلا عليا للبر والاحسان والشرف والشجاعة والخير وحب الانسانية • وقد أعجبني كثيرا ، ان تكون هذه الرموز المتواضعة ، تذكرة وعبرة ، اذ تبقى مدى الاجيال تنادي بان الناس الاخيار لن يموتوا ، والناس الذين اشتهروا بالعظمة والقوة والسطو ، يتركون وراءهم الى جانب تماثيلهم الناطقة بعظمتهم ، آثارا تذكر الناس ، وتوحي اليهم ، بانهم سعداء ، ان لم يشهدوا عهدهم ولم يروا حياتهم •

« ٣١ »

محطات النفط

كان طريقنا يسير بمحاذات نهر الفرات ، حينما تركنا مدينتي الرمادي وهيت ، وكانت الاراضي التي أمكن اسقاؤها وزرعها ، تمتد بامتداد النهر بمقياس ضيق جدا • اذ تتسع الصحراء فتبسط ذراعيها وهي متخوفة حتى لتكاد تحتضن النهر • وحينما انحرفنا عن مجرى الفرات جابهتنا السهول الرملية المترامية مباشرة ، وباتت الصحراء في وحدتها وسكونها ، فلم ير الانسان فيها ما يغير وحدة النغم والمنظر الا بعض التلول ، وهي لا ترى الا نادراء

وكنا ونحن نسير بمحاذات النهر ، نلمح نخيلا شامخات ، متناثرة هنا وهناك على ضفاف الفرات ، ثم لا تلبث ، ان تتضاءل اشباحها بين طيات الرياح الرملية ، حتى يختفي أثرها ، ويمحى كل شيء من معالم النبت أو الشجر • ويستمر بنا السير ساعات طوال ، في وحدة هذه الصحراء التي لا حد لها غير آفاق السماء • وكان أحد الصقور يتيه فوق سماء هذه الصحراء ، وهو يرافقنا في مسيرنا بعض الفترات ، ولكنه لم يلبث بعد قليل ان ترك هذه الرفقة ، وحلق بعيدا في هذا الفضاء الذي لا نهاية له ، اذ كان قد بدا له ان هذه الاشياء المعدنية المتلامعة من تحته ، التي راح يلاحقها ، ليست غنيمته المأمونة ، وهي في مظهرها لا تدل على انها قافلة ، يجد منها في أمسيته على الاقل طعام عشاء لذيذ • وكانت أشعة الشمس تميل الى الافول حين ارتقينا

سلسلة تلول مرتفعة استطعنا ان نرى على مرتفعها منظر الفرات ، تزاوله أشعة الشمس ، وهو شامخ بطغيانه •

ولم يطل بنا الزمن ، حتى احتجب عن أعيننا منظر هذا النهر المتلألئ ، وبدا لنا وسط هذه الصحراء المترامية قرية صغيرة ، تحوى بيوتا عديدة ، تخفيها الخضرة ومن بعدها صالات ضخمة ومخازن واسعة ، وكلها مطلية بلون الالمنيوم •

ثم ترى ، عدا ذلك أنابيب ضخمة منتشرة وعدد من المخازن المعدنية الهائلة ومكائن بخارية ، تعكس للرائى انطباعات خاصة ، انها احدى محطات ضخ النفط فى « حديثة » حيث تتقاطع فيها خطان من مجرى انابيب النفط المنحدرة من كركوك فيسير أحدهما نحو الجهة الغربية الى « لبنان » ، والاخر الى الجهة الجنوبية الغربية نحو « حيفا » وكان فى سنة ١٩٤٨ قد قطع مجرى الخط الثانى ، وذلك بسبب العداء الذى تأزمت مشاكله فى قضية فلسطين ، فلم يعد يصل شيء من النفط الى « حيفا » •

ويضخ النفط فى هذه المحطة الى مسافات بعيدة ، وفيها بعض المصافى فى الوقت نفسه • والحقيقة ان الانسان ، وهو يرى هذه التنظيمات وسط تلك الصحراء المترامية ، لتأخذه الدهشة من أمرها ، وتزداد دهشته من هذا النوع من التنظيم ، الذى استطاع الانكليز ان يجعلوا فيه من هذه البقعة من الارض القاحلة معمورة يتوفر فيها كل ما تتطلبه الحياة من راحة ومتع وملاذ ، فلم يكتفوا بحمل وطنهم الاكبر معهم فى الفكر والعقيدة ، بل أرادوا ان يشهدوا بأعينهم كذلك وطنهم فى كل ظرف وحين فى هذه البقعة النائية • فكل ما تتمثل به الحياة الانكليزية قد أعدوه فى هذا المكان البعيد ، فقد أعدوا ناديا تتوفر فيه كل وسائل الراحة والتسلية ، ومكتبة حافلة بما يجد فى عالم

الفكر والفن ، وفندقا مجهزا بوثير الافرشة ومنظما على أحدث نسق متطلبات الحياة وحانة تحوى مختلف المشروبات ، وساحة لالعاب « التنس » و « الكولف » و « الكريكيك » وحمامات واسعة للسباحة واصطبلات للخيل وحدائق غناء وبيوتا جميلة تتوفر فيها كل الوسائل الصحية ، ويستطيع الانسان في هذه المعمورة أن يشتري ما يشاء وان يتفسح بين ظلال أشجار « اليوكاليبتوس » وان يتنزه بين الساحات المخضرة من حدائقها ، وتلتف الصحراء حول هذه المنظمات الحديثة ، بعد ان يجتاز الانسان بعض الادغال والاشواك المحيطة بها . ويربط هذه المحطة بانحاء العالم خط جوى ، قد مهد له فيها بمطار حديث ، وتنقل اليها المياه بأنابيب تضخ من الفرات ، اذ يبدو ان الفرات لا يبعد كثيرا ، ولذلك لابد ان يحسب الانسان خداع الصحراء ، فى كل رؤاه ، ولا يبين فى امتدادات هذه الصحراء الشاسعة ، نبت أو أثر لاخضرار ، غير منخفض واحد ، قد طرزت جوانبه بالاوراد الملونة الجميلة ونبتت فيه بعض الاشجار ، وبنيت فيه بعض البيوت الطينية والقناطر .

وقد استطعنا ان نستقر فى غرفة مريحة فى فندق المحطة ، مجهزة بالحمام واسالة الما . وكان الطباخ الهندى قد قدم الينا أكلة هندية من « الكورى » وبيرة مبردة ، فأطفأت ظمأنا ، وقد جلسنا فى الحانة على سرر وثيرة ، وشاهدنا مزهريات من أنواع الورد قد زينت بها وجهات الحانة ، ولوحة قد نقش عليها صورة لسباق الخيل الانكليزية معلقة على الحائط وكانت كرات « البليارد » تسمعنا ضرباتها ، يخالطها صوت خافت لبعض المكائن . وعلى مقربة من هذا المكان ، يرى العرق النابض بالحياة الذى حبا هذه المؤسسة بالحيوية والنشاط . اذ يندفع فيه هذا السائل الثمين ، فيقطع مسافات

شاسعة من الوديان والصحارى حتى يصله الى المرافىء • انه السائل الذى يتحكم بحياة الجماعات فى مختلف انحاء العالم ، فلا يدانى تحكمه شىء آخر ، انه السائل الذى يحرك مليارات العجلات والمحركات ، انه السائل الذى هو وحده قد أثار ويثير الحروب العالمية ، انه السائل الذى قد كان مصدر السعادة والشقاء ومصدر الغنى والفقر ، وهو الذى جعل الاماكن المنسية من أصقاع العالم شعلة للفتن والمطامع ، تدور حولها السياسة العالمية ، انه السائل الذى أصبح الان كالدم تتغذى منه مصانع العالم أجمع • وقد لا يكاد المرء يستطيع ان يتصور بان هذا السائل الحيوى يتدفق الان من هذه الارض ، التى كانت تحتفظ به بين طياتها ملايين السنين ، وقد انبثق من أعماقها بمئات الامتار • وهو الذى استطاعت أعين البشر ان تجده بعد ان بقيت أجيالا طويلة تبحث عنه لتستعمله لاغراضها •

ويعد العراق ، من البلاد الناشئة فى تصدير النفط ، فقد كانت صادراته فى سنة ١٩٣٠ لا تزيد عن ١٢١ الف طنا ، وفى سنة ١٩٥٠ ، بلغت ستة ملايين من الاطنان ، وهو الان يعد المصدر السادس والسابع من البلاد المصدرة للنفط • ولكنه لا يقف عند حدود هذه الكمية فى مستقبله • فالاعمال التنقيبية فى العراق ، تبدو مستمرة ، وقد اكتشف فى السنوات الاخيرة عدد كبير من آبار النفط •

وأقدم منابع النفط ، هو « بابا كركر » فى « كركوك » ، وفى الجهة الشرقية من « خانقين » يقع ثانى منبع وهو مركز مهم جدا • وفى الجنوب منبع ثالث ، بدا يستغل الان ، وعلى الحدود الايرانية فى منطقة اقتطعت للعراق اكتشف فيها منابع غزيرة عديدة ، وتبدو آبار كركوك حتى الان غزيرة بنفطها ، وتمتد أحواض النفط الاحتياطى تحت الارض ، فى هذه

المنطقة الى مسافةماية كيلومترا طولا ، وكيلومترين عرضا وهو من كمية النفط الاحتياطى العالمى المرتبط بعضه ببعض •

ويمتلك حق استخراج النفط فى العراق ، أربعة شركات هى ، شركة البترول العراقية ، وشركة بترول الموصل ، وشركة بترول البصرة ، وشركة نفط خانقين • واذا قدر لهذه الشركات الاربعة ، ان تستمر فى عملها بهدوء وسكينة ، وتسلم من رجات القدر فلا تشهد «مصدقا» عراقيا يقلق وضعها ، فهى لا شك تنتظر شيئا كثيرا فى المستقبل القريب • فهى اليوم يخمن انتاجها السنوى باثنين وعشرين مليونا من الاطنان ، ويقدر انتاج آبار البصرة وحدها بثمانية ملايين طنا سنويا •

ولم تحدد بعد المبالغ التى تدفعها هذه الشركات الى الحكومة العراقية على أساس حصتها من الارباح فى السنوات الخمسة الآتية ، ولكنها تخمن بما لا يقل عن ١٥٠ مليون دينارا ، أو ما يعادل ١٫٨ مليارات من الماركات • ولا شك انه مبلغ جسيم لبلد لا يزيد تعداد نفوسه عن خمسة ملايين ، ترزح غالبيته تحت وطأة الفقر والجوع ، وهو يقدر بأضعاف ميزانية الدولة التى لم تزد عن ثلاثين مليون دينارا •

وطبيعي ، ان يكون استغلال هذه المبالغ الضخمة فى المشاريع النافعة ، موضع أخذ ورد ، تتعذر السرعة للبت فيه • وهناك مشروع خصص له مبلغ قدره ١٦٨ مليون دينارا ويحتوى هذا المشروع على ان يصرف ٥٥ مليونا للرى ، و ٨ ملايين لاصلاح الاراضى ، ٣٧ مليونا للصناعات الخفيفة ، و ٣١ مليونا لاستيراد ما يحتاج اليه لهذه الاعمال • واذا أريد احتساب هذه المبالغ بالماركات ، فتضاعف باثنى عشرة مرة •

ولنا ان نتصور شعورنا بالفرح ، اذا ما أتيح لحكومتنا أن تحصل على

مبالغ فى السنوات الخمسة الآتية ، يربو مقدارها على خمسة أضعاف وارد ميزانيتها ، وعندها يسيل لعاب كل فرد منا ، لطعمها ورائحتها .

ترى كيف سيكون وضع العراق فى الخمسين سنة القادمة ؟ فسيرى حفيد الشيخ « انور » راكبا عربيته وهو ذاهب الى مكتبه ، وسيجلس فى غرفة مدير شركة نفط العراق ، ويتحدث فى ما استقرت عليه القيم العالمية ، وسيقص على ابنائه ذكريات طفولته ، عندما كان يرافق جده الوقور فى الصيد ، بين سهول « الزبير » وسيرى فى المساء ، وقد اصطحب زوجه الى سهرة فى فندق السندباد يراقصها هناك ، فتتهادى السيدة « فاطمة » وهى ترفل بأثواب الحرية طليقة ، فتصعد على السلالم ، وتبان سيقانها الجميلة ، وهى لابد تتذكر جدتها ، التى لم تكن قد مشيت فى الشارع ، الا وهى ملتفة بعباءتها ، من رأسها الى قدميها ، وسيرى ابنه « حسن » يتزحلق على ثلوج جبال لبنان . ويدرس فى اوكسفورد ، وسيرى حفيد « جعفر » وقد التف بمعطفه ، وهو يسوق محراثه الحديث « التراكتور » فى الصباح ، ويركب دراجته البخارية فى المساء مسرعا ليحضر دورة تدريب فى خدمة الارض واصلاحها . بينما تتصدر زوجته فى بهو ندوة رابطة الفلاحين العراقيين ، بين جمع من نساء القرية ويرى « أحمد » يسكن أحد طوابق بناية ضخمة على دجلة ، وهو يتحدث مع زوجه ، عن امكان ادخال ابنه الوحيد فى مدرسة الصناعة فى بغداد .

وسيسافر فى أشهر الصيف مدراء البنوك والوزراء والمدراء العامون وأصحاب المعامل ، مع عائلاتهم الى جبال كردستان ، حيث الهواء العليل ، ويستقبلهم هناك أصحاب الفنادق فى « حلبجة وزاخو » الذين كان آباؤهم بالامس يتلصصون فى جبال كردستان فيسرقون الخيل وينهبون القوافل المارة .

وستغطى جبالها الجرداء بغابات كثيفة ، فتصدر الاخشاب لخطوط السكك الحديدية ، وسيجد حفداء اولئك الشيوخ تسليتهم فى سباقات بغداد ، وقد كانوا بالامس لا يعرفون متعة فى دنيـاهم غـير ان يتلذذو بمقبض سيوفهم ويمتطوا صهوات خيلهم ويتقدموا على من سواهم من بين الجموع ، فيشمخ من كان فى طليعة قومه ، وهم يبغون فى ذلك أن يقوّضوا بيوت من يعاديهم من عشيرة المطير أو الضفير أو شمر .

والحقيقة ان بلايين من الاجسام الحية الصغيرة ، كانت قد تحللت فى فترة جغرافية تاريخية خلت عهودها ، حتى آلت الى هذا السائل الذى نسميه اليوم « النفط » .

« ٣٢ »

النشوة فى العطاء

كنت واقفا على ناظم الرمية ، وهو يوجه المياه ويوزعها على المزارع ، فوقع نظرى على محزم احد الفلاحين ، وكان يتلامع فى وسطه خنجر مطعّم بأحجار تزهو الوانها ، وله مقبض فضى جميل • وكان الشيخ الذى رافقنى منذ الصباح ، وقد راق له المزاح معى طيلة اليوم ، لحظ منى التفاتتى ، فما كان منه الا ان اخذ الخنجر من محزم الفلاح بغير استئذان منه ، وقدمه الىّ ، فأبيت ان أتقبله ، ولم يبد منى استعداد لقبول عطيته • واذ ذاك حملقت عينا الشيخ واظلمت الدنيا أمامهما وبدا الفلاح الذى رأى ان قد سلب خنجره يجيل بنظره هنا وهناك ـ ومن يدرى فلعلنى قد تخيلت الامر كذلك ـ

ومهما يكن من امر ، فقد اسرع الى « عبد » والقى فى سمعى بانها لهدية قيمة وجميلة • ولكننى لم أشأ ان افهم بأن العربى يشعر بالقوة والعظمة اذا تحسس من احد انه اعجب بشىء يمتلكه ، فيندفع برغبة منه ويقدمه اليه هدية خالصة لا يبتغى من ورائها جزاء ولا شكورا • وبدا عبد غضبان أسفا ، اذ أزعجه منى هذا التزهد والتعفف فقال لى ، ما هذا الذى تتردد فيه ، فقد رأيتك وانت تحدق فى هذا الخنجر مبهوتا وكأنك تبغيه ، وها أراك تأبى قبوله بعد ان اهدى اليك ؟ فقلت له ، ادفع عن نفسى ، لقد اردت ان أراه فقط ، ولم أفكر قط فى ان أسلبه من هذا الفلاح •

وثار « عبد » وهو يقول : « كان عليك ان تفهم بأن لا تبدى اعجابك بشيء لم ترد ان يوهب لك . فالعربى يشعر بأنك قد أهنته اذا رفضت ان تقبل منه شيئا اهداه اليك ، وها نحن سنجلس ثانية ، وعليك ان تقبل الهدية ، فليس عندى مشورة أخرى أقدمها اليك . فقلت له ، وقد بدا الغضب على ملامح وجهى ، لا يحق لى ان استلب من هذا الرجل خنجره وهو زينتـــه الوحيدة التى يعتز بها ، وما اسهل على الشيخ ان يتلاعب بهذا الخنجر الذى يعود لغيره . فقال « عبد » ان هـذا الفـلاح من عشـيرة الشيخ ، فهو لابد يعوضه عنه ، فكر فى الامر ثانية واقبل عطاءه ، والا فسوء المصير ينتظرنا .
ولم استطع ان اقتنع بما قال ، ولحظ الشيخ ان شيئا لم يكن مريحا فى الامر ، فما كان منه الا ان نهض من بيننا وامتطى صهوة جواده وغاب عنا .

فسألت « عبد » عن ما بدا لهذا الشيخ ، فقال « عبد » اظن انه لحظ منك ان هذا الخنجر لم يعجبك فأراد ان يأتى اليك بغيره اجمل منه .

وبعد مرور ربع ساعة تقريبا كنت المالك لخنجر مغر قد زين جرابه بقطعات الذهب ، وهو اليوم معلق على واجهة غرفتى فى البيت ، فقــررت ان لا ابدى اعجابى بشيء بعد الان .

وبعد فترة قصيرة كنت ضيفا عند احد اعراب البادية فى خيمة من الشعر فعثرت وانا ادخل تحتها بقطعة من السجاد كانت مفروشة فكانت حادثة مؤسفة شعرت انها قد آلمت مضيفنا كثيرا ، حتى ان وجهـه قد غلبت عليـه طيات من الاسى والاسف ، اذ لم يحسبها مصادفة حسنة وانا ادخل تحت الخيمة ، فاردت ان الطف هذا الجو القاتم ورأيت ان لابد اقول شيئا مثل لا بأس ان يعثر الانسان بقطعة جميلة من السجاد ، فكان من أمر « عبد » ان ترجم هذه الكلمات الى الشيخ مضيفنا بغير روية فلم نر الا ان وضعت تلك

السجادة المطرزة فى مساء اليوم فى السيارة ، وما علىّ الا ان اقول انها جميلة تلائم بيتى وتضفى عليه البهجة وتزيد فى اناقته وروعته •

وقد دخلت مرة على الشيخ « حازم بك » وهو فى قريته الجبلية وكنت بثوبى الخاكى ارتجف من شدة البرد ، اذ كان الجو مطيرا ورطبا ، فسألنى رأسا من غير مقدمات مناسبة عما اذا كنت اريد ان ارتدى ما يدفئنى ، فرحبت بهذه الاريحية الطيبة ، اذ كنت اشعر بوطأة البرد حقا • فما هى الا لحظات حتى رأيت امامى عددا كبيرا من المعاطف الثمينة المطرزة اطرافها بالذهب وبينها ثوب من الصوف جميل •

فقال « عبد » انظر ها هى كلها اصبحت تحت متناول يدك • فأخذت من بينها خجلا ، ثوب الصوف الملون ، وقد لاح لى على وجه الشيخ امارات خيبة الامل • ولا يزال هذا الثوب احتفظ به فى خزانتى •

وكنت مرة قد التقيت بسركال فى الاراضى التى تربى فيهـا الخيـل الاصيلة وقد كان السركال قد جاء ممتطيا صهوة جواد ، قد لا يحلم انسان ان تمتلكه يداه ، وقد اراد ان يقسم حاصل الزرع بين الفلاحين وملاكهم • وما استطعت ان احول نظرى عن هذا الحيوان الجميل الذى بدا لى أنه من خيل « الصقلاوية » فتقربت منه يدفعنى الاعجاب به ويجتذبنى اغراؤه • وأمعنت نظرى فيه وفحصت كل ما فيه من جميع جهاته ، ثم ضربت على كتفه وسألت السركال ، أهو من خيل الصقلاوية حقيقة ! فاستغرب من كثرة ما سمعه منى عن الخيل العربية الاصيلة • وبعد لحظات قصار وضع فى يدى رسن هذا الحصان ، فارجعته اليه وقلت ، انه لحصانك • وهنا هزّ « عبد » رأسه متأففا وقال : أما وقد أهداه لك !

ولقد رأيت ان قد تحدثنا مع هذا الرجل أحاديث جدية طويلة ، ولابد

ان ننهي الحديث بحل لهذا الاحراج ، فقلت له ليس من الممكن الان ان ارسل هذا الحصان فى شركة الطيران الهولندية ، ولابد للسركال ان يتكلف مؤونته ويحتفظ به ريثما تتاح الفرصة المناسبة ، فتتهيأ واسطة لتحميله الى اوربا . وعندها بدا منشرحا وقال ، ان الامل ليغمرني ان تلقح فرسي من الحصان الذى أهدى لى فى كوت الحى فتنسل منه . وكليّ أمل أن يزيد الله فى نماء شياهى التى ترعى الان العشب فى سهول الموصل ووديانها وان يزيد في قابلية الراعى وقواه ليحرسها من الذئاب .

وأراني يعز عليّ الان أن اترك العراق ، وهذه صور اسراب الخيل تتلامح فى مخيلتي ، وقد امتطى صهواتها فرسانها ، يتقدمها تيس قد انتصب قرناه وتدلت لحيته ، وهو يقود رأسين من الغنم خلفه ، وتتهادى من وراء ذلك السرب فرس صقلاوية أصيلة ، قد اسرجت بقطعة من السجاد ، يتلامع خنجر فارسها بين تموجات أشعة الصباح ، وقد أجهده التعب من مسك زمامها .

« ٣٣ »

فهد وشاهين

قصـة واقعيـة

ولد « فهد » فى الصحراء ونام فى المهد المعلق بين طنبى الخيمة كما يعلق الاعراب مهود صغارهم • وكان تناوح الرياح ومعمعة النعاج وصهيل الخيل وهدير الابل تمثل مسموعات المحيط الذى نشأ وترعرع فيه ، ورضع رحيق الحياة من ثديى أمه الطافحين فشب عليه كما يشب نبت الطبيعة فى الصحرا • وضاق مهده بجسمه الصغير المتنامى فكان يتحرك به يمنة ويسرة حينما يشتد غضبه ويحاول ان يتخلص من هذا الذى ضايقه وقيد حريته • وما ان اكتمل ربيع سنته الاولى ، حتى أخذ فى مخيم النساء والقى على رمال الصحـراء يزحف هنا وهناك يتطلع بعينيه الحادتين الى كل ما يحيط به من الاشياء فتنعكس صورها فى مخيلته •

وكان ابوه شيخ أحد أفخاذ عشيرة « الضفير » وقد كان رجلا مقداما ، استطاع ان يكسب مجده فى الانتصارات التى حاز عليها فى المعارك التى جرت مع عشائر « المطير » وهى اكثر العشائر عددا ، وقد انتشرت أربعها فى معظم السهول والوديان العربية الشمالية • وقد كان الشيخ حزام بن سالم مضرب الامثال فى حروب الصحراء • فهو يسير فى المعارك قدما كالاسد ، لا يهاب احدا ويختطف عدوه بسرعة البرق ، كالصقر حينما ينقض على فريسته وكان فى كل غزواته ومعاركه يرافقه التوفيق والنجاح • والاعراب عادة يلاحظون

في غزواتهم الهجوم الخاطف ولا يغزون الا العشائر التي تبعد عن مركز انطلاقهم اميالا بعيدة ، ابتعادا عن الجار .

ولم تكن الشجاعة والقوة والثقة بالنفس وحدها هي العوامل الرئيسية في نجاح « حزام » وترؤسه على عشيرته ، وانما السر في كل ذلك الى التوفيق الذي كان قد رافقه في حله وترحاله . والعرب يسمونه « الحظ » فالقائد الذي يرافقه الحظ يسير في ركابه كثير من مريديه . والحظ لم يقتصر على ان يرافق الشيخ حزام في الحروب فحسب ، فقد كان محظوظا بقلوب الناس ايضا . وقد اعطاه الله كل ما يطمح اليه ويرغب فيه ، وقد رزقه ولدا ذكرا وهو آخر مطلبه . فقد ولدته زوجه الثالثة التي هي في خيمته بعد ان يئس من زوجتيه الاولين ، وقد كان جميع اولاده اناثا ، الا اثنين منهما ذكرين قد توفيا منذ زمن بعيد . والعادة عند البدو ان موت الاطفال مصيبة مخيفة وهي بادرة تنذر بالشر . وهذه الزوجة الثالثة « نصاره » لم تنتسب الى عشيرة « الضفير » انها ترجع بنسبها الى عشائر « شمر » المعروفة بكثرة عددها . وينتسب الى هذه العشائر جمع كبير من الافراد الذين هم بين الرحل والمستوطنين من الاعراب . « ونصاره » أمراة عربية ، ولكنها لم تكن شغوفة بحياة الصحراء ، فقد عاشت زمنا طويلا في احدى قرى اللواء حيث كان ابوها زعيما على فخذ من عشيرته ، وله قطعة ارض يستغلها ، وكان في الوقت نفسه تاجرا يتجول بين الحياة القروية والصحراء . و « نصاره » ذكية فطنة دؤوبة على العمل ، وقد استطاعت ان تأخذ مركزا لائقا بين نساء مخيمات العشيرة ، حينما ولدت ذكرا ، لولاه لم يكن لها شأن يذكر . والزواج بالغريب بين هذه القبائل العربية لم يكن غير مألوف . وقد كانت نصارة في جمالها واغرائها ، قد اجتذبت الشيخ « حزام » فأحبها وانقاد اليها

ورأى نفسه انه سعيد بهذه الزوجة الشابة الجميلة • « ونضارة » كانت قد ولدت فى خيمة عربية كذلك • وقد ألفت شظف العيش وخشـــونته فى البادية ، وهى الى ذلك ، عاشت زمنا طويلا فى غرف مؤثثة منعشة فى بيت ابيها فى المدينة • وقد اكسبتها هذه الحياة التى قضتها بين الاغنام والابل ، وبين الرمال والصخور شيئا من الذوق والمعرفة فى سبل العيش والسلوك • فهى تنظر الى البدويات اللواتى اعتدن ان يغسلن شعورهن ببول الابل ، نظرة يقل فيها الاحترام ، ولكنها قد تضطر اليه احيانا لشحة المياه وندرتها • وهى تفتقد الزيارات المتعارفة التى اعتادت عليهـا بين اترابها • وكان يلـذ لها ان ترى نفسها وهى تتشح بأوشحة الحرير ، تحاكى اترابها الغربيات فى معارض الزينة • ولكنها لن تستطيع ان تنفك عن حيـاة العربيات ، وقـد استغنت « نضارة » عن كثيرة من متطلباتها الكمالية من غير ان تأسف عليها او تتظلم لها وهى متعلقة بزوجها ، مندفعة نحوه بدوافع الشوق والهيام التى تتصف بها المرأة العربية فى حب زوجها • وهى تشعر بالسعادة والهناء ان تكون زوجة لفارس مقدام ، وضاح الجبين ، يستطيع ان يفل الحديد بارادتـه • فكانت تعتز بمجد هذا الزوج الذى اطبقت شهرته الافاق • ولذلك فانها قد بذلت قصارى جهدها فى دفع كل غائلة عن ابنها ـ فهد ـ وكرست كل اوقاتها لتربيته وهى كأم عربية اندفعت فى حب ابنها حتى لكأنها تكاد تقدسه ، وقد أرادت ان تعده لاقتحام الصعاب وتحمل المسؤوليات التى تنتظره فى مستقبله القريب ، وهى مسؤوليات رئاسة عشيرة « الضفير » فهو الذى سيخلف ابيه من بعده ، وسيخلف سمعته وشهرته وشجاعته • غير ان هذا الزمن لا يزال بعيدا • فالاطفال لا ينفكون عن أمهم الا بعد ان يتموا السابعة او الثامنة من أعمارهم ، اذ ذاك يستطيعون ان يكونوا فى صفوف الرجال ، فمن يدرى بم

سيفاجئه القدر في هذه السنوات الثمانية وما الذى سيحدث له فعلا ؟

وجاءت الاخبار تترى من اواسط الجزيرة العربية بان « الاخوان » قد اندفعوا بعشائرهم كالوباء المنتشر ، فاحاطوا بخيامهم الحدود الصحراوية المكشوفة فيما بين الكويت والعراق ، وكان من بينهم زعماء موهوبون ، وقادة شجعان ، قد انبثوا يدعون الى ابن سعود ويبشرون بتعاليمه التى كانت تقاوم باعتبار انها تطوح بالعقيدة الاسلامية . وقد كان ابن سعود لا يهمه فى دعوته غير الامور السياسية ، ولم يدرك بأن العرب جميعهم يدينون بدين واحد ، ويخضعون لعقيدة واحدة ، وان عليه ان يسعى لتوسيع هذه العقيدة بشتى الوسائل . و « الاخوان » وهم يحملون هذه العقيدة ويتحمسون اليها ، لم ينفكوا يزاولون الغزو والنهب . فقد كانوا يستهدفون فى غنائمهم ابل « شمر » الشهيرة . وقد رأى الشيخ « حزام بن سالم » امام هذا الخطر الذى قد احدق بهم ان يحزم امره ويجدد العهود والمواثيق مع الاعراب الذين هم من افخاذ عشيرته ويعقد الاحلاف بينهم ، ليعد العدة للحوادث التى سيطالعه الغد بها . ويقف بالمرصاد لمن يريد سوءا بعشائر « المطير » . ومع اختلاف الاراء فى ايام غزوات الاخوان ، فمحالفات اكثر الاعراب البدو تدل على ان الاخوان فى سنة ١٩٢٥ قد غزوا لواء المنتفك وعشائر الخزاعل ، ولم يخشوا من ان يفتكوا بالنساء والاطفال ، فكانوا بهذا العمل المنكر قد خرجوا على تقاليد العرب وجاءوا ببدعة لم تعرف او تسمع فى تاريخ الحروب العربية . فالعرف بين العرب يقضى بان لا يجوز ان تمس شعور النساء والبنات فى الحروب ولابد أن يعطين قسما مما يمتلكنه .

وكانت فضاعة « الاخوان » وهمجيتهم قد علقت بأذهان الاعراب فلم يستطع احد ان ينسى حوادثها . ولذلك تطلب كثير من رؤساء العرب ان يأخذوا

حذرهم فيحكموا قواهم الدفاعية حول اربعهم ويهيئوا لعشائرهم منابع المياه • وقد كانت مضارب عشائر المطير منيعة بحيث لم يستطع احد ان يفكر فى ان يمسها بسوء وكانت هذه الخطط الدفاعية شحذت الشيخ حزام ، فلم يعد يخشى احدا حتى انه كان يود ان يقف على نقطة الضعف فى تحصينات مرابعه او ان ينبه عليها • وقد استعد للطوارىء فوجه هجومه ببضع مئات من فرسان عشيرته الذين قد مارسوا الحروب وعركوها ، واستدعى رجال العشيرة وشبابها واعدهم للهجوم فى اول اشارة تصدر منه ليعودوا محملين بالخيل والجمال • وعشائر المطير تملك من الخيل احسنها لانها متصلة بالعشائر الجنوبية ولن يفوت الشيخ حزام وهو المجرب الحكيم ان يكتفى بهذا الحد • ومع كل حذره ، فقد نشبت المعركة بينه وهو على رأس قوة قليلة العدد ، وبين جمع حاشد من قبائل « ابن سعود » • وكان الشيخ « حزام » نفسه قد اشترك فى هذه المعركة الشهيرة ، وابلى فيها بلاء حسنا • وكانت عشائر « المطير » التى يقودها اذ ذاك احد اولاد فيصل الدويش فى هذه المعركة ، قد ردت على اعقابها • وهزمت شر هزيمة ، وقد صرع فى هذه المعركة من مقاتلى عشيرة المطير ثلاثة ارباعهم وقد كانوا يربون على الخمسماية مقاتل ، فكان الشيخ حزام اثر هذه الحادثة قد اصيب بمرض عضال فى ظهره أقعده عن السير ، فكان هذا الرجل الشجاع الذى كان مضربا للامثال فى بطولته ومقدرته ، مقعدا اشلا ، وبقى بضع سنوات يعانى آلام هذا الداء وهو يندب الموت ويستعذب المنون ، حتى لقى حتفه •

ومهما يكن من أمر فان الرياسة أمر وراثى ، ولكنها ليست مقتصرة على الابناء فى كل وقت وحين ، وفى هذه الحالة لم يعد بالامكان ان يتقلدها « فهد » ذلك لانه لم يكمل بعد السادسة من عمره ، فحظى بالرياسة رجل من

اقرباء الشيخ المتوفى ، ولم يكن محتملا ان تدوم له الرياسة حينا من الزمن ، اذا ما شب من صلب الشيخ رجل جدير بها •

وقد رأت « نصارة » ان انتهت ايامها البيض بعد ان قضى الشيخ حزام آخر انفاسه وضمته الارض بين طياتها ، وفكرت فى الامر مليا ، فرأت ان لابد لها ان تنقطع عن حياة البدو الرحل وتعود الى بيت ابيها ، ولم يكـن ذلك سهلا فى كل حين وهى بين عشيرة تتحكم فيها العادات المتوارثة والعرف المتبع •

ولم يكن « فهد » الصغير ليعرف من هـذه الخطط التى سـيكون لها أثر كبير فى توجيه حياته المستقبلة • فقد كان يلعب على رمال البادية ويأكل التمر اليابس ، ويشرب البان الاغنام ، ويقضى اكثر اوقاته بين الخيل ، مشغوفا بحبها ، وكان ابوه يمتلك منها احسنها ، واستطاع ان يخرج مع المركب بعض المرات فى رحلات الشتاء ، ويأوى فى بعض فصول الصيف فى المنخفضات القريبة من الانهر • ومهما يكن من امر هذا الطفل اليافع ، فان حياة هذه الصحراء المترامية قد اثرت فى نفسه ، فاستهواه جمال آفاقها وحرية العيش فيها • فكان فى كل لحظة من لحظات حياته يدفعه الشوق الى الحنين اليها •

وارتحلت نصارة فى ضحوة يوم صاح ، واستقلت لها ذلولا ، ورافقها بعض مودعيها وهى تريد الشرق ، وتعلق الصغير « فهد » وقلبه يطير فرحا بظهر حصان كان قد امتطى صهوته احد فرسان قومه ، فاركبه خلفه ، وكان هذا الحصان من مخلفات ابيه الثمينة • وبقى « فهد » صامتا وهو على ظهر حصانه تتهلل نفسه فرحا بخبب سيره ، ولا غرو فهو اثمن تراث بقى له من فروسية ابيه وكان يتوق الى ان يكون فارسا مقداما كأبيه وانطبعت فى جسمه الصغير علائم اليقظة والذكاء ، فبدأ يتحفز دوما الى أن يرتقى منصب أبيه

وكانت عيناه السوداوان تجيلان النظر فى هذه الصحراء المترامية وتحدقان فى آفاقها ولم يكن يدرى انه مقبل على فراقها وانه سيحرم منها زمناً طويلا •

وأطفال الاعراب ، يتعلمون منذ صغرهم ، النظام والطاعة ، ولذلك لم يرق له ، ان يسأل عن وجهة السفر وغايته •

ولم يشعر « فهد » بالوحشة ، الا حينما حطوا رحلهم فى بيت جده ، فلم ير فى محيطه الجديد ، ما يشعره بالعودة الى مضارب عشيرته ، فيحيا تحت سقف خيمته • وأقنعته أمه بان مكثهما لن يطول به الزمن ، ورأى فهد ، ان هذه الحياة الجديدة محدودة بصحن الدار الصغير ، وبالازقة الضيقة المتربة القذرة ، فدب فيه السأم والضجر ، وشعر انه شقى فى هذه الحيـاة التى لم يكن يألفها • وقد كانت أسعد ساعاته الحلوة هى التى كان يقضيها فى الاسواق بين الباعة والخانات ، حيث يلتقى هناك بأفراد من البدو الذين يفدون الى هذه القرية بعيرهم يكتالون منها زادهم ، وهم يتجولون بين تجار التمور ، فيمتع نظره بمنظر الجمال والخيل ، فبين منعطفات هذه الاسواق الضيقة ، تنعكس له مناظر تلك الحياة البدوية التى ألفها وأحبها ، فيرى هناك أجراس الجمال ، وأرحلها وهوادجها •

وكان فهد ، ككل بدوى ، يذوب حنينا الى صحرائه الممتدة ويتعطش الى سهول البيداء وبطاحها ، وهو لما يزل بعد ، ترن فى أذنه أغنية الرعيان ، وهم يسرحون بماشيتهم ، وخفقان أجنحة الطيور ، وهى تحط بأسرابها على رمال الصحراء آمنة ، وأصوات القوافل وهى آتية من بعيد • وأهم ما افتقده فى حياته الجديدة ، انه لم يعد يسمع صهيل الخيل وضربات أرجلها ، فقد كانت أمتع شىء له وأحبه اليه •

وكان « فهد » يدور حول قهاوى القرية ساعات طويلة ، لكى يستمتع

بمنظر الخيل المربوطة أمامها • وأحيانا كان يغرر بفلو يراه يتابع أمه فيصهل له صهلة أمه ليوهمه ، ويغريه بمتابعته ، ومثل هذه الاصوات لا يقدر على اخراجها غير العرب •

وكان « فهد » يلعب كما تلعب الاطفال فى هذه القرية ، فيجمعون الاحطاب أو يركبون على ظهور الحمير ، ويذهبون بها بعيدا الى الاراضى البور ، ولكن كل هذه اللعب ، لم ير فيها « فهد » ما يعوضه عن صحرائه شيئا • وقد التحق أخيرا باحدى الكتاتيب العربية فى القرية ، وبقى زمنا يقرأ فى سور القرآن ، ويكررها بعد ان يسمعها من معلمه « الملا » مرات عديدة ، حتى استطاع ان يتعلم الحروف العربية وبعض الكلمات واستطاع ان يقلد كتابتها •

وكانت أمه تعد له الخطط لمستقبل حياته ، وأخذ جده يحبب له الاشتغال بالتجارة ، ويبين له مزاياها ، وصارحه برغبته ، فى ان يتدرب فى محله التجارى ، الذى يشتغل عمه فيه كذلك • ولم يكن « فهد » يشعر بارتياح لما عرض عليه ، كما يشعر الاطفال عادة ، فقد كان يملأ قلبه الحنين الى صحرائه ، التى شب بين رمالها ، ويستعر بين جنباته حب وطنه الاول •

ومهما بدت صلابة العربى فى اخفاء هذا الحنين الى وطنه ، فهو يتقد فى دخيلة نفسه ، ويؤثر فى عواطفه وسلوكه •

وقد ترعرع « فهد » ونمى جسمه ، فكان شابا مفتول العضلات ، ممشوق القامة ، يشعر بشخصيته ، ويرى ان قد أصبح جديرا ، لان يتقلد مركز أبيه بين بنى قومه ، فبدا متئدا فى حركاته وسكناته ، هادئا فى سلوكه وتصرفاته تزينه الحشمة والوقار •

وكانت الغصص التى نكدت عليه عيشه ، فى أيام نشأته الاولى قد تزايدت فى سنى شبابه ، فحرمته الراحة ، فقد توفيت أمه ، ولحق بها عمه ،

بعد قليل في مرض أصيبا به ، وكان عمه هو رب البيت ، وصاحب قياده •
فلم يبق من بعده من الرجال في البيت غير الجد العجوز الذي أصبح هو المسؤول عن أهل بيته ، وعن « فهد » وعليه أن يوفر لهم رغد العيش ويهيء لهم متطلباته • ورأى هذا الجد العجوز ، ان قد كبرت سنه فلم يعد يستطيع ان ينجز عملا ، ولم ير في « فهد » قابلية أو ميلا الى التجارة فكانت الافكار تتضارب في مخيلته ، ترى ، من سيتولى أمر هذه العائلة !! وكان يخرج الى مكتبه التجاري غالبا يدير أموره ، والتجارة كما في أكثر انحاء الشرق الاوسط ، تعتمد على اقتناص الفرص في البيع والشراء ، ولم تدم به الحال كثيرا ، حتى آل أمر المحل الى ابنه ، ولم يلبث بعد قليل ان عفت عليه نوائب الدهر ، ومات الرجل العجوز ، بعد ان أحس بان سيباع بيته وسيحرم أفراد عائلته من كل عون أو مساعدة •

وكان لهذا الجد العجوز ، قريب ثري يمت اليه بصلة الدم ، يملك معملا للطابوق ، فأراد قبل مماته ، ان يستدر عطفه ، فأوصاه ان يرعى هذا الشاب « فهد » الذي يرى فيه قوى كامنة ، يستطيع ان يتخذ منه عونا يساعده في مشاريعه •

غير ان هذا الرجل الثري ، كان قد أعماه حرصه ، وحرمه بخله لذة الحياة ، فغدا يحمل بين جنبيه نفسية ذئب جائع ، فكان في معاملاته متلونا ، شأنه التغرير بالناس ، واستغلال أتعابهم ، وهو الى ذلك كان مرابيا خطرا ، لا يبسم في وجه أحد من الناس ، الا اذا أنس منه استغلال نقوده أو الافادة من جهوده •

فوعده هذا القريب الثري ، عبدالرزاق ، خيرا ، وقال له ، انه سيوليه أمر معمله ، ويرعاه بعين عنايته ، وبعد ان وارى قبره بالتراب ، أخذ الشاب

« فهد » معه الى القرية المجاورة ، التي فيها المعمل . فكان « فهد » يحصل منه على أجر زهيد ، بالاضافة الى أكله وشربه ، ويخرج معه ، بعد ان ينهى عمله ، فلا يجد ما يلهيه . وكان جده قبل وفاته ، قد دسّ له بيده قطعا من الذهب ، وألقى في سمعه ، بان لا يتصرف بها الا في الضرورات الملحة .

ولم يكن هذا الثرى البخيل عبد الرزاق ، قد هيأ بيتا لسكناه ، تتوفر فيه راحته ، فاضطر « فهد » ان يسكن فى مقطع من الاصطبل بجوار المعمل ، كان عبدالرزاق قد ربط فيه خيله وحميره التى أعدت لنقل الاتربة والطابوق ، ولم يكن « فهد » ليسأم من هذا السكن ، اذ يجد نفسه فى أكثر الاحيان ، بين هذه الخيل التى يحن اليها ، وخصوصا اذا كسل الحمالون ، أو تماهلوا فى تسخيرها لنقل الطابوق أو التراب . وقد أعجبه واستهواه من هذه الخيل حصان ربط فى زاوية من الاصطبل ، كان يقف خلفه برهة من الزمن يحدق فيه تحديقة الخبير بالخيل وبمعرفة الاصائل منها . وقليل اولئك الذين قد حبتهم الطبيعة بموهبة معرفة الخيل ، وكان « فهد » يستطيع أن يعرف الاصيل من الخيل فى نظرة سريعة الى ما فى جلده من معايب ومزايا ، وما فى لون شعره من اغبرار ولمعان ، وما فى حركاته من خمول ونشاط ، وهى أمور فى الخيل ليست من السهل ان يعرفها الانسان ويفرق بينها . والحقيقة انها موهبة قلما تجود بها الطبيعة على الانسان ، وكان « فهد » من الافذاذ الذين نمت فيهم هذه الموهبة . ولا غرو ، فبين عروقه كانت تجرى دماء اجيال عديدة من أولئك الذين خبروا الخيل وعرفوها ، وهم من الفرسان الشجعان الذين امتطوا صهواتها وخاضوا بها معارك دامية . وكان « فهد » ، وهو ربيب الصحراء وابن رئيسها ، قد رأى هذا الحصان الذى اعجبه ، قد ارهقه الاذى ، وآلمه سوء المعاملة ، فرق له قلبه ، وتأثرت نفسه ولم يدر انه زميله

الذى شاركه نوائب الدهر وخطوبه ، وانه المخلوق الذى حفل تاريخه بمرير الحياة ، مثل ما حفل به تاريخه نفسه .

وكان هذا الحصان الاصيل قد بدأ يتكامل نموه ، فى هذه الايام السود التى يمر بها . ـ والخيل العربية بطيئة النمو عادة ـ فقد ولدته أمه على رمال الصحراء وبين مرابع ودياتها ، فأبصر النور فى الجزيرة التى تقع غرب النجف . وكان الشيخ « حسين » من شمر قد اعجب به ، فشمله برعايته وحبه ، اذ اكتشفت عيناه الفاحصتان فى هذا الحيوان اليافع اشياء مغرية من مزايا الخيل الاصيلة ، فعمل كل ما بوسعه لتربيته وتنمية جسمه ، واعداده ليكون مثلا رائعا للخيل العربية الاصيلة ، فكان فى الاسابيع الاولى من ولادته ، يدلك سيقانه ، ويعنى بحوافر أرجله ، وبانتصاب أذنيه ، لئلا يعلق فى نموه عيب من عيوب الخيل ، وقد كان موفقا فى اعداده وتربيته ، اذ شب ونمى فى ادوار تكامله خلوا من كل ما يخدش جماله .

ولم يكن الشيخ « حسين » من الشيوخ المعدودين الذين اسعدهم الحظ فى توسيع رقعة بقاعهم ، فلم يكن يملك شيئا من خيام الشعر ، أو قطعان الماشية ، أو ذياد الابل . ولكنه يملك منها ما استطاع أن يحافظ بـه على سمعته وشخصيته ، ولو ان نوائب الزمن قد احاطت به ونشرت ظلها عليه .

وقد أولع الشيخ « حسين » بحب جياد الخيل ، فكان يملك منها ثلاثة ، كلفته مبالغ طائلة ، أثقلت كاهله ، فاضطر الى أن يرزح تحت وطأة ديون ثقيلة . وقديما قالوا ، من أحب الخيل أحب النساء ! وكانت منية الشيخ « حسين » أن يمتلك بندقية ، وهو يريدها من أحدث ما ظهر من البنادق ، ولكن الزمن لم يمهله كثيرا فقد بدأت حاله تتدهور شيئا فشيئا ، وتتردى من سيىء الى اسوأ ، وتقلص منه كل ما كان يملكه من الخيل والابل

والحيوانات الاخرى • وهو كغيره من العرب ، قد اعتاد الاهمال وعدم المبالاة حتى رأى نفسه ، ان قد أحدقت به الديون ، فضاق بها ذرعا • وكان الدائن هو المرابى ، عبد الرزاق ، صاحب معمل الطابوق ، قد ارهقه بالفوائض التى كان يزداد بها دينه سنة بعد أخرى •

وكان عبدالرزاق قد سمع بهذا الفلو الجميل « شاهين » ، الذى يملكه الشيخ « حسين » وهو وان لم يكن يفهم شيئا عن الخيل أو تغريه مفاتن جمالها ، فقد عرف جيدا ، من اصحابه ان هذا الفلو الاصيل « شـــاهين » قيم الثمن • فأخذ يتردد على الشيخ « حسين » بزيارات متفاوتة ، واغتنم الفرصة مرة ، فحاول أن يقنع الشيخ « حسين » بكلمات معسولة ، أذ عرض عليه مبلغا جسيما بدل فلوه الجميل ، وقال له ، ان ديونه أخذت تتضاعف ، ولا يؤمل أن تجد حدا لمضاعفات فوائضها • ولكن الشيخ « حسين » امتعض من هذا الطلب ، ورفض تلبيته رفضا باتا ، اذ أن الفلو لا يمكن أن ينفصل عن أمه الا بعد سنة على الاقل • وهو لم يفكر قط فى أن يبيع مثل هـــذا الحيوان الجميل • وكان عبد الرزاق ، قد أغرم بهذا الفلو ، اذ كان يسمع الاهازيج والاغنيات تتردد على ألسن الناس ، وهم يتغزلون بجماله ، ويهيمون بسحره • وزاد أوار غرامه به امتناع الشيخ حسين من بيعه •

والبخل قد يدفع الانسان الى أن يغالى فى تقدير قيمة الشـــىء الذى رغب به وجهل ثمنه • اذ هو يقيسه بمقدار رغبة الناس به وحرصهم على الفوز به ، فدفعته هذه الرغبة الى شراء هذا الحيوان مهما كلفه الامـر • وأغرى الشيخ « حسين » آخر الامر بمبلغ جسيم اكثر بكثير من قيمـــة حصانه • واقتاد « عبدالرزاق » هذا الحصان الذى لم يزد عمره على السنة الواحدة الى اصطبله • ولم يكن منظر هذا الحصان ، وهو لم يتكامل نموه

بعد ، يستميل أحدا أو يغريه ، وهو بهذا العمر يصعب تقدير قيمته ، ولا يعرف عنها شيء الا خبير ماهر بأمور الخيل واحوالها • وقد حسب عبدالرزاق حسابه ، بأن علف هذا الحيوان في سنوات معدودات لا يكلفه شيئا • ولذلك فلابد له أن يحتفظ به الى أن يستكمل نموه وتشتد عضلاته ، ويبلغ عنفوان قواه ومجده • وكان يتحلم في نومه ويقظته أن سيحصل على ثلاثة اضعاف ثمنه الذي اشتراه به • ولكن هذه الاحلام لم تحقق ما كان يصبو اليه • فقد كان هذا الحصان اليافع قد اعتاد حياة الصحراء وألف العيش فيها ، وكان يتحسس بالعناية به والاهتمام بشؤونه كأي فرد من افراد العائلة • واحساس الخيل العربية بالعناية بها لا يدانيه احساس حيوان آخر • وقد رأى هذا الحيوان نفسه أن قد ربط في هذا الاصطبل مع بعض حيوانات الحمل والحمير ، ولم يعد يسمع أهازيج نساء المخيم التي كانت ترهف حسه وتبعث فيه النشوة والحيوية ، ولم يجد بعد ، تلك الخيمة التي كان ينطلق اليهـا فيصهل بين مرابط عواميدها ، يطلب الماء • فكانت هذه الحياة المتغايرة التي أرغم عليها ، قد جعلته شرسا وافقدته كثيرا من مزاياه • والخيل الاصيلة سرعان ما تنهار قواها وتذبل جذوتها اذا ما افتقدت العناية بها • فلم يكن من أمر هذا الحصان الاصيل ، وقـــد استمر به الحال مربوطا في هـــذا الاصطبل ، الا انه استحال الى حيوان وحش شرس ، والذين خبـــروا الخيل يعرفون هذه الظاهرة فيها جيدا • ومع ان عبدالرزاق لم يعرف من أمور الخيل شيئا ، فقد كان يعتقد بان هذا الحيوان يقاسي آلام الذلـــة والهوان • وهو يعرف كذلك ، بان الحصان لابد أن يحافظ على شكلـــه وهيأته ، لان قيمة الخيل العربية بجمالها ، وهي أحب اليها أن تعيش بين أربع البدو ، فهناك تتحسس بحسن معاملتها والعناية بها • وهي لذلك تشتد

الرغبة اليها ، ويقبل الناس على شرائها .

وانقلب « شاهين » حيوانا شرسا ، فلم يستطع التقرب اليه أحد من سواسه وخدمه ، وبدا ذلك الحيوان الاليف يعض كل من يدنو منه أو يركله برجله ، وأسقط في يد عبدالرزاق ، اذ بدأ يحس بأن هذا الحيوان لم يعد يمكن بيعه ، وأدرك بان العرب لا يقدمون على شراء حصان أبعد عن محيطه وبيئته . وبقى الالم يحز فى قلبه كلما خطر له ذلك المبلغ الجسيم الذى دفعه ثمنا لهذا الحصان . ولم يستطع أن يهتدى الى حل لما وقع فيه ، غير أن يتركه في مكانه .

وحين اتخذ « فهد » هذا الاصطبل سكنا له ، كان الحصان شاهين قد قضى فيه سنة ونصف السنة ، من غير أن يخرج منه الى حيث النور والهواء . والخيل العربية تبدأ فى تكامل نموها واشتداد ساعدها فى هذه الفترة من حياتها . ولذلك كان فى منظره يعكس صورة حيوان بائس قد أرهقه الذل ، يجول بنظراته ، وكأنه يبغى خلاصا من هذا السجن الذى يرزح بين اغلاله ، فيعتريه اليأس وتثور نفسه ، فلا يحتمل احدا يقترب منه .

وحرص « فهد » على أن يستميل هذا الحيوان اليه ، فاغراه باصوات ، أيقظت فيه نغماتها ذكريات حياته فى البادية ، حينما كان يعيش فيها حرا طليقا بين أربع أهله ومحبيه ، فهمهم يدير رأسه ، وهو يتطلع الى « فهد » بلهفة الخائف مرة والفاحص مرة أخرى . ثم يعود يهمهم ، فيوجه أذنيه الى مصدر الصوت ويشخر بمنخريه . ويدير برأسه يمنة ويسرة ويباعد بين رجليه . وكان « فهد » ينتظر الفرصة تواتيه ليفك رباطه . وعاود الكرة مرة أخرى يسمعه تلك الاصوات الناعمة ، وقد رأى « فهد » أن يتركه بعض الوقت ليتيح له استعادة ذكرياته ، فان غريزة الميل فيه تحتاج فى بعثها الى

وقت ليس بالقصير •

واستطاع « فهد » في وقت قصير ، بصبره ، وأناته ، أن يستميله اليه ويخضعه لارادته ، وتمكن أن يسقيه ويحس ّ له ويمسد على رقبته ، فاطمئن له وألف اليه وحده دون سائر السوّاس والخدم • فقد بقي ينظر اليهم شزرا وينهش كل من يقترب اليه منهم •

ولاحظ عبدالرزاق عناية « فهد » بحصانه ، وانصياعه له ، فوعـــده بأكوام من الذهب ، ان هو استطاع أن يريضه ، بحيث يصلح للبيع • فوعده فهد أنه سيبذل جهده في ترويضه واعداده ليكون حصانا نافعا • ولكنه ضمر في نفسه غير ما اراده هذا الصعلوك البخيل • ومهما يكن من أمر فقد استطاع أن يضمن لحصانه علفا جيدا على الاقل •

وهكذا آلفت الصحراء بينهما ، فحن كل منهما لصاحبه ، وتعلق هذا الشاب العربي ، بالحصان « شاهين » ووجد فيه أحب صديق اليه يسليه ويلهو معه ، وهو الذي لم يعلق طيلة حياته بغير أمه المتوفاة ، فخصه بحبه ، وعني به ورعاه بكل قلبه حتى أنه كان يتحرى عن كل وسيلة تعيد الى هذا الحصان الاصيل خصاله ومزاياه ، ويتزود من خبرة الفرسان الذين يفدون الى اسواق القرية بكلما يوقظ فيه غرائزه وسجاياه • وكان يقتصـــد من لقمة عيشه ليحتفظ بها له ، وهكذا استطاع فهد أن يجعل من هذا الحيوان حصانا ريضا طيعا ، حتى انه عاد فذعن الى حمل بعض الاتربة والاحجار على ظهره ، وهذا ما افرح عبد الرزاق ورفع عنه كابوس اليأس ، اذ رأى ان قد بدا على حصانه الحيوية وعاد نافعا •

وأدرك فهد ان هذا العمل الذي يكسب منه رزقه عمل وضيع لا يناسب وضعه ومركزه ، وهو العربي الصميم الذي انحدر من صلب رئيس مغوار

أحبه قومه وعشيرته ، وتذكر أحاديثه مع أمه عن خيام أبيه ومضارب عشيرته ورأى كذلك ان هذا الحصان الاصيل لا يناسبه هو الاخر أن يحمل الاثقال شأنه شأن الحمير والدواب • وبدا له ان لابد أن يتريث الان كيما يحكم الخطة في انقاذ نفسه وحصانه • وكان يشد على بطنه حزاما من الجلد فيه تلك القطع الذهبية التى دسها اليه عمه قبل وفاته مع بعض ما اقتصده من أجوره اليومية • وقد كانت رغبته أن يشترى هذا الحصان ، وهو وان لم يعرف قيمته ، فانه يعتقد بأن نفوره ممن يتقدم نحوه يساعد كثيرا على تحقيق رغبته فى شرائه •

واخذ « شاهين » يستعيد نشاطه شيئا فشيئا ، وتتقد فيه النضـــارة والحيوية • ويتلامع لونه الكستنائى ، وبدت غرائزه الاصيلة تقــوى على الظهور وبرزت مفاتن جسمه ، فاستعاد جماله ، وغدا يكتمل فى سحره واغرائه ، فبان تقوس ظهره وعرض كلكله ، واشتداد عضلاته وارتفاع كتفيه والتواء رقبته • وتحقق ما كان ينتظر الشيخ حسين أن يراه فى فلوه من فتنة وجمال • فكان من يرى هذا الحصان وقد امتطى « فهد » صهوته ، ترتسم له صورة من سحر الطبيعة وفتنتها ، تمثل الجمال والكمال ، فيهفو لها القلب ، وتتعلق بها النفس • اذ يتصور الانسان فيها قدرة الله ويتدبر آياته في خلقه وعظمته فى صنعه •

والحقيقة ان الخيل والكلاب ، كما نعرفها ،من الحيوانات التى تتضاءل الحواجز بينها وبين الانسان ، اذ قد يستطيع أن يستشف من بين نظراتها وحركاتها ما تريده وتتحسس به • فكان فهد يكلم شاهين ، ويطنب معه فى الكلام فينظر اليه ، وكأنه قد وعى كلامه وفهم قصده • وكان كل منهما قد أحب صاحبه وتعلق به ، ولعل الحنين الى الوطن الاول هو الذى آلف بينهما ،

فاستعادا فى مخيلتهما ذكريات تناوح الرياح فوق سمائه ، وعبق العرار والشقائق فى أرضه ، فبين جنباته رضع فهد لبانة الحياة على صدر أمه ، وبين ربوعه فتح شاهين عينيه .

وشاءت ارادة الله أن تأخذ بيد فهد فتنير له الطريق الى وطنه الاول . فكان فى ضحوة نهار مشمس قد ركب حصانه متجها الى القرية ، ليهيء لعبد الرزاق بعض ما كلفه به . وهو لم يفتأ يتحلم بكل وسيلة تمكنه من امتلاك شاهين . وشاءت الظروف ان يلحظ شاهين بعض الاعراب فى سوق القرية ، فاستهواهم منظره وسحرهم جماله ، ولكن شاهين صدّ عنهم ونفر منهم ، وادار لهم مؤخرته . فنظر كل منهم الى صاحبه ، وامارات الدهشة على وجوههم ، وقالوا انه لحصان أصيل حقا . وتعد اصناف الاصائل من الخيل التى تنحدر من دم عربى خمسة هى : الصقلاوى والكحيلان والعبيان والحمادى والحمدار . واعجبهم منطق فهد وذكاءه ، فتحدثوا معه وانتسبوا اليه ، فكانوا من عشيرة الضفير وعرفوا منه بعد تفرسهم فيه واستمالته اليهم ، انه الولد الوحيد للشيخ حزّام ، احد المحاربين الشجعان من شيوخ عشيرة الضفير . وحينما وقفوا على نسبه ، ارتج عليهم ، واسقط فى يدهم . فاستودعوه وذهبوا عنه ، وتأخر منهم شيخ طاعن فى السن ، وبقى يتحدث مع فهد ، فقال له انك ابن عشيرتك ، وان عمك لا يزال فى قيد الحياة ، وله من البنات من هن على ابواب الزواج . ان عليك ان تسلك الطريق الذى يقودك نحو الغرب . ولم يكن يحق لامك أن تأخذك معها الى المدينة ، فانك من أبنائنا وفلذة أكبادنا .

واثرت هذه الكلمات فى نفسية فهد ، فلم يعد يستقر قراره ، فقد امتلكه الشعور بارتباطه بعشيرته ، وخفق قلبه لحياته البدوية الاولى ، فغدا

يبحث عن الوسائل التي يستطيع بها أن يتخلص من هـــذا الاصطبل الذى يقضى حياته فيه • وكان كلما فكر فى أمر التحاقه بعشيرته اختلج فى قلبه حب شاهين والحصول عليه • وزار فهدا بعد قليل اعرابيان ، احدهما عمه والاخر احد الاعراب الذين التقوا به فى سوق القرية ، وكان عمه اذ ذاك رئيسا لقبيلة من قبائل الضفير ، وكان يرى ان لابد أن يلحق فهد بعشيرته ، اذ لم يجد ما يدعو لاطالة المكث فى هذا الاصطبل • وهذه هي عشيرته تنتظره بفارغ الصبر وسيعمها الفرح ان رأته يرفل بين عزّها وسؤددها • ورأى فهد ان قد اصبح الامر بيده ، ولابد له ان يبت الان فى مصير مستقبله ، وهو آخر ما يطمح اليه • وبدا له انه لا يستطيع أن يقول كلمته الاخيرة قبل أن يبت فى أمر شاهين اولا فهو أليفه وابن باديته ، ولابد له أن يحيا معه فيها •

وهذا الذى جعله فى بادىء الامر يتلكؤ بالجواب ويتهيب البت بمصيره ، ولكنه لم يلبث ، بعد أن أضرم هذان الاعرابيان فى قلبه نيران الحنين الى الوطن ، ان عاد يقص عليهما تاريخ هذا الحيوان البائس ، والجهود التى بذلها لانقاذه من بؤسه ومظلمته ، حتى استطاع أن يستميله اليه ، وهو الان بعد أن احتل من قلبه منزلة المشوق لشوقه ، يصعب عليه أن يفارقه ، ويسلمه لهذا البخيل عبدالرزاق ، يسومه الذلة والهوان •

ولم يكن الاعرابيان ليستجيبان لصدى الاصوات التى كانت تتردد فى قلب فهد ، فما كان منه الا أن افضى برغبته فى الحصول على هذا الحصان • ولم يخطر ببال احدهما ان يختطف هذا الحصان فى سكون الليل وهدوئه ، اذ لم تكن عادات العربى لتجهيز سرقة الخيل وهى فى مرابطها ، فذلك فى العرف العربى اجرام فضيع • وعرف كل منهم ان بخل عبدالرزاق ، سيجره الى أن يطلب بدل حصانه ، طلبات قد لا ينضب معينها ، اذا هو أحس برغبة

فهد في شرائه • ولم تكن لفهد خبرة سوقية في البيع والشراء ، فاستقر بهم الرأى على أن يستميلوا عبدالرزاق اليهم أولا ، فيعرفوا دخائل نفسه ، ويقفوا على خبايا رغبته ، وكان عمّ فهد هو الذى تصدى للقيام بهذه المهمة • فاستضافوه فى بيته ، وجرى معه حديث طويل ، فى جلسة هادئة ، احتسوا فيها كؤوس القهوة العربية ، انتهت من غير ان يتوصلوا الى نتيجة فى الموضوع ، فقد بلغت الخسة بهذا البخيل ان طلب خمسة اضعاف ما كان يملكه فهد من المال • وكانوا قد اندفعوا بجد وحماس أن يردوا لهفة فهد فى كسب هذا الحصان الذى غدا أليفه ورفيقه ، ولكنهم كانوا عربا كراما وتجارا مهرة ، فلم يلحفوا فى طلبهم ، أو يشعروه بدخيلة رغبتهم • وآخر ما استقروا عليه أن يخبروا عبدالرزاق بعزم فهد على الرحيل والالتحاق بعشيرته ، وحسبوا انه سينصاع لرأيهم ، بعد حين من الزمن ، حينما يرى شاهين وحده ، وقد ا بتعد عنه فهد ولحق بمضارب عشيرته ، وهى تبعد عن مركز اللواء بما لا يقل عن مائتين كيلو مترا •

وبات فهد ليلته مع شاهين فى اصطبله ، ولم تغتمض عيناه لحظة ، لما ألمّ به من هم وكمد ، حتى اذا ما تقضى الليل وادركه الصباح حام حول مربطه ، ثم انسل منه بخفة ومهارة من غير أن يلحظه • وكان قلبه يأسره الشوق والحنين الى اهله ومضارب عشيرته حينا ، وتذيبه لوعة الفراق حينا آخر كلما تمثلت له صورة شاهين ، وهو الصديق الحميم الذى لن تتاح له رؤيته بعد الان • وكان شاهين فى صباح غده هادئا ، لا يعرف شيئا عما بيته له القدر ، فعلف ما هيأ له فهد من الحشائش •

وسافر فهد مع الركب الى مرابع قومه نحو الغرب وهو صامت ، قد ملك زمام نفسه وسيطر على شعوره ، يتأرجح على رحل جمله الذى كان

يطوى البيداء فى طليعة القافلة • وابل الضفير مشهورة فى سرعة عدوها ، وقد ألفت هجير الصحراء وعرفت سبلها واعتادت على أن تجد فى السير بين رمالها اياما عديدة بلياليها • وحين حل المساء وذوت أشعة الشمس ، حطوا رحالهم ، وتركوا أبلهم فى منخفضات الوديان ترعى بين ادغالها وحسكها ، وجلسوا هم على الرمال يسمرون ويأكلون ما تزودوا به من التمر ثم التف كل منهم بعباءته واغمض عينيه ، وبقى فهد يؤرقه النوى ويملؤ قلبه الشوق والحنين الى شاهين الذى بعد عنه ما لا يقل عن ثمانين كيلو مترا • وبقيت عيناه تحدقان بأنجم السماء الصافية ، يستمع الى تناوح الطيور فى سكون الليل البهيم ، فتلهب عواطفه ، ويرى ان لا حياة له ، مهما عذبت ، بغير أليفه وصديقه شاهين • ولم تعد الصحراء لتثير فيه ذلك الحنين اليها • وبدت له سهولها باردة بل وغريبة عليه • ورأى ان الاولى به أن يركب جمله فى هذا الليل المقمر ، ويعود الى صديق صباه اذ لابد أن يكون قد افتقده فى غدوته وأمسيته ، وهكذا كانت هذه الاخيلة والاحلام مدار تفكيره ومناه •

ونهض فهد من مكانه ، وبعد عن مضارب الركب وهام فى الصحراء يناجى وحدته فى سكون الليل المقمر • وتجاوب فى أذنه صدى اصوات خافتة بعيدة ، فاندفع نحوها يتبينها ، وأنصت يتطلع أمرها من بين سهول الصحراء المحيطة به ، فوضحت له انها ايقاعات متتابعة متصلة ، ولكنه لم يجرؤ أن يصدق ما أوحت اليه أفكاره ، واشعرته به خفقات قلبه السريعة • ولم تمض غير لحظات حتى بان شاهين وقد جاء يقطع البيداء ، يتابع فيها أثر الركب ، بهدى حواسه • ولم يتمالك فهد نفسه ، فغلبته نشوة الفرح ، ودمعت عيناه ، واحتضنه يمسح على رقبته ، وقدم اليه ما تيسر له من العلف •

والحقيقة ان الانسان ليحار فى أمر احساس هذا الحيوان وسجاياه

وقابليته فى قطع ثمانين كيلو مترا فى ساعات معدودات • واستغرب عمــه من هذه المفاجأة ، ولم يلبث أن قال له ، الله اكبر ! ها قد شاءت ارادته ان يرد اليك حصانك ! فهل كانت لك يد فى تمكينه من الهرب ؟ فنكس فهد رأسه ، يشير بذلك معترفا • فقال له عمه • انه ليس حصانك ، وسنأخذه الآن معنا ، ولابد أن ندفع لعبدالرزاق آخر فلس يطلبه عنه •

وأسلم فهد جفنيه لنومة عميقة ، بعد أن انهكه الاعياء • وراح شاهين هو الاخر يغط فى نومة هادئة وبنفس مطمئنة ، وحين اصبح الصباح قام فهد ووضع على ظهر حصانه معطفه البالى واعتلى صهوته ، فأحس شاهين بالقوة والعظمة وراح يقطع البيداء ، وهو يهتز طربا ، يستدير برأسه هنا وهناك شامخا بأنفه ، حتى اختفى به بين آفاق الصحراء ، يطلب موطنه ومسقط رأسه بين مرابع الضفير •

« ٣٤ »

العراق فى الشرق الاوسط

ان قيام الدول المستقلة فى الشرق الاوسط لم يمتد تاريخها بعيدا . وقد أتيح لانكلترا أثناء الحرب العالمية الاولى التى أضرمت نيرانها فى سنة ١٩١٤ واستمر لهيبها الى سنة ١٩١٨ أن تحرك العالم العربى فى الشرق الاوسط ، وتدفعه الى ثورة عارمة على الدولة العثمانية . وقد لعب « لورانس » دورا مهما فى تأليب العرب على الاتراك العثمــانيين . وكان الملك حسين ملك الحجاز اذ ذاك هو اللولب المحرك لهذه الثورة العربية وهو الموجه لقيادها ، وقد اشترك معه أولاده الثلاث ، وأبلوا فيها بلاء حسنا . فكان اثنان منهم آخر الامر ، فيصل وعبدالله وهما اللذان قد دافعا دفاعا مجيدا عن الحلفاء وحميا مؤخرتهم ، أن نودي بهما ملكين ، فكان فيصل بعدئذ ملكــا على العراق وعبدالله ملكا على شرقى الاردن . ثم اعتلى على عرش الحجاز الامير على فى سنة ١٩٢٤ وهو الابن الثالث للملك حسين .

غير أن المنازعات المتشابكة بين الملك حسين وبين ابن السعود ، وهما الشخصيتان اللامعتان فى العالم العربى اذ ذاك ، كانت قد استعرت نيرانها منذ سنة ١٩٢١ ، فانتهى بها الامر الى أفول نجم الهاشميين واعتلاء ابن السعود على عرش الحجاز . ثم وحّد بين نجد والحجاز فى سنة ١٩٣٣ ونودى بالملك ابن السعود ملكا على المملكة العربية السعودية .

ولم تقف الامور عند هذا الحد فقد تطورت الى أبعد من ذلك ، فكانت

أن تشعبت مشاكل كثيرة فى بلاد الشرق الاوسط نتجت عن سقوط الدولة العثمانية • ويمكن القول ، بأن قادة العرب الذين أولوا ثقتهم بشخصية « لورانس » فاحسنوا الظن بالانكليز ، قد فوجئوا بخيبة مريرة فى آمالهم وأحلامهم ، اذ أعلنت فرنسا انتدابها على سوريا ، واضطرت الملك فيصل الذى كان قد نودى به ملكا على سوريا أن يخلى ساحتها ، وتبددت تلك الاحلام التى كانت تداعب أخيلة العرب القوميين بتأسيس امبراطورية عربية تضم جميع البلاد العربية • وهكذا جزىء الوطن العربى الى ما لا يقل عن ستة أجزاء ، بضمنها تأسيس موطن لليهود فى فلسطين ، وهذا ما أثار استياء العرب وطعن قوميتهم وفت في عضد قادتهم •

وكان التصريح الذى أدلى به « بلفور Balfor » فى كتابه المؤرخ فى ٢ كانون الاول سنة ١٩١٧ المرسل الى اللورد « روتشايلد Rothschild » يتضمن وعدا لليهود بأن يستطيعوا أن يؤسسوا لهم موطنا فى فلسطين • فكان هذا التصريح قد وتر العلاقات بين العالم العربى واليهود فتأزمت الاحوال واشتدت تعقيدا منذ سنة ١٩٢١ حتى سنة ١٩٤٨ حيث انتهى الامر بأن حقق اليهود هدفهم وحصلوا على اعتراف باستقلال دولة « اسرائيل » فى مايس سنة ١٩٤٨ بعد أن خاضوا معركة جدية فترة قصيرة •

ومع ان هناك مفاوضات كانت قد جرت بين « فيصل » و « وايزمن »، بحث فيها مشكلة استيطان اليهود فى فلسطين ، فتوصلا الى شيء من التفاهم والتقارب فى جو تسوده الرغبة وحسن النية ، فقد كان كل من الجانبين يبتعد عن الآخر ، فتتسع شقة الخلاف ، حتى تحرج الامر واستحال التوصل الى أي حل ممكن لمشكلة فلسطين •

وكان الملك فيصل الاول ، وهو أول ملك على العراق ، قد لعب دورا كبيرا فى الحقل الدبلوماسى ، كما بدا ذلك للانكليز أثناء فترة انتقال انتدابهم عن العراق ، فحصلت البلاد على استقلالها فى سنة ١٩٣٢ ، ولم يمهل الزمن الملك فيصل حتى عاجلته المنية فتوفى فى سنة ١٩٣٣ ، فانتقل أمر هذه الدولة الفتية الى ابنه « غازى » وقد كان شابا يافعا لم تصقله التجارب بعد ، فلم يلبث أن أطاح به القدر فى حادث اصطـــدام سيارته ، وتوفى متـــأثرا به فى سنة ١٩٣٩ .

وقد كان الملك فيصل بنظر المتطرفين من القوميين صديق الانكليـز الحميم ، وهذا ما مكّن دول المحور ، بعد زمن لم يطل أمده ، أن تستغل هذه العناصر المتطرفة ، وقد لعبت البعثات الالمانية دورا مهما فى ذلك . وترينا تلك الحوادث العدوانية المتسلسلة التى ارتكبت فى الموصل تجاه القنصليـة الانكليزية ووزير المالية مبلغ الاضطرابات التى كانت تسود البلاد اذ ذاك فاندلعت فى سنة ١٩٤١ نيران ثورة عارمة ، يرى الانكليز أن العناصر النازية هى التى اججت نيرانها . ولا شك ان مفتى فلسطين كان قد لعب دورا هاما فى بعثها واثارتها . وكانت الملابسات التى رافقت تلك الحوادث فى العراق مضحكة حقا ، اذ لم يلبث العراق بعد قليل أن أعلن الحرب على دول المحور بمشورة الانكليز . ومهما يكن من أمر فالذى يلاحظ فى العراق أن الناس لا يحبون الدول الغربية ولا يثقون بها .

ويبدو لنا ان المعاهدة العراقية الانكليزية التى لم ينته مفعولها بعـــد تستهدف فى الحقيقة تغلغل النفوذ الانكليزى فى نواحى العملة والتجارة قبل كل شىء . ويلوح لنا ان الانكليز ، كما عرفوا فى سياستهم الواقعيـة

المبنية على ان الغاية تبرر الواسطة ، لم يأخذوا بحرفية المعاهدة ولم يهتموا بنصها . ويبدو أنهم لا يريدون أن يحيدوا عن سياستهم المألوفة . فكل بلد يتململ أو يظهر شيئا من الطموح نحو تحرره لم يلبث أن يكون ضحية طموحه . ترى من يصلح أن يكون أنسب لهذا الحكم من هذه القوة القاهرة التي استطاعت أن تمسك الزمام زمنا طويلا !

ويلوح لنا ان العراق أهدأ من جميع دول الشرق الاوسط ، وفيه جمع كبير من العقلا والمثقفين الذين يهمهم أن تسود البلاد فترة من الهدوء والطمأنينة والسلام لتستطيع أن تجني ثمار نهضتها وتحقق آمالها في التقدم والعمران .

والحقيقة ان البحث يدور هنا حول السلطة الملكية التي تحمل الوزير مسؤولية الحكم امام البرلمان ، وهذا النوع من الحكم هو الذي درجت عليه أقدم الدول الديمقراطية واعرقها في المدنية ، بعد أن ذللت كثيرا من الصعوبات التي اعترضتها ، فبنت أسسه على تجارب أخيار الناس ومعلوماتهم وسلوكهم ، واحاطته بنظم تمشت مع الزمن ، فصقلتها التجارب والاختبارات ، وتغيرت وتبدلت كما تطلبتها المصلحة حتى ألفها الناس واعتادوا عليها منذ طفولتهم ، وهو ما سمي بالحكم الديمقراطي .

ويبدو ان العراق في كل ما يحيط به لم يعد يتقبل نظم هذا الحكم السائد ، اذ هو يرى فيها القسوة والظلم والارهاق . ولعل قادة الشعب ورجاله وجدوا سهولة في فرضها على جماهير الناس . وهذه مصر استطاعت أن تمنح مليكها اجازة خارج مصر ، ووضع دكتاتور الجيش يده على الحكم . وكذلك كان الامر في سوريا ، فالجيش فيها هو صاحب الكلمة العليا اليوم .

وكان « مصدق » قد جعل امراء بلاده تحت مشورته وقياده واراد أبدا أن يلعب دوره معهم حتى ولو حدى الامر بالملك صاحب السلطة أن يتصل برجال دولة أخرى ، بل وذهب الى أبعد من ذلك ، فقد نفى اقرباء الملك واخصائه •

وفي العراق كذلك نرى نفرا من الناس يدعون الى ان يقود البلاد رجل قوي شديد المراس ، ونرى كذلك نفرا من عقلائهم يعتقدون أن اعتلاء الملك الشاب فيصل الثاني عرش العراق يجب أن يحاط بالعناية والحذر لئلا ينجرف ، وهو في ثورة دم الشباب ، بتيار حاشية السوء • انها والحق لاحاديث ممتعة ، تلك التي يتناولها رجال الدولة في مجالس سمرهم ، ومادة الحديث والمحاورة في اختيار رئيس الوزارة غزيرة لا ينضب معينها ، حين يقول أحدهم « ترى ولم نبقى فى حضيرة العملة الاسترلينية ، فنرضخ تحت ضغطها وهى اكبر عقبة فى تقدم البلاد وتطور اقتصادياتها » ويردد الثانى « لا يجمل بنا ان نخضع لشركات النفط الاجنبية ، ومع اننا لا نحتاج الى « مصدق » بيننا ، فلا ننكر عليه قوة عزمه وشدة بأسه ، وهو الذى كثيرا ما دعانا اليه » ومثل هذه الآراء يعتنقها اليوم كثير من العراقيين • وقد يقول أحدهم ، ها قد كلفتنا فلسطين ماية الف دينارا يوميا بسبب قطع النفط عن حيفا •

والحقيقة ان هذه هى بعض ما تعانيه البلاد من الآلام والنوائب التى لا زالت تفتك بابنائها ، وهى تشعر بما بيته القدر لها من مرارة العيش ونكد الحياة ، حتى كادت تيأس من امكان التغلب على ما يحيط بها من صعاب الحياة • اننا لنرى يقظة عمت الشرق الاوسط ، وها هى مصر وايران تنذران باندلاعها • فلابد أن يكون شيء فى الخفاء • اننا لنرى تطورا منتظما فى الحياة

والتفكير وسبل العيش ، ولو لم يكن سريعا ، قد تناول عددا كبيرا من البلاد في هذه البقعة من العالم وتبلورت فيها آراء الجمعيات والمؤسسات واختلاف أوجه النظر بينها ، ووضحت لها مشاكل العالم وعلاقات الدول ، وتحسست بالتوتر القائم بين الاحزاب المحافظة والتقدمية ، وعرفت مواطن الضعف في بناء التشريعات الحكومية العقيمة ومواطن القوة بين شعوبها الفقيرة التي تطالب بتحسين احوالها .

ويعتقد بعض المتشائمين من ذوي الرأي في البلاد أن لا سبيل الى التغلب على هذه المشاكل والعقبات التي أخذت بخناق الشعب ، اذ يقول بعضهم ، ماذا يمكن ان تطلب من شعب بائس لا يزال يرزح تحت كابوس الجهل والامية ؟ وماذا تنتظر من اصحاب الاموال ومالكي الاراضي ، وهم الذين قد مسكوا بأيديهم زمام اقتصاديات البلاد وأثروا بسلوكهم على حركة انعاش حياتها ، واطاحوا بنفوذهم سلطة حكوماتها ؟ فكيف نستطيع أن نضع الخطط للاصلاح بين هذه العقبات التي تحيط بنا ؟ وكيف يمكن أن ننفذها ؟

واني لآمل أن يستطيع المتفائلون من رجال العراق أن يعملوا لبلادهم بقلب ملؤه الايمان بمستقبل باهر ، فقد ذكر لي أحدهم ، وهو متمول ثري كان يرى الامور بعين تبصر النور ، اذ قال ، اننا أمة متدينة نؤمن بالله ونعتقد بان الناس متساوون امام الله ، وانت تعلم ، ان شعبنا يعرف مطاليبه السلمية جيدا ، وهو يعتقد أنها لا يجوز أن تتحقق بطرق القوة والارهاق ، وهو يحترم الاخوة الانسانية ويعتقد ان المساواة في احوال افراد مجتمعنا يجب أن تبنى على أسس العقيدة الدينية التي يؤمن بها . واعلم ان هذه الاوضاع التي ينعم بها الرئيس والشيخ ، ولو أنه اكتسبها بالارث منذ القديم ، فانها تتبع لنظام اختارته العشيرة وارتضته لحياتها . وهذا النوع من التنظيمات

التي تراها الآن لم تكن لتفرض بالقوة والارهاب . والشيخ المؤمن يحنو على بني قومه وعشيرته ، وينظر اليهم بعين العطف والحب والاخلاص . ألم تر الى ذلك المستشفى الذى شيد فى الحى والمدرسة الضخمة التى شيدت بجواره ! فقد صرف عليها الشيخ مبالغ طائلة . والحق ان مجتمعنا يستند الى أسس ديمقراطية ، ولو ان شكلياتها قد ضاعت هنا وهناك . ان تطور الحياة فى بلادنا يفيد منه الفقير كثيرا ، ويتحسس به الآن كل عربى ولا يمكن أن ينازع فى أمره أحد ، وهذا ما نص عليه ديننا وأمرنا به .

وكان كثير من الشخصيات قد توافدو الى المطار لوداعنا ، ونحن نهم أن نترك العراق ، فصافحونا بحرارة ، واذ ذاك تمنيت لبلادهم أن يشملها الخير ويعمها الرفاه . فحدجني احدهم وغمز لى بعينيه وهو لا شك يقصد بذلك ان هولندا ورفاهها ومستقبل العراق يتهددانهما خطر محدق واحد .

« ٣٥ »

نظرة الى الماضى

كان المستعمرون ، خلال قرون خلت ، قد مرنوا على نوع من السلوك فى حياتهم ، فاعتادوا أن يكونوا طوع ما تمليه عليهم رغباتهم واطماعهم فى امتداد مستعمراتهم وتوسيع نفوذهم • فهذه دولة العالم الانكليزى ، قد قامت على جهود رجالهم امثال « ريلاى Raleigh » و «دراك Drake » وكوك Cook » وغيرهم • فقد كانوا ينقضون على شواطىء البحار البعيدة ومرافئها كانقضاض الطيور الكاسرة على فريستها وكانوا قد حذقوا الطرق الاستعمارية وعرفوا مسالكها • وهم الذين مرنوا على استعمال القوة فى عدة قرون خلت • وأولئك الاسبانيون الذين هم عطشى الذهب مع انهم لم يهدفوا الى نشر عقائدهم ولغتهم الا بمقياس ضيق ، فقد استطاعوا أن يملؤوا نصف الكرة الارضية بلغتهم وعقليتهم واسلوب تفكيرهم • كذلك كان شأن الهولنديين المتحمسين ، فقد زحفوا الى عالم الكرة الارضية يحدوهم الجد والنشاط واستمروا مثابرين كالنحل ، حتى أحاطوا باكثر انحاء المعمورة • وكانت مشاريعهم الجبارة متأثرة بالاعمال التجارية وما يتفرع منها • وهاهم الفرنسيون الذين يعدون من الشعوب القوية فى الانتاج العقلى استطاعوا أن يبشروا بفكرة الاخوة الانسانية فى ابعد اصقاع العالم خلال العصر السابع عشر والثامن عشر ، فارسلوا اشجع مبشريهم من الروحانيين والعلماء ، يجوبون انحاء الكرة الارضية حتى بلغوا اقطابها ، فكانت بطولة هؤلاء المبشرين وقيادتهم وتفكيرهم تمثل قصة ضم مستعمرات جديدة الى فرنساء

ولم يبق فى عصرنا الحاضر مكان يتسع لاهداف « بيتزارو Pizaro »
و « كورتى Cortey » و « ريلاى Räleigh » و « كون Cone » و « دراك Drake »
وغيرهم من الحجاج الآباء . فقد نبذهم الرأى العام ، ولم يعد يقتنع الآن
بما كانوا يضفون على مهماتهم التبشيرية من الفضائل الخلقيــة والتعــاليم
الروحية . وبدت له غلظتهم وقسوتهم وروحهم الانتهازية فى كل ما كانوا
يهدفون اليه ، فما اكثر ما داسوا دماء الملايين من الناس واستغلوا عرقهم
ودموعهم .

وبعد أن كنا ننظر اليهم دوما نظرة احترام وتقديس ، ونرى فيهــم
ابطالا ميامين ومؤسسى دول عظمى ومعمرين أقوياء ، فقــد غدونا ننقــد
اعمالهم ، وننكر عليهم مخلفاتهم ، بل وقد بدوا لنا غرباء عنا . ترى ما الذى
حدا بنا الى ان ننظر الى تراث اولئك الاباء هذه النظرة المتغايرة ، فلم نعد
نكبر ما احتفظنا لهم به فى أذهاننا زمنا طويلا ؟ فلم يفتأ أن اعتورته الشكوك
وساورته الظنون ؟ والحقيقة انه من الصعب جدا ان نحظى بجواب شافى
يوضح لنا هذا التغاير فى النظرة والعقيدة . ذلك ان اوجه النظر تختلف
باختلاف الزمن والظروف التى تحيط بنا ، وهذا ما يشوش علينا رؤية الحقيقة
واضحة . فلم أكن مخطئا اذ تقبلت الفكرة القائلة بان الجنس الابيض هو
الجنس الذى فيه القابلية للتطور والارتقاء ، وهو الذى يستطيع أن يبسط
هذا التطور بقواه الحركية ، ويوسع نطاقه بقيمه الخلقية ، ويزيد فى نموه
بمثله المعنوية ، فى حين اننا نرى هذا الجنس الابيض نفسه قد استيقظ فيه
ضميره ، وتغلب عليه وعيه فى هــذا القرن من الزمن ، فوضح له جيدا
اشمئزاز الناس واستياؤهم من هذه المفرقعات الذرية ، وحيرتهم وشكوكهم
من خيرها ، فاخذوا يضجرون من هذه الانانية والانتهازية ، ويسأمون من

هذا التسابق على الظلم والاضطهاد ، فبدا لى أن أعيد النظر فيما كنت قد تقبلته باعتباره حقائق ناصعة .

كان الحجاج الآباء اناسا اتقياء ورعين ، استطاعوا أن يكبحوا جماح أنانيتهم ويسيطروا على نزوات انفسهم ، ومع ذلك فلم يجدوا ما يمنعهم من أن يستأصلوا شعبا فى شمال امريكا ، لم يرض سادته ولم يعجب حكامه .

وكان الفلاح المؤمن التقى الذى عدم العون والمساعدة قد ترك اخوانه الفلاحين القدماء قبل خمسين عاما من غير ان يتحسسوا بوعى يذكيهم ويوقظ نفوسهم ، فلم يكن منه الا أن ارتضى لهم الفقر المدقع . ويبدو لنا ، ان الشعوب المتمدنة اليوم قد رغبت عن هذه الاوضاع وسئمت هذا النوع من مجرى الحياة .

فنرى ان قد استيقظت النفوس واشتد وعيها ، فغدا الفرد يشعر بما يشعر اخوانه الآخرون ويتحسس بما يتحسسون به ، فالميل الى الحياة الاشتراكية اليوم اقوى منه فى أى وقت مضى ولا شك ان هذا الشعور مستمد من التعاليم المسيحية التى تدعو الى الحب والعدالة الانسانية . وقد تمكن هذا الشعور من النفوس حتى بين الذين لا يدينون بالمسيحية ، بل وتمكن حتى من الناس الذين لا يعرفون الاديان ، ولا يرتبطون بها . وقد عم اكبر اجزاء العالم المعروف .

فلم نعد نشعر باننا على حق حينما ننكر على الاخرين حقا اردناه لانفسنا ، وضحينا فى سبيله كل غال ونفيس ، ورأينا ان لا قيمة لحياة نحياها بدونه .

وقد ظل نداؤنا يلعلع فى اجواء الفضاء زمنا طويلا ، نعلن فيه اننا نقصد الخير لجميع الشعوب التى استطاعت أن تتحرر من كابوس الاستعمار

أو كادت أن تتحرر منه ، ولكنه لم يستجب اليه اى من هذه الشعوب ، اذ كانوا يتلقونه بكثير من الريب والشكوك ، ولعل هذا النداء الذى اريد به الخير لم يكن خاليا من الانانية تماما .

واذ كان من بيننا من لم يزل بعد غير واثق من ضرورة اتباع تنظيمات جديدة تنتشل هذه الشعوب و غير مجد فيما دعا اليه من حب الخير ، فهؤلاء لما يزالوا يعتنقون مبادئهم الانتهازية فى سياستهم ، وقد لا يبعد أن يكون اخوانهم الصفر والسود والسمر قد شعروا بسياستهم الانتهازية ، فسخطوا عليها وكفروا بها . وقد يسائل احدهم نفسه ماذا يمكن أن يجد فى الامر لو آمن هؤلاء بأنهم سيجنون من فوائد هذه التنظيمات الجديدة اكثر مما كانوا يفيدون قبلا . ومن يستطع أن يلومه فيما يقول ! والحقيقة ان الامر يتوقف على ان نشعر هؤلاء الناس باننا مؤمنين بقيم المبادىء التى ندعوا اليها .

وانه يبدو لنا ان هذا الهدف الذى ندعو اليه الشعوب يحمل بين طياته طابعا مهما ، فهم يتطلبون منا ان نقرهم على مستوى من الحياة مثل هذا المستوى الذى ارتضيناه لانفسنا . ونحن اذ نكافح الفقر والجهل اللذين تعانى ويلاتهما هذه الشعوب الفتية ، بعد أن تأخرت عن ركاب المدينة اشواطا بعيدة ، نوقظ فيهم حاجات عديدة ، قد لا ينضب معينها كلما تدرجت فى سلم الرقى والمدنية . فها نحن نريد لهم اصلاحا من صميم اصلاحات الغرب ، تشاد على أسسه المعاهد العلمية الفعالة التى تبعث النهضة الاصلاحية وتزداد على ضوئه واردات حصتهم من حاصل اراضيهم ، وتبنى لهم المستشفيات فيعالجون فيها مرضاهم بدل معالجتهم باسطورة التعاويذ والشعوذة وتضم عائلاتهم الدور الصحية بدل

الاكواخ ، وتهيأ لهم الوسائل الميكانيكية فى زراعة ارضهم بدل محاريثهم البالية .

واننا لنعتقد اننا بهذه الوسائل نستطيع ان نجعلهم سعداء مرفهين فى حياتهم . بل وقد لا نلقى احدا يعارض فى أية فكرة ترمى الى تغيير هذه الأوضاع البالية وتحسينها .

ولكننا لانعلم الى اى مدى يمتد تجدد متطلبات الحياة عند الشعوب والى اى حد ينتهى طموحها و ها نحن نجد هذا التيار يتزايد تأثيره علينا ، فلا يكاد ينتهى الى حد يقف عنده ، فقد جرفتنا سورته ، ولم تعد نقوى عليها ، حتى أوقعنا الطموح الى ان تتسلط علينا الصناعات التكنيكية فتسيرنا حسب تيارها بدل ان نستخدمها حسب حاجاتنا ، فلابد لنا أن ننتظر من هذه الشعوب التى لم تنطلق بعد من عقالها مثل هذه النتائج ، ولدينا من الادلة ما يشير الى ان هذه الشعوب اخذت ترفع من شأن الصناعات التكنيكية وتبالغ فى احترامها كما نفعل نحن اليوم .

ونحن نرى اليوم ان الحركة والنشاط اخذتا تدبان فى نفسية هذه الشعوب المتأخرة ، فسرى اليهم النتاج العقلى للمدنية الغربية فتقبلوه واقبلوا على الثقافه بشوق وحماس اكثر مما كنا نظن قبلا ، فى حين اننا نرى ان انتاجنا العقلى نفسه لم يرتكز بعد على توازن معقول بين التقدم الاخلاقى والتقدم التكنيكى ، وبين الثقافة الروحية والمدنية المادية ، ولا شك أن فقدان هذا التوازن ينذرنا باخطار قد تودى بحياتنا ، فلابد لنا اليوم ان اردنا البقاء ان نبحث عن هذا التوازن فى أى مكان من سبل الحياة وتفرعاتها . ان الاخطار لتهددنا ، فنحن الذين بعثنا فى هذه الشعوب والاجناس المختلفة هذا الميل الى المدنية الغربية ومكناه من التغلب على مناحى حياتهم ، فاندفعوا

اليه حتى وقعوا فيما وقعنا به .

والحقيقة ان هذه الشعوب ، مع كل ما يحيط بها من مظاهر التأخر وكل ما يكتنفها من الضعف فى مسايرة المدنية الغربية ، تتمتع بصفات ومزايا، كان باستطاعتنا أن نستغلها وننتفع بها . فحين يقول « يوسف » انه يريد تحسين احواله ، ولكن الامر مقيد بارادة الله ، فهو فى الحقيقة ، يريد أن يشير بذلك الى حدود ضميره « أنا » ولعلنا نرى فى مثل هذه العقيدة شيئا من المبالغة في الحد من ارادة الانسان . ولكنها عقيدة يجب أن يعتنقها كل منا ، ولا يجوز أن نتساهل بقليل منها . واذا كان احد من سكان « جاوا » يهتم بقيم الاحلام وتفسيرها اكثر من اهتمامه بقيم البراهين على كروية الارض ، فهو يريد بذلك ـ وان لم يكن بوعى منه ـ ، أن يرفع قيمة الروح الانسانية ويشيد بقواها الخفية ويفضلها على العقل أو الفكر . والعربى اذ يندفع الى اكرام الضيف واحترام الغريب بدافع رغبته وارادته ، من غير أن يسوقه الى ذلك قانون مسطور أو نظم مكتوبة ، ومن غير أن يبتغى المجاملة والملق ، فهو يعتز بتراث من القيم المعنوية التى يحسد عليها . فماذا نستطيع أن نعلمه ؟ هذا هو أول سؤال يتبادر الينا ، والغريب انه سؤال يصدر من جماعة من الناس ، جاءوا اليه ليبحثوا الامكانيات الاقتصادية فى بلاده . ولعل الجواب عن هذا السؤال يتمخض عن « لا يحتمل أن يكون شيئا كثيرا » .

اننا نتحسس بحاجة هذه الشعوب الى نهضة تكنيكية ، ونشعر بما يكتنف نواحى حياتهم المادية من ثغرات سحيقة ، وقد نعرف ان نصف العلاج لمساعدتهم والاخذ بيدهم وانتشالهم من هذا الضعف الذى يشكون منه . ولكن هذا العلاج ليس سليما فى كل حين . فهل ستقوى هذه الشعوب على أن تحسن التصرف بها العلاج الذى نصفه لها بغير مساعدة اجنبية أو بمساعدتها ؟

وقد يكون الشيء الذى لسنا نعرفه ولم نتأكد منه بعد ، هو الطريقة التى يجب أن نتبعها ، فى اداء رسالتنا بحيث نبقى على هذه الشعوب صفاء خلقها وطهارته ، وهو الخلق الذى لم تزل الطبيعة تغذيه وتنشر ظلها عليه • فهل نستطيع فى رسالتنا أن نجنب هذه الشعوب مهاوى الضلالة فى هذه المجتمعات التى نسوقهم اليها •

والحقيقة ان مغريات الصناعات التكنيكية كما نعرفها تجتذب هـــذه الشعوب بل وقد تتسلط عليها ، وعندئذ نستطيع أن نحكم ، ونحن متأكدين من صحة هذا الحكم ، بانهم سينغمرون بها وستجرفهم تياراتها ، وعندها سيتمنون لو انهم حافظوا على ما كانوا عليه من تراثهم القديم • انه لا مفر من أحد أمرين ، فاما أن يؤول امرهم الى ما آل اليه أمرنا الان ، واما ان يعجزوا عن تحمل اعبائها فيضحوا بحياتهم على صخرة هـــذه الفعاليـات الاوربيـــة •

وانى اذ انظر الى هذه البلاد التى يحتضنها الرافدان ، يذوب قلبى اليها حنينا كلما تذكرت رجع فراقها • فقد تركت فى نفسى ذكريات قيمة وانطباعات تعصف بها كوامن الشوق والوجد والهيام فى كل لحظة يتمثل لى فيها خيالها • فقد وجدت فيها اناسا تخفق قلوبهم رقة وحنانا وتمتلىء عواطفهم نبلا وكرما واحسانا بغير ما تكلف أو ملق أو رياء • فهم جميعـــا ، عربا واكرادا ، يحملون نفسا لم تزل بعد تنعم ببساطة الطبيعة ونقائها ، ويشعرون بقرارتها بحاجتهم الى الاحتكاك والتعارف مع الناس الآخرين ، على عكس ما نراه فى شعوب آسيا الشرقية • فلن انسى ابدا عناية « حسن » وجميل صنيعه ـ وهو مضيفنا فى فندق زيا ـ فقد كان يحار فى أمره لتوفير الراحة والهناء لنا حينما نحل فى الفندق فى المساء ، وقد اتعبنا السفر وتعفرت أوجهنا بغباره • ولم الحظ

على احد من سواق السيارات أو الخدم شيئا من امارات الخيانة أو علائم الرذيلة أو اهمال أو تقصير نحو امتعتى وما امتلكه يدى .

وكانت كلمة « عبدالله الامير » جديرة بالملاحظة والاهتمام ، وهو يبدى أسفه وسخطه ، لما حل فى البلاد من تسيب فى الاخلاق فلم يعد أحد يأتمن صاحبه ، حين قال ، « كان العربى ، قبل سنين خلت ، اذا باع حصانا وضمن للمشترى جودته فلن يكون الا جيدا حقا ، اما الان فلا يمكن أن يصدق الناس فى كل ما يقولون » .

آه ، وماذا تتصور الحالة عندنا يا عبدالله الامير ؟ فان احد قدم اليك حصانا فى بلادنا وضمن لك جودته ، فعليك أن تتأكد قبل كل شيء أهو حصان حقا أم شيء آخر .

انني لا ادرى ، أيتيح لى الزمن أن اعود فارى هذه البلاد الغريبة الجميلة مرة ثانية ! ولكن الامل يملأ قلبى أن أعود فاجلس مرة أخرى تحت هذه الخيام العربية اتطلع الى هذه الصحراء وخفاياها واستمع الى اهازيج الرعيان ، وهم يسرحون بها فى فيافى منابتها وادغالها .

« ٣٦ »

كلمة الوداع

كان ظل الطيارة الضخمة يزحف على ارض الصحراء ، فاراها وهى لما تزل بعد تتيه فى خيلائها ووحدتها ، يسود فيها الصمت والسكون ، كما قد عهدتها من قبل . ولكنها اليوم تلوح لى غير ما لاحت لى بالامس ، لانني قد احطت بها علما ، فعرفت خفاياها وكوامنها . فلم تزل ترن فى أذنى خفقات رياحها وازيزها حينما تعصف برمالها ، وتتلاوح امام عينى أخيلة صورها الساحرة ومناظرها المغرية ، وتتراءى لى من بين رمالها المتطايرة رؤوس اعرابها ، يحف بها الشرف ، وتزينها العزة والكرامة ، وتبدو لى جمالها المحتشمة تجوب بين آفاقها ، ويلوح لى بين منبسطها ووديانها الرعيان الصغار وهم يسرحون بقطعان ماشيتهم ملتفين بأثوابهم المهلهلة ، وتتمثل لى أخيلة نسائها وهن يطحن الطعام بالطواحين الحجرية .

يقول الانكليز فى أمثالهم ، فى الفراق لوعة من الموت ، ويسمى الفرنسيون الفراق غصة الموت . والحق انى قد تحسست بكل ما تحمله هذه الكلمات البسيطة من معانى وعظات . فقد تتألف الحياة النفسية فى بعض اجزائها من أمور هامة تعلق بالذهن احيانا ، ولكنها سرعان ما يختفى أثرها ، وتنحسر من الذاكرة . وقد تعلق فى النفس صغار الامور أحيانا ، فتبقى ذكرياتها تتردد فى الخيال كلما استثارها الشوق واججها الحنين . فلن انسى

ضحكة أحمد ، الطفل البرىء ، بائع الجرائد ، ولن ينحسر من ذاكرتى نوح ذلك الحمام وقد أثار شجونه حفيف أغصان « اليوكاليتوس » التى تتخذ منها وكرا له • ولن يبرح يتمثل لى خيال أعين النساء العربيات تتلامع من بين براقعها • ولن يمحى من نفسى صدى تلك الانات والتأوهات التى تشغر بها النواعير الخشبية ، وهى تدور ترفع حفنات من الماء ، ولم تزل تتردد فى أذنى نغمات المؤذن على تلك المنائر المشوقة • ترى لم بقيت كل هذه الذكريات فى مخيلتى ؟ ألكونها حقائق تمثل حياة هذه البلاد الغريبة علي ؟ أم لانها هى الخفايا لاسرار الحوادث والتقلبات فى حياة هذا الشعب ؟ ومهما يكن من أمر ، فانها لذكريات لا استطيع أن أبعدها عن ذاكرتى ، وأثرها عميق فى نفسى ، كعمق أثر تلك الصور المنتزعة من صميم الحياة فى هولندا ، وهى التى تتمثل فى الطواحين الهوائية بين الغابات الكثيفة ، وفى ضربات قباقيب الاطفال الشقر على أزقة الحارة ، وفى دوى السفن وصفارات المراكب على مرافىء الشواطىء • والحقيقة ان الحياة تصور عظائم الامور من هذه الاشياء البسيطة • ومن لا يتحسس بذلك يجمل به ان يستشير الفنانين من الرسامين • فقد يكون الكأس المهشم من بين مجهودات الفنانين العظماء أمثال « أوستاد Ostade » أثمن من الفلاح الثمل أو المرأة الضاحكة المرحة • وقد يكون الكلب الصغير فى بعض اللوحات الفنية أكثر أهمية من فارس مغوار •

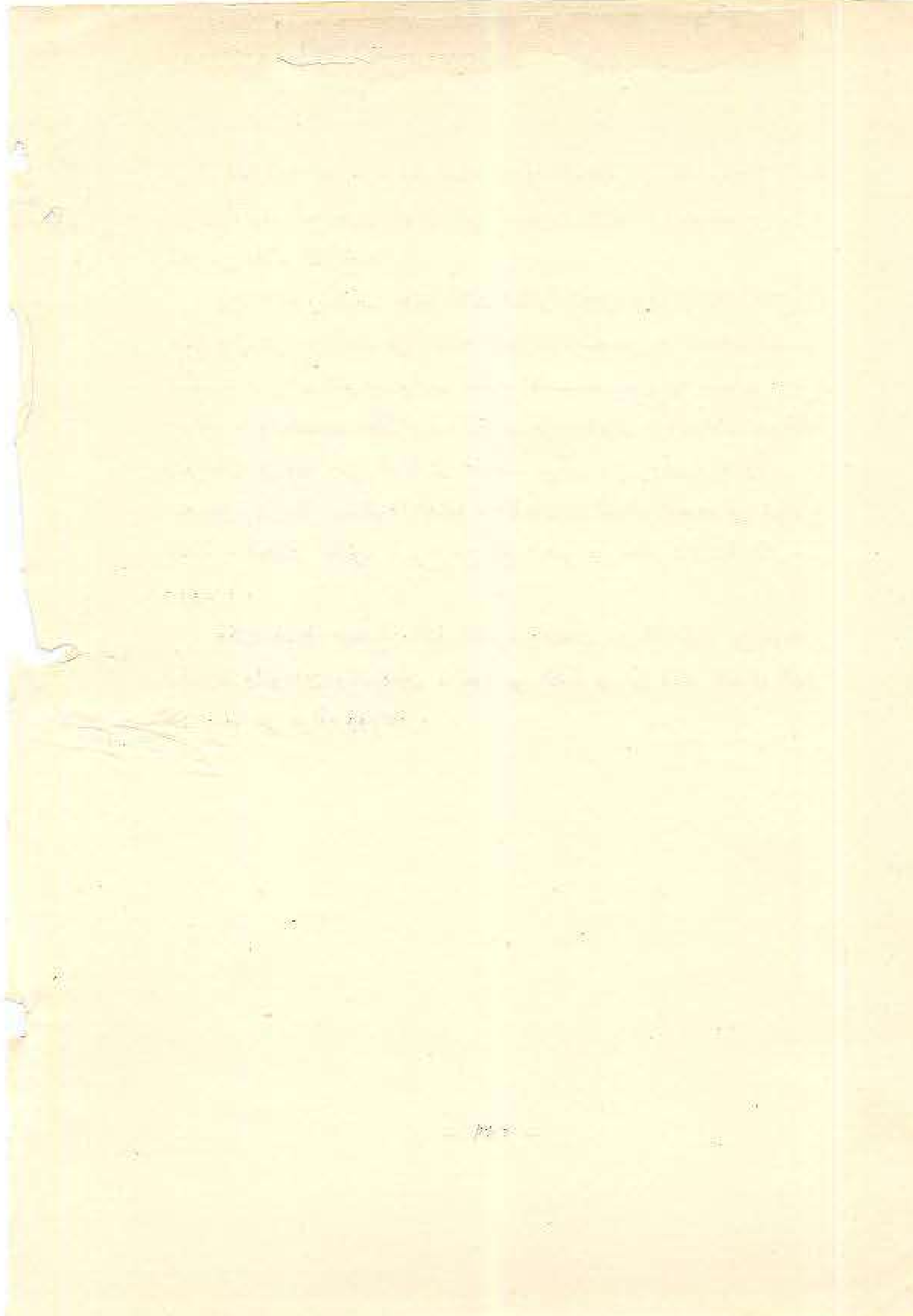
انني لسعيد جدا ، ان أرانى قد استطعت أن احتفظ بهذه الصور الجميلة واحملها معى ، وهى ملك خالص لى ، بعد أن اجتازت طائرتنا الصحراء ومرت على دمشق الساحرة فقاربت قمم الجبال اللبنانية •

وقد أسفت ان كانت الطائرة قد ارتفعت فى تحليقها ، فلم أعد استطيع أن أرى شواطىء البحر المتوسط ، اذ قد حجبتها كثافة الجو عن ناظرى ،

فلم أر قلعة أثينا القديمة . ولم أشهد جبالها الشاهقة التى كانت محلا لآلهة اليونان ، ولم ألمح جزر اليونان التى اشتهرت بغاباتها ، وحرمت من رؤية كثير من عظائم التاريخ .

وبدا الجو ينكشف حينما كانت الطائرة تحلق فوق ايطاليا ، فلاح لى خليج « تارنتو » وتلامعت فى أعماقه احجاره الثمينة من بين شعاعات الشمس المتكسرة . وبانت اشرعة قوارب صيد الاسماك تميل بها نسمات الرياح الصافية . وانخفضت الطائرة ، واقتربت من « نابولى » بانحناءات شواطئها وتعرجات مرافئها حتى قادتنا الى قذائف بركان « فيزوف » . وبانت لنا شبه جزيرة ايطاليا بمناظرها الممتعة ، ولاحت لنا اشجار البلوط فى شوارع المدينة . فحطت الطائرة بأسرع من لمح البصر فى مطار المدينة التاريخية « روما » .

فكنت وسط ضجيج ماكنة الطائرة وصخب حركة المارة من موظفى الكمارك والمودعين والمستقبلين ، تعود بى الذكرى الى ذلك الشرق الذى كان صعبا على فراقه ووداعه .



WASSERRÄDER
am
EUPHRAT

Oder

Zwischen Arabern und Kurden

Von

C. H. J. Maliepaard

سعر النسخة (٣٥٠) فلسا